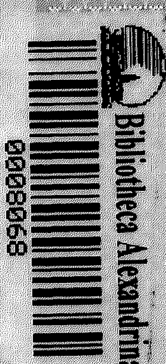
# هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة

احمد عبد الغنى النجولى الجمل





٠ ٢٨٢

# هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة

احمد عبد الغني النجولي الجمل

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش . م . م

هذا الكتاب في الأصل بحث علمي نال به المؤلف درجة الماجستير بامتياز من كلية أصول الدين ـــ جامعة الأزهر ـــ بالقاهرة .



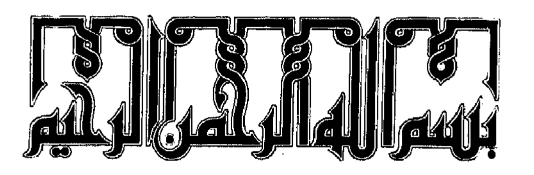
الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م




دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة .
الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت : ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠
فرع المنصورة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ......... ص . ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004
فرع القاهرة : ٤١ ش شريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٢٤٥١٨ / ٣٩٢٤٦٠٦

## إهــداء

إلى اللّذَيْن أعطياني الكثير ، لا يرُجوان جزاء ولا شكوراً ، وأملهما أن يرياني دائماً موفقاً ، إلى والِدَيَّ أهْلَى الفضل عليّ ، بارك الله فى عمرهما وجزاهما عنى خير الجزاء .


بسم الله الرحمن الرحيم

## شكر وتقدير

وفاء الطالب يقتضي أن أشكر لأستاذي الدكتور : إبراهيم عبد الرحمن محمد خليفة إرشاده ورعايته وإقباله على كلما سعيت إليه أستصوب نظرة ، وأستفتح مغلقاً ، فكان يكفيني بعلمه وفضله وسعة صدره خجل السائل .

وأنا ــ والرسالة بين يدى قارئها ــ لا أرتب عليه من زللى ما أرتب على نفسى ، فإنه لم يأل جهداً في توجيهي أولاً وآخراً .



بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمـــة

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، والصلاة والسلام على سيد الخلق سيدنا محمد بن عبد الله الذى بعثه ربه رحمة للعالمين وأنزل عليه القرآن الكريم ، فهدى به الناس من ضلالة ، وعلمهم من جهالة ، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فسيظل التاريخ يسجل إلى الأبد ، أن الهجرة المحمدية حدث جليل من أبرز أحداثه ذكراً ، وأخطرها شأناً ، وأعمقها معنى ، وأبعدها أثراً .

وستظل الهجرة معيناً لا ينضب أبداً ، لأعذب المعانى ، وأصفى المبادىء ، وأسمى القيم ، لأنها تعد من الأحداث الفاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية فكانت خاتمة لمرحلة كفاح من أجل الحق ــ وهو كلمة الله وحده ــ من دعاة لم يعتمدوا إلّا على الإيمان بهذا الحق وحده وعلى أن النصر لهم حتماً فى النهاية ، فلم يكن المسلمون طيلة السنوات التى قضوها بمكة قبل الهجرة على حال من القوة العددية أو المادية ، ولم يكونوا فى مأمن من الخصومة العنيفة غير الشريفة من أعدائهم ، بل كان عددهم قلة ، وحالهم ضعفاً ، ووضعهم فى الحياة العامة وضع المخاطر ولكن إيمانهم وحده هوالذى جعلهم يحتملون هذا اللون القاتم المهان من الحياة هذه السنوات العديدة فى كفاحهم من أجل الحق .

وكما كانت الهجرة خاتمة لهذه المرحلة المريرة فى الكفاح من أجل الحق كانت بداية لمرحلة ثانية ، غلبت عليها قوة العدد والعدة عن ذى قبل بجانب قوة

الإيمان المستمرة ، التى لم تفارق الكفاح من أجل الحق حتى انتصر ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

الهجرة إذن صورة مميزة من صور الكفاح فى سبيل الحق ، ومظهر للإيمان القوى به . لم تكن إلّا صدى لبلاغ الأذى مَبلغه من المهاجرين ، وصدى آخر لقوة احتمالهم لهذا الأذى وقوة صبرهم على الضيم والمكاره .

إن الهجرة النبوية كانت منطلقاً جديداً خصباً للدعوة الإسلامية ونشرها فى أنحاء العالم الواسع شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . حتى أصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وما ظنك بحدث أكسب المسلمين قوة ومنعة وأكسبهم نصراً على أنفسهم وعلى أعدائهم وعلى أهوائهم ، وكشف عن مواطن العظمة فى أولئك الكبار من أصحاب النبى ﷺ وفتح للدعوة الإسلامية فتحاً مبيناً ؛ فاتسع رحابها وانتشر عبيرها ، وأصبح الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، ويتسارعون فى الالتحاق بالأمة الإسلامية والاتصال بصاحب الدعوة ينهلون من صافى المعين وأصيل المورد الكريم ، وكان انتصاراً للمبادىء الإنسانية العليا ، وكان سبباً لتكوين دولة إسلامية لها أرضها وشعبها ومبادئها وكان وسيلة لفضح مؤامرات اليهود وكشف خبيئتهم وإبراز وسائلهم الخبيثة ، وأبرز عفن هذه الوثنية الحمقاء وكشف عن تفاهة أولئك المتعاظمين من سادات مكة الذين ظهروا على حقيقتهم عندما كشفها الصراع بين الحق والباطل ، إلى غير ذلك من المهام الجسام والغايات العظام التى لو تيسر واحد منها لكان أصدق شاهد على جلالة الحدث واستحقاقه من الباحثين أعظم حظ من الرعاية وبذل صادق الجهد فى التعرف على أبعاده والانتفاع بحكمته وعبرته ، فكيف لو توفر لهذا الحدث العظيم ـــ أعنى حدث الهجرة الشريفة ـــ كل هذه الغايات وغيرها كثير .

لهذا كله فقد رأيت مستعيناً بالله تعالى أن أتناول هذا الحدث بما يستحقه من البحث والدراسة تناولاً تتجلى منه عبره العظام وحكمه البالغات .

وبالله التوفيق .

## وهذه خطة الرسالة

**المقدمة** : أهمية الموضوع ــ سبب اختيار الموضوع .

**تمهيد** : ويشتمل على مبحثين :

الأول : ورود مادة هجر فى لغة العرب .

الثانى : هجرة مَنْ قبله ﷺ من الأنبياء .

**الباب الأول** : كيف كان موقف المشركين من دعوة الإسلام هو الحامل لأهلها على الهجرة .

الفصل الأول : الأسباب التى جعلت المشركين يقاومون الإسلام .

الفصل الثانى : الوسائل التى استخدمها القرشيون ضد الدعوة الإسلامية .

**الباب الثانى** : هجرة الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إلى الحبشة .

الفصل الأول : الهجرة الأولى وما وقع فيها .

الفصل الثانى : الهجرة الثانية وما وقع فيها أيضاً .

**الباب الثالث** : هجرة الرسول وصحابته إلى المدينة .

الفصل الأول : طور الإعداد للهجرة .

الفصل الثانى : تنفيذ الهجرة .

الفصل الثالث : صفات المهاجرين .

الفصل الرابع : النتائج المترتبة على الهجرة .

الفصل الخامس : أحكام الهجرة .

**الخاتمة** : عبرٌ مستخلصة .

**وبعد .**

فهذه كلمة موجزة عن موضوع الرسالة ، والدوافع التى حفزتنى إلى اختياره والخطة التى سرت عليها فى بحثه ودراسته .

هذا وأرجو أن أكون — بهذه الرسالة — قد أضفت إلى العلم شيئاً جديداً ، وقدمت إلى مكتبة التفسير وعلوم القرآن بحثاً جاداً .

فإن كنت قد أصبت فى بحثى هذا فذلك من فضل الله وعظيم توفيقه وإن كنت قد أخطأت فذلك منى ومن الشيطان ، وأسأل الله — سبحانه وتعالى — أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يرزقنى حسن القبول ، وأن يهيىء لى من أمرى رشداً ، إن ربى سميع مجيب .

**أبو محمد**

**أحمد عبد الغنى محمد النجولى الجمل**

# تمهيد

المبحث الأول : موردُ مادة هَجر فى لُغة العرب .

المبحث الثانى : هجرة من قبله ﷺ من الأنبياء .



# بسم الله الرحمن الرحيم

# المبحث الأول

## الاستعمال اللغوى لمادة هجر

**الهجرة فى الأصل الاسم من الهَجْر ضد الوصل : يقال : قد هَجَرَهُ هَجْراً ، وهِجْراناً ثم غلب على الخروج من أرض إلى أرض وترك الأولى للثانية**[1] ، وقد جعل ابن فارس لمادة « هجر » أصلين : أحدهما : يدل على القطع : والآخر : يدل على الوصل .

قال :

« والهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع ، والآخر على شد الشيء وربطه[2] » ثم أخذ يمثل للاستعمال الأول قال :

فالأول الهَجْر : ضد الوصل ، وكذلك الهِجْران ، وهاجر القوم من دار إلى دار تركوا الأولى للثانية ، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة .

---

(١) راجع النهاية فى غريب الحديث والأثر : لمجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير ٤ / ٢٣٩ ط بالمطبعة العثمانية ١٣١١ هـ ، تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى ٢ / ٨٥١ تحقيق الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار . دار العلم للملايين . ط ثانية بيروت ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، لسان العرب لابن منظور مادة هجر . ط دار المعارف ، تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدى ٣ / ٦١١ مع ملاحظة أن استعمال مادة « هجر » فى الهجر الذى هو ضد الوصل استعمال عام ، واستعمالها فى مجرد الخروج من أرض إلى أرض استعمال خاص .

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٦ / ٣٤ تحقيق / عبد السلام هارون . ط . ثانية بمطبعة مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ .

وتهجَّر الرجل تشبه بالمهاجرين . وفى الحديث : « هاجروا ولا تَهَجَّروا » أى أخلصوا الهِجْرَة لله ولا تتشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم[1] .

ومن الباب : الهَجْرُ : الهذيان . يقال : هَجَر الرجل . والهُجْر الإفحاش فى المنطق . يقال : أهجر الرجل فى منطقه[2] .

قال أبو عبيد : فى حديث النبى ﷺ : « وإنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْراً[3] .

قال أبو عبيد : قال الكسائى عن الأصمعى وغيرهما : قال : الهُجْر الإفحاش فى المنطق والخنا ونحوه . يقال منه : أهجر الرجل يُهْجِرُ إهْجَاراً .

قال الشماخ :

كما جِدَةِ الأعراق قال ابن ضَرَّةٍ : عليها كلاماً جار فيه وأهْجَرَا[4]وفى حديث أبى سعيد الخدرى أنه كان يقول لبنيه : « إذا طفتم بالبيت فلا تلغوا ولا تُهجِروا »[5] .

قال أبو عبيد : وجه الكلام عندى : تُهْجِرُوا فى هذا الموضع ، لأن الإهجار ، كما أعلمتك من سوء المنطق وهو « الهُجْر » وأماالهَجْرُ فى الكلام فإنه الهَذَيان مثل كلام المحموم والمبرسم يقال منه : هَجَرْتُ فأنا أهجرُ هَجْرَاً وهُجْرَاناً ، فأنا هَاجِرٌ ، والكلامُ مَهْجُور[6] .

---

(١) المرجع السابق ، النهاية : ٥ / ٢٤٥ ، الصحاح : ٢ / ٨٥١ .

(٢) المقاييس : ٦ / ٣٥ .

(٣) غريب الحديث لأبى عبيد : ـــ ٢ / ٦٣ ، طبعة مصورة عن مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ، النهاية ٤ / ٢٤٠ .

(٤) البيت للشماخ بن ضرار التغلبى ، من بحر الطويل ، وانظر غريب الحديث لأبى عبيد ٢ / ٦٣ ، والصحاح ٢ / ٨٥١ ، اللسان ٦ / ٤٦١٨ وهذا البيت يحمل صورة لمشبه به فى تشبيه تمثيلى ونحن لم نعرف هيئة المشبه التى لا بد وأن تكون مذكورة فى بيت قبله : والصورة التى معنا هى صورة امرأة شريفة من معدن شريف أساء إليها ابن ضرتها نكاية بها وتشهيراً بسمعتها فأشاع عنها أقوالاً جائرة لا تتورع عن الإفحاش الآثم . والشاهد فيه استعمال أهجر بمعنى أفحش .

(٥) غريب الحديث لأبى عبيد ٢ / ٢٦٣ ، النهاية ٥ / ٢٤٦ .

(٦) غريب الحديث ٢ / ٦٣ .

ورماه بالهاجرات ، وهى الفضائح ، وسُمى هذا كله ، لأنه من المهجور الذى لا خير فيه(١).

ويقولون هذا شىء هَجْرٌ ، أى لا نظير له ، كأنه من جودته ومباينته الأشياء قد هجرها(٢) .

قال الأزهرى : وسمعت العرب تقول فى نعت كل شىء جاوز حده فى تمامه : إنه لمُهْجِرٌ ، وناقة مُهْجِرة ، إذا وصفت بالفراهة والحُسن ، وإنما سمى ذلك إهْجَاراً ، لأن ناعته يخرج فى نعته عن الحد المقارب المشاكل للمنعوت إلى نعت يفرط فيه ، فكأنه يهذى ويهجر(٣) .

قال : قال أبو عبيد قال أبو زيد : يقال للنخلة الطويلة : ذهبت هَجْراً ، أى طولاً وعظماً والمادة فى كل ما تقدم تدل على القطع ، وفى دلالتها على القطع إما تدل على قطع خاص وإما تدل على قطع عام .

فالأول : مطلق الخروج من أرض إلى أرض قال الأزهرى : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدينة . يقال : هاجر الرجل إذا فعل ذلك ، وكذلك كل مُخْلٍ بمسكنه متنقل إلى قوم آخرين بسكناه فقد هاجر قومه ، وسُمى المهاجرون مهاجرين ، لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التى نشئوا بها لله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ، ولا مال حين هاجروا إلى المدينة . فكل من فارق بلده من بدوى أو حضرى وسكن بلداً آخر فهو مهاجر .

والاسم منه الهِجْرة . قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً** ﴾(٤) .

---

(١) مقاييس اللغة ٦ / ٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) تهذيب اللغة للأزهرى ٦ / ٤٣ تحقيق عبد السلام هارون واخرين . ط الدار المصرية للترجمة والنشر .

(٤) من الآية ١٠٠ من سورة النساء، وانظر تهذيب اللغة ٦ / ٤٢ ، واللسان ٦ / ٤٦١٦ ، تاج العروس ٣ / ٦١١ .

والثانى : ـــ القطع العام ـــ فعند استعمال المادة فى شىء فاق غيره من أفراد نوعه

يقولون : هذا شىء هَجْرٌ ، أى لا نظير له ، كأنه من جودته ومباينته الأشياء قد هجرها .

ويقولون : هذا أهجر من هذا أى أكرم ، وقد يقال فى كل شىء .

والهَجِرُ : الحوض الكبير سمى به لأنه شىء يقتطع للماء(١) .

ونعود إلى ابن فارس لنناقشه فى رأيه الخاص بدلالة المادة على الوصل ـــ وإن كان قد ترك التمثيل له ـــ متتبعين ما ورد فى كتب اللغة مما يوهم دلالتها على الوصل فمنها .

الهِجِّير ، مثال الفِسِّيق : الدأب والعادة ، وكذلك الهِجِّيرى ، والإهجِيرَى .

يقال : ما زال ذاك هِجِّيراه وإهْجِيرَاه أى عادته وذأبه .

الأصمعى : الهِجَار : حبل يُشَدُّ فى رسَغ البعير ، ثم يُشَدُّ إلى حقوه . تقول منه : هجَّرت البعير أهْجُرْه هَجْراً .

وَهِجَارُ القوس : وترها . ويقال : المهجور : الفحل يشد رأسه إلى رِجْلِهِ(٢) .

هذه الأمثلة جعلت ابن فارس يتوهم دلالتها على الوصل وفيه نظر .

فما ورد مما ظاهره معنى الوصل يمكن أن يرد إلى المعنى الأصلى للمادة وهو القطع ، فقولهم الهجير والهجيرى والإهجيرى بمعنى الدأب والعادة ، وقول من قال إنها بمعنى الوصل لما فيها من المواصلة والمتابعة يمكن أن يرد إلى معنى القطع ، فإذا قيل فلان هجيراه كذا أى عادته . تفهم على معنى أنه هجر كل مظاهر السلوك ولزم هذه العادة فدأبه وعادته انقطاعه عما سواها .

---

(١) مقاييس اللغة ٦ / ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) الصحاح ٢ / ٨٥١ ، اللسان ٦ / ٤٦٢٠ مادةهجر .

أما قولهم : الهجار بمعنى الحبل الذى يشد فى رسغ البعْير ثم يشد إلى حقوه ومنه هجرت البعير أهجره هجراً .

وهجار الفرس وترها ويقال المهجور الفحل يشد رأسه إلى رجله .

من نظر إلى معنى الشد والربط فنظرته سطحية إذ هذا الرباط ليس سوى وسيلة تجعل البعير مهجوراً أى مقطوعاً عن غيره ، فكأنها آلة هجره أى قطعه عن الحركة .

هذا ويرى بعض المحدثين(١) إضافة وزن فِعال إلى أوزان اسم الآلة القياسية إلى جانب ما عده علماء اللغة من أوزانها القياسية الثلاثة المعروفة ، مِفْعَل ــ كمِبْرَد ــ مِقْفَال ــ كمحراث ــ مفعلة كمكنسة . واستأنس لهذا الرأى بكثرة ما ورد على فِعَال مفيداً معنى الآلة مثل سِقاء ــ وِكاء ــ غِطَاء ــ ضِماد ــ لِحاف ــ رِباط ــ جِراب ــ لِجام ــ خِطام ، هِجار(٢) .

على أنه يجب أن نعلم أن هناك فرقاً بين الهَجْر والهِجْرَة ــ فالهجرة اسم بمعنى المهاجرة ، فالهجرة اسم مصدر ، والنبي ﷺ لم يهجر مكة وإنما هاجر منها .
فالمهاجرة فيها معاناة أو مقاساة وصراع داخلى ناشىء من صيغة التفاعل .
ويؤكد هذا أن النبي ﷺ قال عند مهاجره والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى ولولا أنى أُخْرِجْتُ منك ما خرجت »(٣) .

والمُهَاجَر ــ المكان الذى يهاجر إليه فالشام مُهَاجَرُ إبراهيم ، والمدينة مُهَاجَرُ النبى ﷺ ، فالمُهَاجَر هنا مصدر ميمى بمعنى المهاجرة أو الهجرة .

ويمكن أن تكون الهِجْرة اسم هيئة من الهَجْر ، فى هجر مخصوص على هيئة مخصوصة هى هيئة المهاجرة .

---

(١) راجع ص ٢٥٠ من مجلة المجمع اللغوى ، العدد الخاص بالبحوث والمحاضرات التى ألقيت فى مؤتمر الدورة التاسعة والعشرين ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ وكذلك ص ١٩ من كتابه الذى أخرجه ١٩٦٩ باسم « كتاب فى أصول اللغة » عن كتاب النحو الوافى للأستاذ الدكتور عباس حسن ج ٣ ص ٣٣٧ : ٣٣٨ ط خامسة دار المعارف ١٩٨٠ بتصرف .

(٢) آلة قطع البعير عن الحركة .

(٣) سنن ابن ماجه كتاب المناسك باب فضل مكة . ط . عيسى الحلبى ، الجامع الصحيح . وهو سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، كتاب المناقب باب فضل مكة قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . ط . مصطفى البابى الحلبى بتحقيق الأستاذ / أحمد محمد شاكر .



# المبحث الثانى

## هجرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

لم يكن سيدنا محمد ﷺ أول من هاجر من الرسل ، ولم تكن هجرته عليه الصلاة والسلام هى الهجرة الوحيدة فى تاريخ الرسل والأنبياء ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه مكة من أجل الدعوة الإسلامية ، وإيجاداً لبيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها ، بل تزود عنها ، فإن بعض إخوانه الأنبياء « عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليمات قد هاجروا قبله من أوطانهم لينشر كل منهم دعوته .

ومن الأمور التى يسلم بها كل باحث ما رآه الأستاذ محمد السمان وعبر عنه بقوله : « إن بقاء الدعوة فى أرض قاحلة لا يخدمها ، بل قد يعوق مسارها ، ويشل حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر فلا تملك أن تتنفس الهواء الطلق الذى هو ضرورى لسلامتها وبقائها ، وقد جرت سنة الله فى خلقه ، أن يقبل البعض من خلقه على دعوات رسله وأنبيائه فتشرق نفوسهم لهدايته ، وتشف أرواحهم وتنشرح صدورهم ، وتتفتح عقولهم ، وتستجيب قلوبهم ، وأن يُعرض البعض الآخر عن دعوات أنبيائه ورسله ، فتتبلد نفوسهم إزاء هدايته بسحب الغى والضلال ، وتتبلد عقولهم ، وتنقبض صدورهم ، وتنغلق أسماعهم فينشأ صراع بين الحق والباطل ، ونضال بين الهدى والضلال . وتخضع القضية بعد ذلك لشىء من الموازنة . فإذا كانت الفئة المؤمنة من أتباع الحق من القلة بحيث تصبح ولا تملك إلّا أن تظل مستضعفة فى الأرض ، مغلوبة على أمرها ، تتلقى من

الفئة الكافرة من أشياع الباطل ضربات لا هوادة فيها ولا رحمة ، وصفعات من السخرية لا أدب فيها ولا عفة ، فلن يكون أمام الفئة المؤمنة إلّا أن ترحل لتتمكن من الانطلاق فى أرض أخرى .

وقد يكون لدى الفئة المؤمنة من الإيمان ما يجعلها تتحمل كل صنوف الأذى من أجل دعوتها ، ومن اليقين ما يجعلها تصمد أمام كل ألوان البطش والإرهاب ، ومن الطمع فى رضا الله « سبحانه وتعالى » ورحمته ما يجعلها مستعدة للتضحية بأرواحها وأموالها ، لكن هذه الفئة المؤمنة فى مجموعها ليست إلّا بشراً لطاقة احتماله حدود ، إذن فالحل العملى هو أن تسعى إلى الخلاص بإيمانها بالله « عز وجل » .

أما إذا كانت الفئة المؤمنة من الكثرة والقوة بحيث تستطيع ـــ وهى ممكنة فى الأرض ـــ أن تقف بأقدامها فوق أرض صلبة ، وأن تحمى نفسها ودعوتها من كل كيد يدبر لها ، ومن كل شر يراد بها ، وأن تدعو إلى الله وهى مرهوبة الجانب ، فلن يكون هناك مبرر لأن تترك الأرض التى نشأت فوقها ، فسوف يكون لديها القدرة على أن تسلط أشعة الهداية على المنطقة التى تعيش فيها .

هذه الموازنة كانت محل نظر فى سائر دعوات الأنبياء والرسل قبل محمد صلوات الله عليه وقد قص الله علينا فى كتابه العزيز نماذج من هجرات الرسل « صلوات الله عليهم » لتبدو لنا ـــ فى وضوح ـــ سنة من سنن الله فى شأن الدعوات ، ليأخذ بها من بعدهم كل داعية إلى الله بل كل مؤمن بالله عز وجل ، هذه السنة المقررة من سنن الله ، هى تضحية المؤمن بأعز ما يعتز به فى حياته من أجل إيمانه وعزته وكيانه بأسره ، فإذا حيل بينه وبين إيمانه وعزته ، واستخف بكيانه ووجوده ، واعتدى على مروءته وكرامته ، وعجز عن أن يبذل دمه وروحه فداء إيمانه ، هاجر إلى حيث يجد الأمن ، والبيئة الصحية التى تتنفس فيها دعوته[1] .

---

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ٣٣ : ٣٥ ـــ سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ـــ السنة الرابعة ـــ الكتاب السادس والأربعون ١٣٩٢ هـ ـــ ١٩٧٢ م .

# نماذج لهجرات بعض الأنبياء السابقين

## هجرة سيدنا إبراهيم :

لقد قام سيدنا إبراهيم يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له فبدأ دعوته مع أبيه ، بلهجة تسيل أدباً ورقة ، يهديه بها صراطاً مستقيماً ، فأشار إلى الأصنام مبيناً أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تشعر بعابد يعبدها أو عاص يعصيها ، ثم بين لأبيه أنه ليس مخترعاً للدعوة ، وأنها من لدن عليٍّ قدير ، وأنه قد تلقى من العلم ما لم يتلق أبوه ، وأنه لا ضرر إذا اتبع ملة ولده أو عمل برأيه ، واختتم نصحه برجاء تقدم به إلى والده ، أن يحذو حذوه ، ويسلك سبيله ، وإلَّا فالطريق التى يسلكها غير طريق الهدى ، هى طريق ملأى بالأشواك ، وهى طريق الشيطان الرجيم .

ولكن أباه رفض الدعوة ، بل وهدده إن لم ينته عن دعوته هذه ليرجمنه وليهجرنه ملياً ، فما كان من الخليل إبراهيم ــ تأدباً مع أبيه ــ إلَّا أن يدعو له بالمغفرة ، وأن ينتظر إجابة دعوته إلى حين . وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى فى سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً * يَاأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا * يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا * يَاأَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾(١) .

---

(١) سورة مريم من ٤١ : ٤٨ .

## تحطيم سيدنا إبراهيم للأصنام :

بذل سيدنا إبراهيم جهداً كبيراً مع قومه لصرفهم عن عبادة الأوثان والاتجاه إلى عبادة الله الواحد القهار ، إلَّا أن القوم ظلوا فى طغيانهم يعمهون ، مما دفع الخليل إبراهيم أن يجرب معهم وسائل حسية ، ومن ثم فقد حطم الأصنام وترك كبيرهم ، لعل القوم يفكرون فى الموقف الجديد ، أملاً فى أن يهديهم الله سواء السبيل ، فيعرفوا أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ، ولا تمنع عنها ضراً ، فضلاً عن أن يكون ذلك للقوم أنفسهم ، إلَّا أن هذه العقول المتحجرة ، لم تزد على أن لجأت إلى العنف لنصرة أصنامها ، ولم تجد لها مخرجاً من الموقف الجديد ، إلَّا أن تلقى بإبراهيم فى نار ، ظنوا أنها ستكون القاضية على الخليل ، وأنها الحل السديد لمشكلتهم ، مع هذا الذى سفه عقولهم وحطم أصنامهم دون أن يفكروا مرة فى مقابلة الحجة بالحجة ، ودون أن يرجعوا إلى الحق ، ما دام الحق مع إبراهيم ، وتلك — وأيم الله — عادة من طمس الله على قلوبهم فى كل زمان ومكان ، لا يعرفون إلَّا القوة الطاغية ضد العقول المستنيرة التى تبغى لهم الخير والفلاح .

ويكتب الله — جل وعلا — لخليله عليه السلام النجاة من القوم الكافرين ، بعد أن أعدوا العدة لإحراقه .

وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا

إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رءوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾(١) .

**هجرته « عليه الصلاة والسلام » إلى الشام :**

وبعد ذلك بدأ إبراهيم « عليه الصلاة والسلام » يفقد الأمل فى إيمان القوم ، وبخاصة بعد المناظرة التى جرت بينه وبين الذى آتاه الله الملك .

وهنا يقرر إبراهيم الهجرة ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينَ ﴾(٢) .

أى مهاجر من بلد قومى ومولدى إلى حيث أتمكن من عبادة ربى فإنه « سيهدين » فيما نويت إلى الصواب(٣) وكانت هجرته هذه إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة(٤) منها التى باركها الله « سبحانه وتعالى » قال عز وجل عنها ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾(٥) ، وكان يرافقه فى هذه الهجرة زوجه سارة وابن أخيه لوط وزوجه(٦) ، كما قال تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٧) وسكن إبراهيم ولوط فى تلك الأنحاء ولكنه لم يطل به المقام بل كان ينتقل نحو الجنوب(٨) .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات من ٥١ إلى ٧٠ .

(٢) سورة الصافات : آية ٩٩ .

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ج ٧ ص ٥٥٤١ بتصرف ط دار الشعب .

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ج ٣ ص ١٨٤ وما بعدها ط عيسى البابى الحلبى .

(٥) سورة الأنبياء آية ٧١ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ١٨٥ بتصرف .

(٧) سورة العنكبوت آية ٢٦ .

(٨) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ١٥٠ طبع ونشر دار الفكر العربى .

## هجرته إلى مصـــر :

ويقيم الخليل بأرض الشام ما شاء الله له أن يقيم ، إلى أن عم القحط ، وشمل الجدب والغلاء ، وضاقت سبل العيش فيها ، فرحل إبراهيم إلى مصر ، تصحبه زوجه سارة وهبط أرضها ، ثم أقام بها ما شاء الله أن يقيم ، وكان وادع النفس ، دمث الخلق ، لين العريكة ، طويل الأناة ، دءوباً على العمل ، لذلك كثر ماله ، ونمت أنعامه ، وارتفع ذكره[1] غير أنه قد وقعت له فى مصر حادثة فحواها : أن بعض أهل جبار مصر عندما رأى السيدة سارة وما تتمتع به من الحسن والبهاء فقال للجبار لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلّا لك ، فأرسل الجبار إليها فأتى بها ، وكان سيدنا إبراهيم قد اتفق معها عند قدومهما إلى مصر أن يقول « إنها أختى وتقول هى إنه أخى » وعندما مثلت أمام الملك أراد أن ينال منها إلّا أن الله « سبحانه وتعالى » حفظها منه ، عند ذلك أمر لها بأموال كثيرة كما أعطاها السيدة هاجر . وفى ذلك يروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة « رضى الله عنه » أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم النبى ، عليه السلام قط إلّا ثلاث كذبات . ثنتين فى ذات الله قوله « إنى سقيم » وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة . فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة . وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار ، إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختى ، فإنك أختى فى الإسلام . فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرى وغيرك . فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار . أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلّا لك . فأرسل إليها فأتى بها فقام إبراهيم « عليه السلام » إلى الصلاة . فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها . فقُبِضتْ يده قبضة شديدة . فقال لها . ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فَقُبِضتْ أشد من القبضة الأولى . فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال : ادعى الله أن يطلق يدى . فلك الله ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ودعا الذى جاء بها ، فقال له : إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر قال فأقبلت تمشى

(١) قصص القران لمحمد أحمد جاد المولى وآخرين ، ص ٥٣ وما بعدها بتصرف . ط دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبي .

فلما رآها إبراهيم « عليه السلام » انصرف فقال لها مهيم قالت خيراً كف الله الفاجر وأخدم خادماً . قال أبو هريرة : تلك أمكم يا بنى ماء السماء »(١) .

وروى البخارى أيضاً عن رسول الله ﷺ فى حديث الشفاعة الوارد فى فصل القضاء يوم القيامة ، وهو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم ، وفيه أنه « حينما يأتون إبراهيم « عليه السلام » يطلبون منه ذلك فيقول لهم إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات »(٢) .

وهذان الحديثان السابقان ينسبان الكذب صراحة إلى إبراهيم « عليه السلام » فكيف تجوز هذه النقيصة على أبى الأنبياء « عليهم السلام » مع ما هو معلوم مقرر فى أذهان أصاغر أهل العلم فضلاً عن أكابرهم من وجوب صفات أربع للأنبياء ، هى الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .

وللإجابة على ذلك يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى من سورة الأنبياء ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ .

« فإن قيل قوله : بل فعله كبيرهم كذب « والجواب » للناس فيه قولان . « أحدهما » وهو قول كافة المحققين أنه ليس بكذب ، وذكروا فى الاعتذار عنه وجوهاً « أحدها » أن قصد إبراهيم « عليه السلام » لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتاباً بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر إلَّا على خرمشة فاسدة ، فقلت له بل

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ مرفوعاً وموقوفاً . وقال الحافظ ابن حجر : فى الفتح ج ١٣ ص ١٣٢ إن ابن سيرين كان غالباً لا يصرح برفع كثير من حديثه ، وأخرجه الإمام مسلم مرفوعاً فى كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ واللفظ المذكور هنا للإمام مسلم .

(٢) الحديث اخرجه الإمام البخارى فى كتاب التفسير من عدّة طرق فى أبواب متعددة أخرجه فى تفسير سورة البقرة عن أنس ، وفى تفسير سورة بنى إسرائيل عن أبى هريرة .

كتبته أنت . كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمى أو المخرمش ، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر ، « وثانيهما » أن إبراهيم « عليه السلام » غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة ، وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب فى استهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه ، « وثالثها » أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن من حق من يعبد ويدعى إلٰهاً أن يقدر على هذا وأشد منه ، وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف ، « ورابعها » أنه كناية عن غير مذكور ، أى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدىء كبيرهم هذا، « وخامسها » أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدىء فيقول هذا فاسألوهم ، والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم ، « وسادسها » أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير ، كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين ، « وسابعها » قرأ محمد ابن السميفع فلعله[1] كبيرهم أى فلعل الفاعل كبيرهم ، « القول الثانى » وهو قول طائفة من أهل الحكايات . أن ذلك كذب ، واحتجوا بما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « لم يكذب إبراهيم إلّا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى » .

قوله ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقوله لسارة هى أختى ، وفى خبر آخر « أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال : إنى كذبت ثلاث كذبات » ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب ليس قبيحاً لذاته ، فإن النبى « عليه السلام » إذا هرب من ظالم واختفى فى دار إنسان . وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب عليه . وإذا كان كذلك فأى بعد فى أن يأذن الله « تعالى » فى ذلك لمصلحة لا يعرفها إلّا هو . واعلم أن هذاالقول مرغوب عنه . أما الخبر الأول وهو الذى رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواته

(١) فى المطبوعةالتى بين أيدينا فعله والصواب من شرح الإمام نفسه كما ترى .

أولى من أن يضاف إلى الأنبياء « عليهم الصلاة والسلام » ، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحةويأذن الله تعالى فيه ، فلنجوز هذا الاحتمال فى كل ما أخبروا عنه ، وفى كل ماأخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها ، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهومحمول على المعاريض على ما قال عليه السلام « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب »[1] فأما قوله ﴿ **إنى سقيم** ﴾ فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجىء فى موضعه ، وأما قوله ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ فقد ظهر الجواب عنه .

وأما قوله لسارة : إنها أختى ، فالمراد أنها أخته فى الدين ، وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء « عليهم السلام » فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلّا زنديق[2] .

وقال رحمه الله عند هذا الموضع الذى وعد بالاستقصاء فيه من سورة الصافات كذلك ثم قال ﴿ **فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم** ﴾ عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم ، وذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً فى بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان « الأول » أن النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم « والثانى » أنه « عليه السلام » ما كان سقيماً فلما قال ﴿ **إنى سقيم** ﴾ كان ذلك كذباً . واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوهاً كثيرة « الأول » أنه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار . فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ فجعله عذراً في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقاً فيما قال . لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت ، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم ، « الوجه الثانى » في الجواب أن قوم إبراهيم « عليه السلام » كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور ، فلذلك نظر إبراهيم في

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب « المعاريض مندوحة عن الكذب » فى الترجمة .

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى ٢٢ / ١٨٥ وما بعدها الطبعة الثانية بدار الكتب العلمية بطهران .

النجوم أى فى علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها ، وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفي النحو ، وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال : ﴿ **إن سقيم** ﴾ سكنوا إلى قوله .

**أما قوله** ﴿ **إنى سقيم** ﴾ فمعناه سأسقم كقوله ﴿ **إنك ميت** ﴾ أى ستموت « الوجه الثالث أى قوله ﴿ **فنظر نظرة فى النجوم** ﴾ هو قوله تعالى : ﴿ **فلما جن عليه الليل رأى كوكباً** ﴾ إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة ، وقوله ﴿ **إنى سقيم** ﴾ يعنى سقيم القلب غير عارف بربى ، وكان ذلك قبل البلوغ ، « الوجه الرابع » قال ابن زيد كان له نجم مخصوص ، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ، ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ أى هذا السقم واقع لا محالة ، « الوجه الخامس » أن قوله ﴿ **إنى سقيم** ﴾ أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، قال تعالى لمحمد ﷺ ﴿ **لعلك باخع نفسك** ﴾ « الوجه السادس » فى الجواب أنا لا نسلم أن النظر فى علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام ، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص ، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل . وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله ﴿ **إنى سقيم** ﴾ على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما فى بدنه وإما فى قلبه وكل ذلك سقيم .

« الوجه السابع » قال بعضهم : ذلك القول عن إبراهيم « عليه السلام » كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبى ﷺ أنه قال « ما كذب إبراهيم إلَّا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغى أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب للراوى وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوى أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟ « الوجه الثامن » أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فإن الأشياء التى

تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أى مفرقة ومنه نجوم الكتابة . والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله ﴿ إنى سقيم ﴾ والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيماً كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم « عليه السلام » لما قال ﴿ إنى سقيم ﴾ ولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى ألا يخرج اليوم فكان ذلك مراده (١)

وقال الحافظ ابن حجر « رحمه الله » فى الفتح « قوله لم يكذب إبراهيم « عليه الصلاة والسلام » إلَّا ثلاث كذبات قال أبو البقاء : الجيد أن يقال بفتح الذال فى الجمع لأنه جمع كذْبة بسكون الذال وهو اسم لا صفة . لأنك تقول كذب كذبة كما تقول ركع ركعة ولو كان صفة لسكن فى الجمع . وقد أورد على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبى زرعة عن أبى هريرة فى حديث الشفاعة الطويل فقال فى قصة إبراهيم وذكر كذباته ، ثم ساقه من طريق أخرى من هذا الوجه وقال فى آخره وزاد فى قصة إبراهيم وذكر قوله فى الكوكب — هذا ربى — وقوله لآلهتهم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله ﴿ إنى سقيم ﴾ انتهى . وقال القرطبى : وذكر الكوكب يقتضى أنها أربع وقد جاء فى رواية ابن سيرين بصيغة الحصر فيحتاج فى ذكر الكوكب إلى تأويل .

قلت : الذى يظهر أنها وهم من بعض الرواة فإنه ذكر قوله فى الكوكب بدل قوله فى سارة والذى اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل أنه قاله فى حال الطفولية فلم يعدها لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف ، وهذه طريقة ابن إسحاق . وقيل إنما قال بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذى يقصد به التوبيخ ، وقيل قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذى يتغير لا يصلح للربوبية وهذا قول الأكثر أنه قال توبيخاً لقومه أو تهكماً بهم وهو المعتمد ، ولهذا لم يعد ذلك فى الكذبات ، وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً لكنه إذا حقق لم يكن كذباً ؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٦ ص ١٤٧ وما بعدها .

بكذب محض ، فقوله : ﴿ **إنى سقيم** ﴾ يحتمل أن يكون أراد إنى سقيم أى سأسقم واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً ، ويحتمل أنه أراد إنى سقيم بما قدر على من الموت أو سقيم الحجة على الخروج معكم . وحكى النووى عن بعضهم أنه كان تأخذه الحمى فى ذلك الوقت وهو بعيد لأنه لو كان كذلك لم يكن كذباً لا تصريحاً ولا تعريضاً ، وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ قال القرطبى : هذا قاله تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة وقطعاً لقومه فى قولهم إنها تضر وتنفع . وهذا الاستدلال يتجوز فيه فى الشرط المتصل ولهذا أردف قوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ بقوله : ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ قال ابن قتيبة : معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا ، فالحاصل أنه مشترط بقوله : ﴿ **إن كانوا ينطقون** ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب وعن الكسائى أنه كان يقف عند قوله ﴿ **بل فعله** ﴾ أى فعله كائناً من كان ، ثم يبتدىء كبيرهم هذا ، وهذا خبر مستقل ثم يقول فاسألوهم إلى آخره ولا يخفى تكلفته . وقوله هذه أختى يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته فى الإسلام كما سيأتى واضحاً . وقال ابن عقيل : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغى أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه ، فكيف مع وجود الكذب منه ؟ وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع . وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم « عليه السلام » يعنى إطلاق الكذب على ذلك إلّا في حال شدة الخوف لعلومقامه ، وإلّا فالكذب المحض فى مثل تلك المقامات يجوز ، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما . وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم فإن الكذب وإن كان قبيحاًمخلاً لكنه قد يحسن فى مواضع وهذا منها(١) .

وأياً ما يكن الأمر فإن الظاهر أن هذه الحادثة والتى هى إحدى المواضع التى سمى فيها الحديثان الشريفان ما وقع من إبراهيم « عليه السلام » كذباً وأجاب عنه الفحواي بما قد رأيت . أقول :

الظاهر أن هذه الحادثة قد وقعت للخليل « عليه السلام » فى مصر كما سبق

---

(١) فتح البارى الحافظ أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى ١٣ / ١٣٢ : ١٣٤ ط مكتبة الكليات الأزهرية

أن ذكرنا على ما اختاره السهيلى ومن قبله ابن هشام فى التيجان ، فمن ثم قدم الحافظ ابن حجر هذا القول فى كلامه على غيره وحكى ذلك الغير فى صورة التمريض[1] .

## عودته ثانية إلى الشام :

وبعد أن مكث سيدنا إبراهيم « عليه السلام » فى مصر مدة من الزمن رجع ثانية إلى فلسطين ومعه المال الوفير والرزق الكثير ، واستقر ثانية بها ، مع الفئة القليلة التى آمنت واستجابت لدعوته ، وكانت معه زوجته سارة وجاريتها المصرية « هاجر » وحينئذ أخذ إبراهيم « عليه السلام » يتم نشر دعوته ، ويقوم بأداء رسالته . وقد تركت هجرته لمصر آثارها العظيمة فى نفسه ، لكثرة ما أفادته التجارب ومعاملة الناس . والمحن الرهيبة التى تعرض لها فى سفره وتجواله ، وظعنه وترحاله ، وتلك سنة الله ـــ أبدا ـــ مع المصطفين من عباده يصفى نفوسهم بما يتعرضون له من خطوب الزمن وتتابع المحن ليجعل منهم خير أسوة وأكرم قدوة على توالى العصور والأجيال[2] .

## هجرته بابنه إسماعيل وزوجه هاجر إلى مكة :

شاءت إرادة الله أن يهاجر سيدنا إبراهيم هجرة أخرى بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى الحجاز .

روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال :

« أول ما اتخذ النساء المِنْطَق[3] من قبل أم إسماعيل ، اتخذت مِنْطَقاً لتُعَفِّى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحَة[4] فوق زمزم فى أعلى المسجد[5] ، وليس بمكة يومئذ أحد

---

(١) انظر جميع ذلك فى الفتح ٦ / ٣٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ١ / ١٥٠ بتصرف ، قصص القرآن لمحمد جاد المولى ص ٥٣ بتصرف .

(٣) المِنْطَق بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء وهو ما يشد به الوسط . ووقع فى رواية ابن جريج النُّطُق بضم النون والطاء وهو جمع نطاق فتح البارى ١٣ / ١٤١ .

(٤) عند دوحة : بفتح المهمله وسكون الواو ثم مهملة الشجرة الكبيرة « السابق »

(٥) فى أعلى المسجد : أى مكان المسجد لأنه لم يكن حينئذ بنى « السابق » .

وليس بها ماء[1]، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى[2] إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية [3] حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[4].

ثم رجع سيدنا إبراهيم ثانية من الحجاز إلى فلسطين .

**هجرة سيدنا لوط « عليه الصلاة والسلام » :**

قلنا قبل ذلك أن سيدنا لوط « عليه الصلاة والسلام » آمن بسيدنا إبراهيم ، ثم هاجر معه لنفس الأسباب التى حملت إبراهيم على الهجرة من وطنه ومسقط رأسه بالعراق إلى أرض الشام .

---

(١) وسِقاء فيه ماء : السقاء بكسر أوله قربة صغيرة ، وفى رواية إبراهيم بن نافع عن كثير التى بعد هذه الرواية « ومعها شَنَّة » بفتح المعجمة وتشديد النون وهى القربة العتيقة « السابق » .

(٢) ثم قفى إبراهيم : أى ولى راجعاً إلى الشام . وفى رواية ابن إسحاق فانصرف إبراهيم إلى أهله بالشام وترك إسماعيل وأمه عند البيت « السابق » .

(٣) الثنية : بفتح المثلثة وكسر النون وتشديد التحتانية . وقوله « من طريق كداء » بفتح الكاف ممدود هو الموضوع الذى دخل النبى ﷺ مكة منه وهو معروف . ووقع فى رواية الأصيلى : « البنية » بالموحدة بدل المثلثة وهو تصحيف وضبط ابن الجوزى كُدى بالضم القصر . وقال هى التى بأسفل مكة عند قعيقعان قال : لأنه وقع فى الحديث أنهم نزلوا بأسفل مكة . قلت وذلك ليس بمانع أن يرجع من أعلى مكة فالصواب ما وقع فى الأصول بفتح الكاف والمد « السابق » .

(٤) صحيح البخارى كتاب الأنبياء باب يزفون النسلان فى المشى . يقول ابن حجر عند الكلام عن هذا الباب « تنبيه : وقع فى رواية الحموى والكشميهنى قبل حديث أبى هريرة هذا ما صورته : « يزفون النسلان فى المشى »وفى رواية المستملى والباقين باب بغير ترجمة ، وسقط ذلك من رواية النسفى ، ووهم من وقع عنده باب يزفون النسلان فإنه كلام لا معنى له : والذى يظهر ترجيح ما وقع عند المستملى . وقوله باب بغير ترجمة يقع عندهم كالفصل من الباب وتعلقه بما قبله واضح فإن الكل من ترجمة إبراهيم . وأما تفسير هذه الكلمة من القرآن فإنها من جملة قصة إبراهيم « عليه السلام » مع قومه حين كسر أصنامهم ، قال الله تعالى : « فأقبلوا إليه يزفون ﴾ قال مجاهد الوزيف النسلان فتح البارى ١٣ ص ١٣٨ ، ١٣٩ والآية من سورة إبراهيم رقم ٣٧ .

قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾(١) وقال أيضاً : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾(٢) .

وبعد هجرة سيدنا لوط إلى الشام أرسله الله « سبحانه وتعالى » فى حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها(٣) فاستجاب سيدنا لوط لأمر الله « سبحانه وتعالى » ،ونزح عن محلة عمه إبراهيم ، واستقر به المقام بمدينة سَدُوم ، ثم أخذ يدعوهم إلى عبادة الله « سبحانه وتعالى » وينكر عليهم سوء ما كانوا يصنعونه ويفعلونه من قبيح الأعمال فى إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ،أى يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ، كما كانوا يفعلون أيضاً ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً فى الملأ قاله مجاهد ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قالته عائشة « رضى الله عنها » والقاسم ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك

قال « سبحانه وتعالى » عن ذلك : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبى الله(٤) فقال ﴿ رَبِّ انْصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٥)

فاستجاب الله « سبحانه وتعالى » له وبعث لنصرته ملائكته الكرام، فأقبلوا حتى أتوا أرض « سدوم » فى صورة شبان حسان . وكان ذلك اختباراً من الله

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٧١ .
(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٢٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٠٩ .
(٤) المرجع السابق ص ٤١١ بتصرف .
(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٣٠ .

لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً « عليه السلام » ، فلما رآهم كذلك اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشى عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة(١) .

ولما علم قومه أن ببيت لوط رجالاً يَتَّسِمُون بالحسن والبهاء جاءوا إليه مسرعين ، وطلبوامنه أن يسلم إليهم هؤلاء الضيفان ، حتى يستأنسوا بهم ، وينالوا منهم ما يشتهون ، عند ذلك أخذ لوط « عليه السلام » يجادلهم بالحسنى ، ويناقشهم باللطف واللين، لعله يجد من بينهم رجلاً عاقلاً يهتدى إلى الحق ويرعوى عن الباطل فيساعده على رد القوم عن غيهم . لم يرض القوم بكلام لوط بل أجابوه بقولهم له : إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن وإنك دون ريب ــ تعلم أننا نريد الرجال الذين عندك .

فلما ضاق بلوط الأمر وعسر به الحال ﴿ **قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ أى لكنت نكلت وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى ، ولهذا ورد فى الحديث عن أبى هريرة « رضى الله عنه » : أن النبى ﷺ قال : يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد »(٢) أى إلى الله « سبحانه وتعالى »(٣) .

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم ليسوا بشراً إنما هم ملائكة قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمر من الله ؛ لأن أهلها كانوا ظالمين . ثم قالوا له ﴿ **لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾(٤) وذلك أن جبريل « عليه السلام » اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ؟ وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد(٥) .

(١) المرجع السابق ٣ / ٤١٤ بتصرف .
(٢) صحيح البخارى كتاب الأنبياء باب ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ﴾ .
(٣) فتح البارى ١٣ / ١٦٢ .
(٤) سورة العنكبوت ٣٣ ، ٣٤ .
(٥) ابن كثير ٣ / ٤١٢ بتصرف .

وفى كل ما تقدم يقول « سبحانه وتعالى » :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنْ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[١] .

* * *

(١) سورة هود الآيات من ٧٧ : ٨٣

## هجرةسيدنا موسى « عليه السلام » :

لسيدنا موسى « عليه الصلاة والسلام » هجرتان :

أما الهجرة الأولى ، فقد كانت قبل النبوة وذلك أن موسى « عليه الصلاة والسلام » دخل المدينة يوماً على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من القبط ، فلما مرموسى بهما سأله الإسرائيلى أن يخلصه من شر ذلك القبطى واستنصره عليه ، فتدخل موسى ليحسم المعركة ولينقذ المظلوم ــ الإسرائيلى ــ من يد ظالمه ــ القبطى ــ فضرب بيده ذلك القبطى ضربة قوية يريد بها إبعاد الخطر عن الإسرائيلى ولكن شاء الله أن تكون ضربة قاضية . مات القبطى بعدها[1] .

فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ، فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان أو نفخ من الشيطان ، ثم استطرد فى فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ويتوجه إلى ربه طالباً مغفرته وعفوه ، إلى أن استجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره ، ثم أخذ على نفسه عهداً مطلقاً بألا يقف فى صف المجرمين ظهيراً أو معيناً ..[2] ولكن موسى تغلبت عليه بشريته ، وانتصرت على حواسه طبيعة الإنسان ، فلم يعلق إرادته بإرادة مدبر الأمر ، ومصرف الكائنات ، ولم يستثن مشيئة الله ، فوقع فيما عزم على النجاة من غوائله[3] ، إذ أصبح فى المدينة خائفاً من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى ، وبينما هو فى هذا القلق والتوجس إذ بصاحبه الإسرائيلى الذى طلب بالأمس نصرته على القبطى مشتبكاً مع قبطى آخر ، وهو يستصرخ موسى لينصره ، ولعله يريد منه أن يقضى على عدوهما المشترك بوكزة أخرى .. ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذى يتوقع معه فى كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذى يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال . ولكن موسى « عليه الصلاة

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازى ج ٢٤ ص ٢٣٣ بتصرف .

(٢) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ج ٥ ص ٢٦٨٢ بتصرف ، الطبعة العاشرة بدار الشروق .

(٣) قصص القرآن للشيخ محمد جاد المولى وآخرين ص ١٣٠ .

والسلام ـــ بعد ذلك ـــ انفعلت نفسه بالغيظ من القبطى[1]، فعزم على البطش به ، فاعتقد الإسرائيلى لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قتله لما سمعه يقول له ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَاً بِالأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلّا هو وموسى « عليه السلام » فلما سمعها ذلك القبطى لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك[2] .

ولكن الله يرعى المخلصين من عباده ، فهيأ لموسى « عليه السلام » رجلاً ، جاءه مسرعاً من أقصى المدينة ، وأخبره بما يدبره فرعون ونصحه بالخروج حتى ينجو بنفسه ، فقبل منه هذه النصيحة الغالية ، وأسرع بالرحيل عن مصر مولياً وجهه شطر أرض جديدة ، يتخلص فيها من هذا الخطر المحدق ، والبلاء المطبق ، ويرجو رحمة الله ورضاه[3].

وفى ذلك يقول « سبحانه وتعالى » فى سورة القصص :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[4] .

(١) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٦٨٢ ، ٢٦٨٣ بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٣) تاريخ الأنبياء للدكتور محمد الطيب النجار ص ١٨٧ ، ١٨٨ الطبعة الثالثة بدار الاعتصام

(٤) سورة القصص ـــ الآيات من ١٥ : ٢١ .

## خروج موسى إلى مدين :

وكانت الجهة التى قصدها موسى « عليه الصلاة والسلام » هى أرض مدين التى خرج إليها وحيداً ، لا معين له إلّا عناية الله ، ولا رفيق يؤنسه إلّا نور الله ، ولا زاد يحمله إلّا زاد التقوى ، ولقى فى هذه الرحلة كثيراً من الأهوال والمتاعب ، حتى وصل إلى مدين[1] ، وورد ماءها وكان لها بئر يَرِدهُ رعاء الشاء — فجلس ليستريح من وعثاء السفر ، عند ذلك وجد جماعات من الناس يسقون مواشيهم وأنعامهم ، ويتزاحمون على السبق إلى هذا الماء ، ووجد فى وضع أسفل منهم امرأتين تمنعان ما معهما من الأغنام عن التقدم إلى البئر كيلا تختلط بأغنامهم أو انتظاراً لتقدم الأقوياء وذوى البأس والنفوذ ، فآلمه هذا المظهر الكريه ، فتقدم إلى هاتين المرأتين وسألهما عن شأنهما فيما هما عليه من التأخر والذود ؟ ولم لا يباشران السقى كدأب غيرهما من الناس ؟ فقالتا له : إن عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزاً عن مساجلتهم ومزاحمتهم لأننا ضعيفتان مستورتان لا نقدر على ذلك ، وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر ، فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء[2] .

فاهتزت مشاعر موسى لما سمع من هاتين المرأتين ، وتقدم لمساعدتهما ولم يقدر أحد على منعه. فالناس دائماً يحترمون الأقوياء ويخشون خطرهم ، والقوة دائماً فى هذه الدنيا هى التى تتحكم ، وهى التى تقضى وتبرم[3] .

(١) اختلف المفسرون فى اسم مدين ، فذهب البعض إلى أنه اسم رجل فى الأصل ، ثم كانت له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وذهب آخرون إلى أنه اسم ماء نسب القوم إليه ، والأول أصح ، لأن الله أضاف الماء إلى مدين فى قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا ورد ماء مدين ﴾ ولو كان اسماً للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية ، والأصل فى الإضافة التغاير حقيقة « تفسير الفخر الرازى ٢٥ / ٦٤ ، معجم البلدان لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى ٥ / ٧٧ وما بعدها ، وأياً ما يكن الأمر فقد أصبحت مدين اسماً لأرض معروفة تقع على بحر القلزم « البحر الأحمر » محاذية لتبوك وبها البئر التى استقى منها موسى « عليه السلام » لسائمة شعيب « ياقوت ٥ / ٧٧ ، ٧٨ ،ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبى عبد الله ابن عبد العزيز البكرى ٤ / ١٢٠١ » .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود محمد بن محمد العمادى ج ٧ ص ٨ ، الناشر دار المصحف مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد ، روح المعانى للسيد محمد شكرى الألوسى ٢٠ / ٥٩ ، ٦٠ « بيروت » .

(٣) تاريخ الأنبياء للدكتور / محمد الطيب النجار ص ١٩٠ .

وبعد أن سقى موسى للفتاتين أغنامهما ، انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح ، وناجى ربه قائلاً : إنى لمحتاج إلى شىء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك .

واستجاب الله استرحام موسى ، فحنا عليه ، إذ ألهم الشيخ الكبير أبا الفتاتين أن يرسل فى طلبه إحدى ابنتيه ، فجاءته تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا(١) .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء حتى لا يتوهم من كلامها شيئا من الريبة ، كما أن فى كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لا يخفى(٢) .

واستجاب موسى « عليه الصلاة والسلام » لدعوة الشيخ(٣) ، فجاءه وحدثه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله، وهربه منهم بعد الذى علمه ، فطمأنه الشيخ وقال له : لا تخف من حولهم وَطَوْلهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لا سلطان لهم علينا ولسنا فى دائرة ملكهم(٤) .

---

(١) تفسير المراغى ج ٢٠ ص ٥٠ بتصرف .

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم لأبى السعود ج ٧ ص ٩ .

(٣) اختلف المفسرون فى هذا الشيخ من هو ؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبى « عليه السلام » وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقال آخرون بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى « عليه السلام » بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه « وما قوم لوط منكم ببعيد » وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل « عليه السلام » بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى « عليهما السلام » مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل أن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو — والله أعلم — احتراز من هذا الإشكال ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده . ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم . قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : ثيرون هو ابن أخى شعيب « عليه السلام » ، وعن أبى حمزة عن ابن عباس قال : الذى استأجر موسى يثيرى صاحب مدين . رواه ابن جرير به ثم قال : الصواب أن هذا لا يدرك إلَّا بخبر ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك ، « تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ بتصرف .

(٤) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مُصطفى المراغى ج ٢٠ ص ٥١ ، الطبعة الخامسة بمطبعة مصطفى الحلبى .

وفى ذلك يقول « سبحانه وتعالى » :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(١) .

## مصاهرة موسى للشيخ ثم بعثته :

هدأت نفس موسى فى منزل الشيخ الكريم ، وسكنت إلى صحبته ولا بدع فنور الإيمان يتلألأ في كلا القلبين ، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين ، وشبيه الشيىء منجذب إليه .

ولقد كان موسى كريماً فتياً ، أثار فى نفس الشيخ وبنتيه عوامل الإكبار والإعجاب ، لما زانه الله به من طبع قويم ، وخلق كريم ، فتحرك فى نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوته ، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته(٢) فقالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ ﴾(٣) أى قالت لأبيها : اتخذه أجيراً ليرعَى عليك غنمك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوى على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها ، الأمين : الذى لا تخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها .

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته فعرض على موسى أن يتزوج إحدى ابنتيه فى مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانى سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به . ثم وعده بقوله وما أحب أن أشق عليك بمناقشة أو مراعاة أوقات

---

(١) سورة القصص الآيات من ٢٢ : ٢٥ .

(٢) قصص القرآن للشيخ محمد جاد المولى وآخرين ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) سورة القصص آية ٢٦ .

ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا . فقال موسى للشيخ الأمر على ما قلت فأيهما قضيت فلا عدوان على ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل على وعليك وكفى بالله وكيلاً(١) .

وهكذا اطمأن بموسى « عليه السلام » المقام فى بيت حميه ، فأتم أقصى الأجلين يكلأ أمور الشيخ ، ويدبر شئونه برعاية الأمين الناصح الحكيم ، وتم الزواج بإحدى الفتاتين(٢) .

وبعد أن أمضى موسى عليه السلام ـــ الأجل فى أرض مدين حن قلبه إلى وطنه ، فعزم على الرجوع إلى أرض مصر مع أهله فاستأذن الشيخ فى ذلك ، فأذن له فخرج بأهله ، وفى طريقه من مدين إلى مصر لقى « عليه السلام » وأهله برداً شديداً فحط رحاله ، وأخذ يتأمل فى الأفق ، ثم أخذ يتسمع طويلاً هل يسمع حساً أو حركة ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نوراً فحسبه ناراً ، ﴿ **قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ فلما وصل قريباً من جبل الطور رأى نوراًعظيماً ممتداً من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك ، فوقف موسى متعجباً مرتعدة فرائصه ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمره أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ولا سيما فى تلك الليلة المباركة التى سمع فيها مناجاة ربه له ، ثم خاطبه تعالى كيف يشاء قائلاً له ﴿ **إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ فكانت بدء نبوته ، إذ خصه الله بكرامته وبعثه برسالته إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى الله ، فطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه « هارون » ليكون معيناً له على تبليغ الرسالة فاستجاب الله لطلب موسى هذا . ثم أظهر الله « سبحانه وتعالى » على يديه معجزتين جعلهما تثبيتاً لقلبه ، وتمكيناً لرسالته بين يدي فرعون وقومه ، وتهيئة للمناداة بالحق، وهاتان المعجزتان هما تحويل عصا موسى إلى حية تسعى بعد أن أمره بإلقائها من يديه ، ثم أمره أن يدخل يده فى جيبه ثم يخرجها فإذا هى بيضاء لها نور كنور الشمس(٣) .

---

(١) تفسير المراغى ج ٢٠ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) قصص القرآن ص ١٣٣ بتصرف .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٣٨٧ : ٣٨٩ بتصرف .

وفى كل ما تقدم يقول « سبحانه وتعالى » :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَاللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيل . فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الأَمِنِينَ . اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِه إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾(١) .

**عبر نستخلصها من هذه الهجرة :**

**أولاً** : أن الله « سبحانه وتعالى » يهيىء أسباب الهجرة لأنبيائه ليظفروا بالمكانة العالية التى أعدها للمهاجرين فى سبيله .

**ثانياً** : أن الله « سبحانه وتعالى » يقيض لأهل الخيرمن يرشدهم إلى الخطر المحدق بهم كما حدث لموسى « عليه الصلاة والسلام » ، فقد قيض الله له من نبهه إلى الخطر المحدق به ، ويظهر ذلك فى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ ، وفيه أيضاً ما يشير إلى أن قصور الملوك وبخاصة الطغاة موطن للمؤامرات .

---

(١) سورة القصص الآيات من ٢٦ : ٣٥ .

**ثالثاً** : جواز الهجرة لمن تعرض للإيذاء والظلم ولم يستطع الدفاع عن نفسه .

**رابعاً** : من طبيعة الإنسان أن يلجأ إلى الله وقت الشدة .

**خامساً** : يستجيب الله لمن يضرع إليه فى شدته كما استجاب لموسى « عليه السلام » .

**سادساً** : أن فرعون مصر فى ذلك الوقت كان طاغية ظالماً ، وقد عرف موسى حقيقته وقومه حيث تربى بينهم ، لذلك وصفهم بأنهم ظالمون .

**سابعاً** : من ألوان ظلم فرعون انتشار جواسيسه فى كل مكان يحصون على الناس حركاتهم وسكناتهم ،وهذا الأسلوب يلجأ إليه الحكام الظلمة القساة الذين تجردت قلوبهم من الرحمة بشعوبهم .

**ثامناً** : أن المجتمعات البشرية إذا افتقدت أضواء السماء قست قلوبها فلم يعترفوا للضعيف بحق كما حدث من أهل مدين ، فبدلاً من أن يرحموا الفتاتين وشيخوخة أبيهما وعجزه عن مساعدتهما فيقدمونهما للسقى على أنفسهم كانوا يتزاحمون على السقى ويتركونهما حتى يصدروا جميعاً .

**تاسعاً** : يعد الله أنبياءه على أكرم الصفات ، فهذا موسى « عليه الصلاة والسلام » المطارد المكدود الجائع يتقدم لمساعدة المرأتين دون أن يطلب ثمناً كان فى أشد الحاجة إليه ؛ حتى إنه لم يُرِد أن يسألهما عن اسم أبيهما ، فاتجه إلى الله داعياً ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ .

**عاشراً** : المخلص فى عمل الخير واثق من أن الله لن يضيع أجره ، فقد عرف موسى أن ما قدمه للبنتين باب من أبواب الخير هو فى أمس الحاجة إلى جزائه من ربه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ .

**حادى عشر** : منة الله على الأعفاء من عباده بأن يرزقهم بالزوجات الصالحات من النساء وصدق الله إذ يقول : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** ﴾[1] .

---

(١) سورة النور الآية رقم ٢٦ .

فانظر مثلاً كيف جازى موسى على عفته التى نطقت بها شهادة الفتاة التى جاءته تمشى على استحياء ، إذ تقول لأبيها ﴿ يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ .

**ثانى عشر** : السماحة فى العقود من سمات الصالحين الأخيار فقد خيرموسى فاختار ما هو أشد وأشق ، حيث خير بين ثمانى وعشر سنوات فاختار الأكثر كرماً منه .

**ثالث عشر** : ما قاساه موسى فى رحلته من جهة ثم معايشته لشيخ صالح من جهة أخرى إعداد له لتحمل أعباء النبوة والرسالة .

**رابع عشر** : أعظم ما أفاده موسى « عليه الصلاة والسلام » فى هذه الرحلة ما مَنَّ الله به عليه فى رحلة الرجوع إلى مصر ، حيث تفضل « سبحانه وتعالى » عليه بالنبوة واختصه من بين سائر الأنبياء بكلامه ، قال تعالى ﴿ وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾(١)

**هجرة موسى وقومه من مصر :**

دعا موسى فرعون كما أمره الله ، وكان بينهما ما هو معروف فى الذكر الحكيم وقصصه الكريم ولما نفذ الصبر ، وكلت الحيلة ، وعظمت البلية ، من طغيان فرعون وظلمه ، أوحى الله إلى موسى أن يخرج بقومه من بنى إسرائيل فراراً بدينه . وفى ذلك يقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى ﴾(٢) .

ويجهز موسى ومن معه وخرج بهم ليلاً — كما أوحى الله إليه — وساروا فى طريق البحر ، وأخذوا يجدون فى السير ، ولما علم فرعون بخروج موسى ومن معه خرج فى طلبهم ، حتى لحقهم وأدركهم بجنوده ، وتراءى الجمعان فشعر بنو إسرائيل بالخطر وأيقنوا بالهلاك ، فالبحر أمامهم والعدو خلفهم ولم يبق بينهم وبين الموت إلَّا ساعات أو لحظات ، حين ذاك ضجوا بالعويل والصياح وقالوا يا موسى إنا لمدركون ، فسكن موسى روعهم ، ثم أوحى الله « سبحانه وتعالى »

---

(١) سورة الأنعام آية ( ١٦٤ ) .

(٢) سورة طه الآية رقم ٧٧ .

إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ووقف ماء البحر المتحرك السيال ، وغدا قائماً مثل الجبال ، وسكنت التيارات الجارفة والأمواج الزاحفة ، ويبس الطريق فى وسط الماء وجف ما فيه من طين بقدرة الله الذى إذا أراد شيئاً قال له ﴿ **كُنْ فَيَكُون** ﴾ ثم أمر الله موسى بالنزول فى هذا الطريق ومعه قومه من بنى إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين ، وقد وضحت لهم آية الله وقدرته فيما رأوه بأعينهم من هذه المعجزة الخالدة .

فلما اجتازه وخرج آخر واحد منهم إلى الشاطىء المقابل ، كان فرعون حينئذ قد وصل هو وجنوده إلى البحر فرأوا بأعينهم هذا المنظر الهائل الذى لم يروه من قبل . وظن فرعون وجنوده أن هذه الطرق اليابسة التى مهدت فى جوف البحر بهذا الوضع ستظل على حالها إلى أن يتم عبورهم ،فنزلوا إلى البحر من هذه الطرق، غافلين عما أعدته الأقدار لهم ، حتى إذا تم نزولهم جاء أمرالله ، فانطبق البحر عليهم ، ودهمتهم أمواجه الصاخبة ، وحق عليهم القول ، فكانوا من المغرقين .

وحينئذ صاح يلتمس النجاة من الهول الذى أحاط به[1] قائلاً :

﴿ **آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰه إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[2] .

فأجابه الحق سبحانه :

﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾[3] .

أجل ، لقد غرق فرعون وأزهقت روحه ، ولكن أمواج البحر بأمر الله قذفت به إلى الشاطىء جسداً هامداً ليرى من بقى من أنصاره وأعوانه مصيره الأليم ، وهو الطاغية الذى كان يقول لهم : ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى** ﴾ ويعرف الناس جميعاً أن الباطل ليس له قرار ، وأن الملك دائماً لله الواحد القهار

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ١٥٣ ، ١٥٤ بتصرف ، ج ٢٢ ص ٩٢ ، ٩٣ بتصرف .
(٢) سورة يونس الآية رقم ٩٠ .
(٣) سورة يونس الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

الذى ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء[1] . وهناك حوادث ووقائع تاريخية أخرى فى حياة بنى إسرائيل ، ضربنا صفحاً عنها خشية الإطالة والله الهادى إلى سواء السبيل .

وبعد فهذه نماذج من هجرات الأنبياء السابقين والرسل ، عرض القرآن الكريم للخطوط الرئيسية منها ، قد يكون هناك فى تاريخ النبوات والرسالات من تعرضوا لما تعرض له إبراهيم ولوط وموسى ومحمد ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ وهاجروا بعقيدتهم من ديارهم وهى آخر شيء يضحى الإنسان به ، لكن مهمة القرآن ليست سرداً للتاريخ وتقصياً له فالقرآن فى كل مجال يكتفى بأن يقدم نماذج تكون بمثابة إشعاعات تضىء الطريق للأجيال القادمة .

إن هناك أوجه شبه عديدة بين هذه الهجرات النبوية التى عرض لها القرآن فى إيجاز ، وكذلك أوجه اختلاف ربما فى السلوك وربما فى الوسيلة ، لكنها متفقة فى تحقيق المعنى والغاية معاً ، فليس من الخير لدعوة من الدعوات الإصلاحية التى تهدف إلى استقرار البشرية وسعادتها ، ولا من مصلحة أتباعها أن تظل هذه الدعوات الحية قابعة فى حيز ضيق غرضاً لكل مستخف ، فإذا ضاقت الأرض بها فأرض الله واسعة ، ولا يعدم الوجود ناساً آخرين يرحبون بها ويحسنون استقبالها ، ويفتحون لها صدورهم .

إن لدعوات الله أهدافها التى يجب أن تتحقق ، وإن أتباع الدعوات مسئولون عن تحقيق هذه الأهداف ، ومن أهداف الدعوات تحرير الإنسان من استعباد الإنسان له ، تحرير الإنسان من الضعف حتى يشعر بوجوده ، تحرير الإنسان من الخوف حتى لا يعجز عن أن يقول كلمة الحق فى أى حال [2] .

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٤٣١ بتصرف .

(٢) الهجرة بداية مراحل التحول ص ٤٤ وما بعدها .

# الباب الأول

## كيف كان موقف المشركين من دعوة الإسلام هو الحامل لأهلها على الهجرة

ويشتمل على فصلين

الفصل الأول : الأسباب التى جعلتهم يقاومون الإسلام

الفصل الثانى : الوسائل التى استخدمها القرشيون ضد الدعوة الإسلامية .

# الفصل الأول

## الأسباب التى جعلت المشركين يقاومون الإسلام

**تمهيد :**

لما كان الحديث عن الهجرة يستلزم الإلمام بالظروف والملابسات التى أدت إليها كان لا بد من الإحاطة بها ، لذلك كان لزاماً عَلَيَّ أن أتناولها بين يدى الحديث عن الهجرة .

وهذه الظروف تمتد جذورها إلى بداية البعثة المحمدية .

فلم يكن محمد ﷺ يتوقع من قومه هذا التكذيب المنكر وإعلان الحرب عليه عندما بدأ دعوته ؛ لأنه كان معروفاً بينهم بالأمين .

حتى إنهم لم يراجعوه فى قول ولم يعترض عليه معترض فى أشد المواقف التى تستدعى الاعتراض والمناوأة .

فعندما اختلفوا فى وضع الحجر الأسود لم يعترض أحد على حكمه وفيهم الكبار ذوو الأسنان ، فى مجتمع يقدس الكبير ويلزم الأحداث بمهابتهم .

ولكن محمداً كان موضع ثقتهم جميعاً ، لذلك أمضوا حكمه بالرغم من أنه قد استأثر بنقل الحجر بيديه الكريمتين ووضعه فى موضعه ، ولم يكن لأولئك الكبار المتشاحنين إلّا شرف الإمساك بطرف رداء محمد ﷺ فكان المتوقع أن يبادروا إلى تصديقه ، ولكن الواقع كان غير ذلك بكثير ، فقد أعلن عن خصومته الحاقدة أقرب الناس إليه عمه أبو لهب .

وفوجىء محمد بما لم يكن يتوقعه . فبعد التمهيد الناجح لعرض الدعوة عندما سألهم « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ، قالوا ما جربنا عليك كذباً »(١) .

إذا بهم ينكصون على أعقابهم ويتحولون إلى قطيع متنافر ما بين مستهزىء وشاتم وغاضب ساخط ، وهنا موضع العجب عند النظرة الأولى .

ولكن إعادة النظر تجعل ما حدث أمراً طبعيـاً له أسبابه ومبرراته التى تنشأ من آفات العقل والخلق والبيئة ، وهذه الأسباب هى :

## أولاً : مفاجأة الرسول لهم بهذه الدعوة وعدم توقعهم لها :

لقد كان محمد ﷺ كريماً عند قومه ، حبيباً لهم يألفونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى ، فانقلب أكثر من بمكة مخالفين ، ثم مناوئين لدعوته ، مستنكرين لها ابتداء ، ومقاومين معادين ومضطهدين فى الجملة لمن اتبعوه .

وذلك لأنهم فوجئوا بهذه الدعوة إلى الحق ، فلم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد ﷺ ، والمفاجأة بتغيير أمر مألوف تولد الإنكار .

يقول العقاد فى عبقرية عمر ماملخصه :

« إن بعض الأعمال العادية لا تحتاج فى تعليلها إلى أكثر من سبب ، أما التغيير الذى يؤثر فى مجرى حياة الإنسان فإنه لا يجرؤ عليه إلَّا لأسباب قوية ، وذلك مثل تغيير الوطن أو المهنة أو الزى ، ثم يستطرد العقاد فيقرر أن هذه التغييرات السابقة ليست شيئاً إذا قورنت بتغيير الدين ، فيقول : وأين تغيير المعيشة والوطن والزى من تغيير العقيدة الدينية إن الإنسان إذا غير معيشته فإنما يغير صناعة ، وإذا غير موطنه فإنما يغير بلداً وإذا غير زيه فإنما يغير سمتاً . ولكنه إذا غير عقيدته فقد غير كونه كله واستبدل به كوناً آخر ، وقد غير ماضيه وماضى أهله وغير حاضره وحاضر أهله وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير

---

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير تفسير سورة « تبت يدا أبى لهب وتب »

آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد »[1] ويتضح هذا الجانب فيما ذكره القرآن الكريم من مواقف الكفار من الدعوة حيث كان أول ما يظهر من معارضتهم راجعاً إلى التمسك بالمألوف والموروث قال تعالى : ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ** ﴾[2] .

ويضيف القرآن أن أمة محمد لم تكن بدعاً من الأمم الأخرى ، إذ هذا الموقف كان عاماً فى كل أمة مع رسولها ، قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ** ﴾[3] .

### ثانياً : الحقد والحسد والتنافس :

كان الحقد والحسد والتنافس مانعاً كذلك من إقبال القرشيين على متابعة الرسول ﷺ . وذلك لحرصهم الشديد على ألا تذوب أشخاصهم وأشخاص قبائلهم ذوباناً سريعاً فى خضم الأتباع المستضعفين للدعوة الجديدة ، التى أعلنت على ملأ منهم إذابتها للفوارق والحسب والنسب والجاه .

فكانوا يقولون للنبى ﷺ عندما يخبرهم ببعض ما أنزل عليه من القرآن : هلا أنزل هذا القرآن على رجل عظيم من عظام مكة أو الطائف . وقد أشار الله « تبارك وتعالى » إلى ذلك بقوله :

﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ ، أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[4] .

---

(١) عبقرية عمر لعباس محمود العقاد بتصرف . ٩٥ ، ٩٦ ، ط الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعلمية ط ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ط دار المعارف .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٢٣ .

(٤) الزخرف ايات ٣٠ : ٣٣ .

ولا شك أن للحسد والتنافس والتنازع فى هذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يخطىء الإنسان إذا هو حاول الإغضاء عنه أو لم يقدره حق قدره . ويكفى أن نذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعاً من سلطان ، لنقدر أن التخلص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب طويل يصقل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ، ويسمو بالعاطفة وبالروح إلى مرقى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك بل عدوك هى الحقيقة على لسان حميمك ووليك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الإسكندر ، وملك قيصر .

هذه مكانة قل أن يصل إليها إلَّا من هدى الله قلبه للحق . أما سائر الناس فتعميهم العاجلة من مال ونشب ويعميهم الاستمتاع باللحظة التى يعيشون فيها عن الارتفاع إلى هذه المعانى وهم فى سبيل هذه العاجلة واقتناص تلك اللحظة يحاربون ويقاتلون لا يحول شيء دون أن ينشب أحدهم أظفاره وأنيابه فى عنق الحق والخير والفضيلة ، وأن يدوس تحت أقدام دنِسة أطهر معانى الكمال .

ما ظننا بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون محمداً يزداد أنصاره كل يوم عدداً ، يخشون يوماً يكون فيه للحق الذى يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعة ، ويمتد من وراء ذلك إلى العرب فى مختلف أنحاء الجزيرة دون هذا قَطّ الرقاب إذا استطاعوا قطّها(١) .

**ثالثاً : إثبات اليوم الآخر وما فيه من بعث ونشر وحساب وجزاء :**

فقد كان الحديث عن الدار الآخرة صدمة للقرشيين ، وذلك لأنهم كانوا يعيشون فى حرية مطلقة ، لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود ، يخوضون ويلعبون ، ويرتعون فى الشهوات كما يشاءون ، ظانين أن الحياة هى الحياة الدنيا ، وأن الموت هو النهاية الأبدية ، وأنه لا رقيب هناك ولا حسيب .

فجاء الإسلام ينقض هذه العقيدة الخاطئة ، ويبين لهم أن الإنسان لن يترك سدى فى هذه الحياة الدنيا ، يرتع فيها كما ترتع السائمة ، بل هو مسئول عن كل ما يعمل محاسب عليه ومجزى عنه فى حياة أخرى بعد هذه الحياة ، وما الموت

---

(١) حياة محمد ﷺ للدكتور / محمد حسين هيكل ص ١٧٣ ط دار الكتب المصرية ط ثانية ١٩٣٦ م .

إلّا الانتقال من هذه الحياة الفانية إلى تلك الحياة الباقية ، ليسعد فى نعيمها من أحسن العمل فى الحياة الأولى ، ويشقى فى جحيمها من أساء العمل فيها[1] :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[2] .

## رابعاً : إثبات صحة عقيدة التوحيد وفساد عقيدة الشرك :

فقد كان أعنف الصدمات وأشدها خطراً عليهم هو ما دعاهم الله « تبارك وتعالى » إليه على لسان رسوله ﷺ من ترك عبادة الأوثان ، وأمره لهم أن يعبدوه وحده لا شريك له ، ونفى الكفء والمثل عن ذات الله « تعالى » وصفاته وأفعاله ، ونفى الشريك فى ربوبيته ، وعبادته « عز وجل » .

قال تعالى فى نفى الكفء :

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۝ اللهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾[3].

وقال فى نفى الشريك فى الربوبية :

﴿ قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ ﴾[4] وقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾[5] .

وقال فى نفى الشريك فى العبادة :

---

(١) صور من حياة الرسول لأمين دويدار ص ١٣٤ ، ١٣٥ بتصرف . الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٧٨ .
(٢) سورة هود ١٠٦ : ١٠٨ .
(٣) سورة الإخلاص بأكملها .
(٤) سورة الرعد آيةرقم ١٦ .
(٥) سورة يونس آية ٣١ .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١) وقال : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٢).

فهذه الآيات الكريمة تدعوهم إلى توحيد الله المشتمل على ثلاثة أقسام :

توحيد فى الذات ، والأسماء والصفات . وتوحيد فى الربوبية ، وهى اختصاصه « تعالى » وتفرده بالخلق والرزق والتدبير لسائر الخلق والملكوت وتوحيد فى الألوهية ، أى فى العبادة . وهو اختصاصه « تعالى » بسائر العبادات ، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته ، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة ، والأنبياء ، والصالحين ، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات(٣) .

وهكذا فقد هدمت العقيدة دينهم . وقوضت عقائدهم ، وكشفت لهم عن حقيقة هذه الأوثان التى يعبدونها من دون الله ، والتى يعيشون فى ظلها سادة على العرب ، فإذا هى وهم من الأوهام ، لا قيمة له ، ولا غناء فيه .

### خامساً : جهلهم للنبوة ولطبيعتها :

فبالرغم من أن بعض نابهيهم كان يتوقع بعثة نبى إلَّا أن الأكثرية منهم كانوا يجهلون طبيعة النبى ، ويتخيلون أنه لا بد وأن يكون مخالفاً لطبيعة البشر ، فلما رأوا محمداً ﷺ بشراً مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويتعرض لكل ما يتعرض له البشر من أفراح وأتراح ، ورجاء وخوف ، وسمعوه يعلن أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلَّا ما شاء الله جحدوا به(٤) .

وذلك لاعتقادهم أنه لو بعث الله إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة ، لأن الرسل إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) سورة محمد آية ١٩ .

(٣) من كتاب « عقيدة المؤمن » للشيخ أبى بكر جابر الجزائرى ص ٧٣ . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨١ .

(٤) دراسات تاريخية « العرب وظهور الإسلام » للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢١٨ ، ٢١٩ ط شركة الطباعة المتحدة .

علومهم أكثر ، وقدرتهم أشد ، ومهابتهم أعظم ، وامتيازهم عن الخلق أكمل ، والشبهات والشكوك فى نبوتهم ورسالتهم أقل . والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكل شيء كان أشد إفضاء إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى . فلما كان وقوع الشبهات فى نبوة الملائكة أقل ، وجب لو بعث الله رسولاً إلى الخلق أن يكون ذلك الرسول من الملائكة . ولكن غاب عنهم أن إنزال الملك على البشر آية باهرة ، فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء الكفار فربما لم يؤمنوا مما يوجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، فهٰهنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب .

كما غاب عنهم أيضاً : أنهم إذا شاهدوا الملك زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون وتقريره : أن الآدمى إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر ، فإن كان الأول لم يبق الآدمى حياً ، ألا نرى أن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشى عليه ، وإن كان الثانى فحينئذ يكون المرئى شخصاً على صورة البشر ، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو فى نفسه ملكاً أو بشراً ، ألا نرى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة فى صورة البشر كأضياف إبراهيم ، وأضياف لوط ، وغير ذلك(١) .

وإذا كان إرسال الرسول من الملائكة سيؤدى إلى أى من هذه النتائج وغيرها فليس من الحكمة جعله من الملائكة . بل الحكمة أن يكون بشراً من بينهم مؤيداً من الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به(٢) .

وفى القرآن الكريم ما يُبَيِّنُ لنا مدى تعجب القرشيين واستغرابهم لبشرية الرسول ﷺ .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً . قُلْ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً** ﴾(٣) .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ١٢ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) « التفسير الوسيط » لجماعة من علماء مجمع البحوث الإسلامية حزب ١٣ ص ١٢٠٤ ط أولى ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .

(٣) سورة الإسراء اية ٩٤ ، ٩٥ .

وقوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾(٢).

وهكذا فقد أدى جهلهم بالنبوات والرسائل إلى الإنكار والتعجب من كون الرسول بشراً سوياً ، يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، وإذا كان الأمر غريباً عليهم ، فقد كان حقاً عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ، ويستأنسوا بنور النبوة .

ولكنهم عاندوا فلج بهم العناد ، فكان منهم الجحود والكفران(٣) .

## سادساً : اشتمال الدعوة على مبادىء اجتماعية عادلة لا يقبلها شرفاء مكة ورؤساؤها :

فقد جاء محمد ﷺ بدعوة تسوى بين الغنى والفقير ، وتوجب حقاً للفقير فى مال الغنى ـــ وبذلك يكون قد مس كبرياءهم وهزَّ مراكزهم هزاً عنيفاً ـــ فأحسوا بأن الأرض تميد من تحتهم ، إذ إن ذوى الأنساب منهم يستعلون بأنسابهم ويحسبون أنهم أشراف وحدهم . والناس دونهم ، وهم الأعلون وغيرهم الأدنى . فكان لا بد أن يقاوموا ذلك الداعي الجديد الذى يقول بلسان المقال وبلسان الفعال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(٤) فهو يأخذ بنواصى الأقوياء ليضعها بجوار رءوس الضعفاء ، وقد لحوا ذلك فى أتباعه فقد رأوا أبا بكر نسابة العرب ومألف قريش يكون بجوار بلال وعبيد أبى بكر نفسه ، لا يفرق بينهما إلَّا فضل الإيمان ، فهو مقياس الشرف والضعف والإكبار والإصغار .

بلا شك هذه مبادىء اجتماعية لا يقبلها شرفاء مكة المكرمه ورؤساؤها ، ومحمد ﷺ لابد منفذها ، لأنه كان ينفذها قبل أن يكون نبياً رسولا ، فكيف

---

(١) سورة يونس آية ٢ .
(٢) سورة ص آية ٤ .
(٣) « خاتم النبيين » للشيخ محمد أبو زهرة ج ١ ص ٣٥٩ . طبع ونشر دار الفكر العربى .
(٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

لا ينفذها وقد نزل الوحى عليه ، وجعلها هو نظاماً واجب الاتباع ، من لم ينفذه إن لم يعاقب عليه اليوم ، فالنار الموقودة تلقاه يوم القيامة . ويلقى به فى السعير .

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعو إليه محمد ﷺ غير نافرين منه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجابة ، وابتدأ الأقوياء الذين دخلوا فى الإسلام يعاملون الرقيق كما يعاملون الأحرار .

إذن لا بد من مقاومة ذلك التيار الذى جاء مع الدعوة ، ولا يتركونه حتى ينمو ، وتستغلظ سوقه ، ويكون قوة تقوض ما تحت أيدى قريش من شرف واه ، وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن فى بنيانه . ثم إنهم كانوا الرؤساء الأعلين ولهم شبه سلطان ، وأنه إذا ذاع دين محمد « عليه الصلاة والسلام » ، وصار السلطان للحق وحده ، وسادت المساواة ، وذهبت المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان ، ويسلب كل ما لهم من سلطان ، وما بنوه من مجد طريف وتالد ينهدم بين أيديهم ، لأنهم يبنون سلطانهم على أنهم ذرية إسماعيل وضئضىء إبراهيم ، فجاءهم سيدنا محمد ﷺ يدعوهم إلى ديانة إبراهيم ، ويقول لهم فى غير عوجاء ولا لوجاء ، هذه ملة إبراهيم الحقيقية .

ولكن الحرص على بقاء السؤدد والشرف والمنزلة فى قلوب الناس ، وعلى التحكم فى مصاير الناس ، والتسلط عليهم ، حمل هؤلاء المشركين على معاندة هذه الدعوة ومحاولتهم القضاء عليها فى مهدها ، واقتلاعها من جذورها .

لأنها ساوتهم بالعبيد والفقراء ، ومحت كل ما كانوا يختالون به على الناس من شرف زائف .

### سابعاً : تقرير الإسلام لحرية العقيدة :

كان الرق منتشراً فى الجزيرة العربية ، ولم يكن للعبد أن يدين بغير دين سيده ، ولا يحب أو يكره إلَّا تبعاً لحب سيده وكرهه ، وكان خاضعاً لأوامر سيده تماماً .

فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب ، وقرر أن العقل والقلب لا يتطرق لهما الرق ، فالرقيق حر فى فهمه وتدينه وحبه وكراهيته ، وأن رق

الجسم غير مطلق وغير دائم ، أى أن للرقيق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء ، وليس لسيده أن يطلب منه ما ليس مباحاً أو ما يشق عليه .

وهذه المبادىء قد دفعت بعض العبيد للدخول فى الإسلام ، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد ، كما اعتبروا محمداً مثيراً للفتن ، وأنه لم يكتف بذويه يدعوهم لعقيدته ، بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور[1] .

## ثامناً : إبدال الإسلام العصبية القبلية والحمية الجاهلية بالعزة الإسلامية :

وفوق ما ذكرنا كله ــ العصبية القبلية والحمية الجاهلية التى كانت مستمكنة فى النفس العربية يتوارثونها جيلاً بعد جيل ، فالعرب تنفس على قريش مكانتها ، وقريش تنفس على بنى قصى ما لهم من مكانة ، وبنو قصى وغيرهم ينفسون على بنى عبد مناف ، وبنو أمية ينفسون على بنى هاشم رياستهم للعرب .

وكونهم فى المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه ، فهاشم ورث الرياسة من عبد مناف ، وعبد المطلب أخذها من هاشم ، وأبو طالب ورثها عن عبد المطلب ، فالدعوة الإسلامية تعرضت لعداوة من عادوا قصياً ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبنى هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام ، الذى اشتهر فى الإسلام باسم أبى جهل ، وهو به جدير .

فقد كان فرعون هذه الأمة ، وإن لم يكن فرعون فى مثل سفهه وحنقه ورعونته . إن هذا اللعين كان يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبى ﷺ ، فهو فى معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التى تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه بل تدركه ، ولا تذعن له ، وترضى بالردىء الوبىء عن الحق الصادق المرىء[2] .

* * *

(١) « موسوعة التاريخ الإسلامى » للدكتور أحمد شلبى ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ بتصرف مكتبة النهضة المصرية ط ثامنة ١٩٧٨ م .

(٢) خاتم النبيين « مرجع سابق » ج ١ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ بتصرف .



# الفصـل الثانى

## الوسائل التى استخدمها القرشيون ضد الدعوة الإسلامية

وبعد أن استعرضنا فى الفصل السابق الأسباب التى أدت إلى مقاومة قريش للدعوة الإسلامية مقاومة شرسة غير أخلاقية . يجدُر بنا الآن أن نتناول السبل أو الوسائل التى استخدمها القرشيون للقضاء على هذه الدعوة .

**أولاً : مواجهة قريش للرسول ولدعوته ولأتباعه بالسخرية والاستهزاء :**

وهذه الوسيلة استخدمها القرشيون لتوهين القوى المعنوية للمؤمنين ، فرموا الرسول ﷺ وصحابته بتهم هازلة وشتائم سفيهة ، وتألفت جماعة منهم للاستهزاء بالإسلام ورجاله .

والقرآن الكريم يكشف لنا بعض المفتريات التى تمخض عنها نشاط هذه الجماعة منها وصفهم للرسول بالجنون ﴿ **وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾(١) ثم وصفهم له بالسحر والكذب ﴿ **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾(٢) .

وكان القرشيون لا يتركون فرصة من الفرص إلّا ويحاولون الاستهزاء والسخرية برسول الله ﷺ .

---

(١) سورة الحجر آية ٦ .

(٢) سورة ص آية ٤ .

ولكن الله « تبارك وتعالى » كان دائماً لهم بالمرصاد ، فهو « سبحانه وتعالى » غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(١) .

وقال « سبحانه وتعالى » فى شأن المستهزئين برسول الله ﷺ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(٢) أى يا محمد بلغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصبدوك عن آيات الله ولا تخفهم ؛ فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم برعايته وحفظه لك وبقمعهم وتدميرهم(٣) .

وقد كانت هناك طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة يستهزئون برسول الله ﷺ ؛ لأن أمثالهم الذين يقدرون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ فى عُلُوِّ قدره وعظم منصبه ، وقد تولى « سبحانه وتعالى » أمرهم بنفسه فأفناهم وأبادهم(٤) .

وليس حظ الذين أسلموا معه ﷺ واتبعوه بأفضل من هذه المعاملة .

فقد قام المشركون من قريش بتحقير شأن المسلمين ، والاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ، واستعمال سوء الأدب معهم ، والتطاول عليهم ، ووصفهم بالضلال .

وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك فى سور شتى منها ما جاء فى سورة « المؤمنون » حيث يقول « سبحانه وتعالى » :

---

(١) سورة الرعد آية ٣٢ .

(٢) سورة الحجر آيات ٩٤ : ٩٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٢ ص ٥٥٩ بتصرف .

(٤) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » لأبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوى ص ٣٦٠ بتصرف . الناشر مكتبةالجمهورية العربية .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾(١) .

ومنها قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾(٢) .

ومن هذه الآيات كذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا من الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(٣) .

ففى هذه الآيات الكريمة الأخيرة يحكى لنا الله « تبارك وتعالى » عن المشركين أربعة أشياء من المعاملات القبيحة ... فأولها : استهزاؤهم من المؤمنين ومن دينهم ... وثانيها : أنهم كانوا إذا مروا بهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ، ويقولون انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم فى طلب ثواب لا يتيقنونه ... وثالثها : أنهم كانوا إذا انصرفوا ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم رجعوا متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم ... ورابعها : أن هؤلاء المشركين كانوا إذا رأوا المؤمنين قالوا : إن هؤلاء على ضلال ؛ لتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى أله وجود أم لا ؟

(١) سورة المؤمنون . الآيات من ١٠٣ إلى ١١١ .

(٢) سورة « ص » الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) سورة المطففين ، آيات ٢٩ : ٣٦ .

وهذا آخر ما حكاه الله عن الكفار . ثم بين « سبحانه وتعالى » أن النتيجة الحتمية لذلك هى دخول المؤمنين الجنة يوم القيامة ، ثم ضحكهم على الكفار بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء[1] .

وهكذا استخدمت قريش وسيلة الاستهزاء والسخرية بالصحابة « رضوان الله عليهم » لإخراجهم من هذا الدين .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وأدت إلى نتيجة عكسية ، فقد قوت من عزيمة المسلمين وجعلتهم يتفانون من أجل دينهم .

## ثانياً : التشويش على الناس بمواجهة الوحى بالأساطير والخرافات وبلهو الحديث :

استخدمت قريش هذه الوسيلة ضد الدعوة الإسلامية علّها بذلك تحول دون انتشارها بين الناس ، فواجهوها بالمكاء والصفير والتخليط فى المنطق عند قراءة النبى ﷺ القرآن للتشويش عليه[2] ، وبالتواصى فيما بينهم على ذلك ؛ لأنهم عجزوا عن مغالبة أثر القرآن فى نفوسهم وفى نفوس الجماهير[3] .

وفى ذلك يقول الله « تبارك وتعالى » :

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[4].

ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح ، وغلب القرآن ؛ لأنه يحمل سر الغلب إنه الحق ، والحق غالب وإن جحد المبطلون[5].

وهكذا حاول المشركون صرف النـــاس وإلهاءهـــم عن الاستماع لرسول الله ﷺ ولكن يأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٣١ ص ١٠٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم « سابق » ج ٤ ص ٩٨ بتصرف .
(٣) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٢٠ .
(٤) سورة فصلت آية ٢٦ .
(٥) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٣١٢٠ .

### ثالثاً : استخدام وسيلة البطش والتعذيب ضد الرسول وصحابته :

مما يدعو للدهشة والتعجب أنه فى الوقت الذى كان فيه رسول الله ﷺ وأتباعه يدعون الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، وكل ذلك يتم فى هدوء تام من قبل رسول الله وصحابته ، كانت قريش على النقيض من ذلك تماماً ؛ فقد قابلت ذلك بمنتهى العنف والقسوة وبغاية البطش والإرهاب لرسول الله ﷺ ولصحبه على السواء .

فلقد لاقى رسول الله ﷺ أنواعاً كثيرة من إيذاءات المشركين ، نذكر منها على سبيل المثال :

ما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : لو فعله لأخذته الملائكة »(١) .

وما رواه أيضاً بسنده عن عروة بن الزبير قال « سألت ابن عمرو بن العاص عن أشد شيء صنعه المشركون بالنبى ﷺ فقال :

« بينا النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر « رضى الله عنه » حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ وقال : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله »(٢) .

وما رواه كذلك بسنده عن عبد الله « رضى الله عنه » قال « بينا النبى ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبى معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبى ﷺ ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت فاطمة « رضى الله عنها » فأخذته من ظهره ودعت على من صنع . فقال النبى ﷺ « اللهم عليك الملأ من قريش أبا جَهْلِ بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، أو أبى بن خلف » شك من الراوى « شعبة » فرأيتهم قتلوا يوم بدر ، فألقوا فى بئر غير أمية ، أو أبى تقطعت أوصاله ، فلم يلق فى البئر »(٣) .

---

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق ، باب : ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

وأخيراً ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة « رضى الله عنه » قال :

« قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قال : فقيل : نعم . قال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته . قال فما فَجِئَهُمْ منه إلّا وهو ينكص(١) على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه لخندقاً وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً ، قال : فأنزل الله عز وجل لا ندرى فى حديث أبى هريرة أو شىء بلغه ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى . إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى . أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى . عَبْدَاً إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالْتَقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ﴾ « يعنى أبا جهل » ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى . كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ زاد عبيد الله فى حديثه قال : وأمره بما أمره به، وزاد ابن عبد الأعلى : فليدع ناديهُ يعنى قومه »(٢) .

هذا بعض ما لاقاه الرسول ﷺ من الأذى من قريش . أما أصحابه « رضوان الله عليهم » ، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب ، حتى مات منهم من مات تحت العذاب ، وعمى من عمى .

ولقد كان لهذا الموقف من قريش تجاه الدعوة الإسلامية أثره الخطير فى سير الدعوة فى العهدالمكى بطوله ، بل يصح أن يقال إنه من أهم الأحداث التى كانت فى هذا العهد وأبعدها خطراً وأثراً ، إن لم نقل إنه أهمها على الإطلاق .

ولقد تناول القرآن الكريم فى كثير من آياته صوراً ومشاهد متعددة لهذا الموقف ونتائجه ، وتدل آيات القرآن أيضاً على أن هذه المحنة قد بدأت فى مرحلة مبكرة ، ثم استمرت طيلة العهد المكى ، وأن بعض مستضعفى المسلمين ظل يكتوى بنارها إلى السنة الثامنة من العهد المدنى ، أما أهم نتائجها فهى الهجرات

---

(١) ينكص على عقبيه : النكوص الإحجام عن الشىء ، قال تعالى « نكص على عقبيه » المفردات ص ٥٠٦ .

(٢) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب قوله « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

الأولى والثانية إلى الحبشة ، والثالثة إلى المدينة(١) ونتناول بعض الآيات التى تبين لنا فتنة القرشيين وأذاهم للمؤمنين والمؤمنات يقول الله « تبارك وتعالى » فى سورة البروج :

﴿ إن الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ . وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾(٢).

ففى هذه الآيات الكريمة يهدد الله « تبارك وتعالى » ويتوعد كل من فتن المؤمنين فى دينهم ليرجعوا عنه — ويدخل فى ذلك كفار قريش دخولاً أولياً ، فهم عذبوا المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة بأنواع من العذاب ثم لم يتوبوا من فتنتهم للمؤمنين﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ بسبب فتنتهم للمؤمنين « ولهم » نار أخرى زائدة على الإحراق لعدم توبتهم ولعدم مبالاتهم بما صدر منهم .

وبعد ذلك أخبر « سبحانه وتعالى » أنه أعد لعباده الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح بساتين وحدائق زاهرة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم . ولهذا قال ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه .

ثم تتوالى تهديداته « سبحانه وتعالى » لهؤلاء الطغاة العصاة الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره فيقول :

إن بطشه وانتقامه من هؤلاء لشديد عظيم قوى فإنه « تعالى » ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر أو هو أقرب ، ولهذا قال : إنه من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ويعيده ، كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ، كما أنه أيضاً يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أى شيء « كان » ويحب من أطاعه(٣)

(١) « سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم » ، للشيخ محمد عزة دروزة ج ١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ بتصرف ط ثانية ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م ط عيسى الحلبى .

(٢) سورة البروج آيات ١٠ : ١٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٤٩٦ بتصرف .

وهكذا فقد احتوت هذه الآيات الكريمة إنذاراً شديداً للفاتنين إن لم يتوبوا ويرتدعوا عن إثمهم . وكان للمشركين أساليب متعددة لفتنة المؤمنين وإبعادهم عن دينهم منها :

**محاولتهم فتنة المسلمين بالإكراه :**

**وذلك أن مشركي قريش حاولوا رد المسلمين عن دينهم بوسائل التعذيب المختلفة التي يصبونها على المسلمين ؛ علهم بذلك يتركون دينهم ويعودون إلى دين آبائهم مرة ثانية .**

**ولكن المسلمين كانوا يتحملون هذا العذاب الأليم في سبيل الله ؛ لأنهم يعلمون أن الدنيا زائلة ، وأن ما عند الله هو خير وأبقى .**

**وقد حكى القرآن الكريم لنا كثيراً من الآيات الدالة على ذلك ، فقال « تعالى » :**

بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**(١) .

ففي هذه الآيات الكريمة يبين لنا الله « تبارك وتعالى » ما كان يفعله المشركون بالمسلمين من إيذاء واضطهاد ، وأن هذا طبعي بالنسبة للمسلمين لكي يتميز منهم المخلص من غير المخلص والراسخ في الدين من المضطرب ، والمتمكن من العابد على حرف(٢) كما قال تعالى : **﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُو**

---

(١) سورة العنكبوت ايات ١ : ٧ .

(٢) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل . للبيضاوى ص ٥٣٠ بتصرف .

وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(١)

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾(٢).

وفيها خطاب من الله « تبارك وتعالى » لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين قائلاً لهم : أتظنون أن تدخلوا الجنة بمجرد إيمانكم ، دون أن تتعرضوا لمثل ما تعرض له الأنبياء من قبلكم ومن معهم من المؤمنين ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التي هي مثل في الفظاعة والشدة . إنكم ستبتلون بمثل ما ابتلى به غيركم(٣).

وفي ذلك إشارة إلى أن الوصول إلى الله « تعالى » والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ، ومكابدة الشدائد والرياضات(٤) ، قال عليه الصلاة والسلام « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »(٥) ، وهكذا ، فقد رأينا أن زعماء المشركين لما رأوا النبي ﷺ مستمراً في دعوته رغم ما بدا منهم لها من معارضة ومناوأة وتكذيب وصد ، ورأوا الناس أخذت تستجيب لها من مختلف الطبقات ، وخاصة الطبقات الضعيفة والفقيرة ، التي رأت فيها ملاذاً وفرجاً وطمأنينة نفس ، ورأوا أن النبي يشجع هذه الطبقة بتلقين القرآن ويدعو إلى البر بها ، ويهتم بأمرها وبتحريرها ورفع مستواها ، في حين أن الجماهير إنما كانت تتألف منها وكانت تقاسي الاضطهاد ، خشوا أن يستشرى أمر الدعوة

---

(١) سورة آل عمران أية رقم ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .

(٣) تفسير إرشاد العقل السليم ج ١ ص ٢١٥ .

(٤) تفسير أنوار التنزيل « سابق » ص ٧٢ بتصرف .

(٥) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها من حديث أنس ، الترمذى ، كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات من حديث أنس . قال أبو عيسى الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح ، النسائى فى السنن كتاب الأيمان والنذور باب الحلف بعزة الله « تعالى » من حديث أبى هريرة « رضى الله عنه » ، وذكره مطولاً ، الدارمى فى السنن كتاب الرقائق باب حفت الجنة بالمكاره حديث أنس ، أحمد بن حنبل فى المسند ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ج ٣ ص ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤ .

ويتسع فى هذه الطبقة فتكون الثغرة التى ينفذ منها إليهم وينهدم بها كيانهم ، فجنحوا إلى سدها منذ البدء باضطهاد من فى حوزتهم من أرقاء ، ومن يقدرون عليه من مستضعفين وإجبارهم على الرجوع عن الدين الجديد ، مناوأة للدعوة ، ووسيلة لتخويف من تحدثه نفسه من عامة الناس وضعفائهم وفقرائهم بالالتحاق بها . ولقد رويت روايات عدة عن هذه المحنة ، يفهم منها أنها كانت من أشد ما هم النبى ﷺ هما عظيماً ، وأنه كان من صورها أن يعرى المسلم ويطرح فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة حرارة الشمس ، وتوضع على أجسامهم الصخور الثقيلة ، ويمنع عنهم الماء والطعام ، وتقيد أيديهم وأرجلهم بقيود الحديد ، ويجلدوهم بالسياط الشديدة ، وأنه كان من نتائجها إزهاق أرواح بعضهم ، فضربوا مثلاً خالداً على التمسك بالعقيدة ، وتحمل أنواع الأذى والتضحية بالنفس فى سبيلها ، وأن بعض أغنياء المسلمين وخصوصاً أبا بكر « رضى الله عنه » كانوا يشترون الأرقاء المضطهدين من مالكيهم وينقذونهم من الاضطهاد .

وهناك روايات يستفاد منها أن عدداً من الذين لهم عصبيات قرشية اضطهدوا أيضاً بأساليب مختلفة من قبل ذويهم ، استياء من تبديلهم دينهم وتحولهم عن تقاليدهم ، ومنعاً لاستشراء أمرهم وعدواهم أيضاً . فكان ذلك سبباً لهجرة كثير منهم إلى الحبشة .

ومن اللافت للنظر أن من النساء من سارعن إلى الإيمان بالنبى ﷺ منذ البدء بالرغم من ضَعْفِهن ، وما كان يلقاه المسلمون من أذى واضطهاد ، وأن منهن من تعرضن فعلاً للأذى والفتنة . وفى الروايات أسماء لنساء مسلمات أزهقت أرواحهن فى سبيل التمسك بدينهن الجديد كالرجال[1] . وها هى ذى بعض الصور التى وقعت للمسلمين فى مكة والتى تدل على مدى ما تعرضوا له من العذاب على أيدى مشركى قريش الذين انعدمت الرحمة من قلوبهم ، وماتت ضمائرهم حتى أصبحت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة .

---

(١) سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ بتصرف .

## بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر « رضى الله عنهما »

كان من أول الناس إسلاماً بلال بن رباح . وكان مولاه أمية بن خلف الجمحى قاسى الكبد ، غليظ القلب ، لا ينبض قلبه بقطرة من الرحمة الإنسانية : كان يجرجره عند الظهيرة فى الحر الشديد فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة المكرمة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى فما يزيد بلال عن ترديد : أحد .. أحد .. فيسرف أمية بن خلف الطاغية فى التنكيل ببلال وسومه سوء العذاب ، ويزداد بلال إيماناً واستعذاباً لألوان العذاب من أجل ذلك استحق تلك المنزلة الرفيعة التى أخبره بها رسول الله ﷺ حين قال له « سمعت دف نعليك فى الجنة »(١) ، كما استحق أيضاً أن يكون سيدنا كما كان يقول سيدنا عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا »(٢) .

### آل ياســـر :

ومن الذين عذبوا فى الله أيضاً آل ياسر فلقد كان المشركون يعذبونه عذاباً شديداً هو وأهله ، فيمر عليهم رسول الله ﷺ فما يملك إلَّا أن يبشرهم بالجنة قائلاً لهم « أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة »(٣) فمات ياسر فى العذاب وأغلظت امرأته « سمية » القول لأبى جهل فطعنها فى قبلها بحربة فى يديه فماتت وهى أول شهيدة فى الإسلام

### خباب بن الأرت :

ونختم هذه النماذج التى تبين لنا مدى حنق ودناءة المشركين الذين فقدوا صوابهم ، فحاولوا بكل الوسائل أن يفتنوا المسلمين عن دينهم إلَّا أنهم قد فشلوا فشلاً ذريعاً ـــ بصحابى جليل لاقى من المشركين ألواناً شتى من العذاب يصور لنا ما كان يحدث لصحابة رسول الله ﷺ من اضطهاد وتعذيب .

---

(١ ، ٢) صحيح البخارى ، باب فضائل الصحابة . مناقب بلال بن رباح ج ٥ ص ٣٣ .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح . وهم ثقات ، انظر « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » لعلى بن أبى بكر الهيثمى ج ٩ ص ٢٩٣ مكتبة القدسى بالقاهرة .

وهذا الصحابى الجليل هو خباب بن الأرت .

فقد أخرج البخارى بسنده عن خباب بن الأرت قال :

« أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة . فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد وهو محمّرٌ وجهه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليُمشطُ بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم ، أو عَصَب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ولَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسيرالراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلَّا الله »(١) .

وتمضى الأيام ، ويثبت الله الذين آمنوا ويسجل التاريخ لهم صفحة من أنصع صفحات البطولة لعدم تأثير هذا الطيش وذلك البطش وتلك الغطرسة التى وقعت عليهم من القرشيين ، لأن كل هذه الأشياء لم تستطع التأثير أو النيل من دين تمكّن فى نفوس أصحابه تمكن الغرائز ، فماذا تفعل هذه الأشياء فى رجال جعلوا أنفسهم وقوداً لمبادئهم ودينهم .

يقول غوستاف لوبون : إن مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ، ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس(٢). لقد جعل الاضطهاد من الثلة الصغيرة المسلمة كتلة قوية باتحادها وإيمانها ، وأثار فى كثير من الأحيان عصبية أهل هؤلاء السابقين إلى الإسلام وعاطفتهم ؟ وجعل منهم مدافعين عن حملة راية الإسلام ، ووحد بينهم فى الآلام والآمال(٣) .

يقول غوستاف لوبون أيضاً : إن الإيمان هو أكبر قوة فى تصرف الإنسان ، وأنه يزحزح الجبال عن مواضعها ، وإن المؤمن لا يتمكن من إقناع الخصم إلَّا إذا سكر بخمر المذهب ، وهؤلاء هم الذين يستطيعون أن يولدوا فى النفوس القوة الهائلة التى تجعل الناس عبيداً لدعوتهم(٤). وكما سجل التاريخ لهؤلاء المؤمنين

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب : ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .
(٢) نقلاً عن كتاب « دراسات تاريخية » للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢١٦ .
(٣) دراسات تاريخية « سابق » .
(٤) نقلاً عن المرجع السابق .

صفحة ناصعة بيضاء من أنصع صفحات البطولة سجل لهؤلاء القرشيين الطغاة صفحة سوداء ، بل من أحلك صفحات الخسة والجبن والنذالة .

هذه بعض الإيذاءات التى حدثت لرسول الله ﷺ ولأصحابه من المشركين ، فهل كان ذلك سببه أن محمداً ﷺ لم يكن المهيب ، وأنه كان الهزيل الذى يجترأ عليه ؟ ولماذا إذاً هذا العذاب الذى لقيه النبى ﷺ وأصحابه وهم على الحق ؟ ولماذا لم يمنع الله « عز وجل » عنهم هذا العذاب وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون إلى دينه ويجاهدون فى سبيله ؟ .

**والجــــواب :**

أولاً : عن السؤال الأول يقول الشيخ أبو زهرة : إن محمداً ﷺ كان المهيب فى شخصه ، والقوى فى ذاته ونفسه ، والذى آتاه الله « تعالى » القوة الإنسانية الكاملة ، فهو المهيب المحبوب الذى لم يرد أن يكون مرهوباً ، وإن أراد الرهبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغرون بالكرماء ، وكان محمد ﷺ كريماً ، ولم يرد أن يكون مخوفاً مفزعاً ، بل أراد أن يكون أليفاً قريباً دانياً ، ليستطيع أن يتألف الناس ولا يرهبهم ، وقد كان « عليه الصلاة والسلام » يفرض الرهبة فى قلوب المشركين إن كان لذلك موضع(١) .

ولعلنا لمسنا ذلك واضحاً عندما أراد أبو جهل أن يطأ رقبة رسول الله ﷺ وهو يصلى . فما كان منه إلَّا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، لأنه رأى خندقاً من نار وهولاً وأجنحة فلو دنا من الرسول ﷺ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً . وغير ذلك كثير يدل على تأثير مهابة الرسول ﷺ فيهم ، وما استطاعوا لها رداً إلَّا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، وإصرار على مقاومة الهيبة .

ولكن لماذا لم يخفهم الرسول ﷺ بهيبته ؟ .

لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويختصون من لهم حلم ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون منهم مقاومة ، كأبى بكر وعثمان وجعفر ابن أبى طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد ﷺ ، وينالون الضعفاء الذين لا حول

(١) خاتم النبيين ١ / ٤٠١ .

لهم ولا قوة يقاومون بها ، ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة وبطش ويذيقهم الكأس أكؤساً ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب ولا عمر بن الخطاب ، لأنهم يتوقعون منهما المقاومة .

ولكن هل كان محمد ﷺ دون عمر مهابة أو دون حمزة فى قوة النفس ؟ لا . لم يكن أقل منهما مهابة ولا قوة نفس بل كان أعلى منهما فى ذلك كثيراً كثيراً ولكنهم نالوا منه وتحمل منهم الأذى فى سبيل الدعوة ، ولم يرهب ولم يفزع بل رضى بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء . وإن ذلك من عمل النبوة ، إنه « عليه الصلاة والسلام » ما جاء مسيطراً ولكنه جاء مبلغاً ، وما جاء متحكماً ، ولكنه جاء داعياً مقنعاً ، فلو استخدم هيبته وأظهر الرهبة لتبعه الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ولبدا النفاق فى الذين يجيبون دعوته .

إن الرسول ﷺ يريد مؤمنين يدخلون فى الإسلام رغباً لا رهباً . ولا يكون دخولهم عن خوف أياً كانت صورة الخوف ، لأن الدين الذى جاء به الرسول ﷺ دين الخليقة كلها لا دين جيل من أجيالها ؛ فلا بد من مؤمنين إيماناً قوياً ليحملوا هذا الدين إلى الخلف من بعده ﷺ ، ولا يكونون أقوياء فى إيمانهم إلّا إذا صبروا وصابروا فى حضرة النبى ﷺ وينزل بهم البلاء فى حضرته ليرى عليه الصلاة والسلام قوة احتمالهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة فى مشارق الأرض ومغاربها .

إن الذين يدخلون فى الإسلام بهيبة النبى ﷺ سرعان ما يتركونه إذا غاب عنهم واعتبر ذلك بحال المؤمنين فى المدينة ، فإنه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لأهل الإيمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا فى الإسلام تابعين غير مؤمنين إيمان الصابرين المصابرين .

كالأعراب الذين ساروا مع القوى وقال فيهم الله تعالى : ﴿ **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ** ﴾[1] وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد ﷺ . إن الله « تعالى » أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ**

---

(١) سورة التوبة آية ٩٧ .

بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1] وإن ذلك يقتضى أن يكون موطأ الكنف وديعاً فى دعوته متطامناً لمن يخاطبهم ، ليس فظاً ولا غليظ القلب ، ولا مرهباً ولا مفزعاً .

وإن تطامن النبى ﷺ كما جرأ عليه الأقوياء الذين يؤذون الحق إذا بدا وضحه المبين ، قد قرب إليه الضعفاء ، وبهم كانت الدعوة الأولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم . بل إن تطامنه ﷺ والاعتداء عليه قد قرب بعض الأقوياء ولم يبعدهم .

ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لأنهم يرون أن محمداً « عليه الصلاة والسلام » بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان ليسمح لأحد أن يؤذيه إلّا لطيب نفسه ، فيكون الإيذاء جاذباً للأنظار مستوعباً للذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الأحرار ، فيدعوهم ذلك إلى التفكير فى الذى يدعو إليه ، ويكفى ذلك لدخولهم فى الإسلام مناصرين غير محاربين ولا مجاملين .

من أجل ذلك ولأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه « عليه الصلاة والسلام » أن يتأتى للأمور بيسر وبرفق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف[2] .

**وللإجابة عن السؤال الثانى يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى :**

إن أول صفة للإنسان فى الدنيا أنه مكلف ، أى مطالب من قبل الله « عز وجل » بحمل ما فيه كلفة ومشقة ، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف والتكليف من أهم لوازم العبودية لله ، فالعبودية تستلزم التكاليف والتكليف يستلزم تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء .

من أجل هذا يجب على عباد الله فى هذه الدنيا أمران :

أولهما : التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى الصحيح .

ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر ، وبذل المهج والمال من أجل تحقيق ذلك .

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) خاتم النبيين للأستاذ الدكتور محمد أبو زهرة ج ١ ص ٤٠٣ : ٤٠٥ بتصرف .

ولو شاء الله لجعل السبل لإقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به أمراً سهلاً وميسوراً ، ولكن فى هذه الحالة لا يتميز الصادق من الكاذب ، ولا المؤمن من المنافق لعدم تمحيص الواحد منهم عن الآخر .

وإذاً فإن ما يلاقيه الدعاة إلى الله « تعالى » والمجاهدون فى سبيل إقامة المجتمع الإسلامى سنة إلٰهية فى الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث :

**أولاً** : صفة العبودية الملازمة للإنسان ، لله عز وجل ، وصدق الله إذ يقول ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾(١).

**ثانياً** : صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية ، فما من رجل أو امرأة يبلغ أحدهما ، عاقلاً سن الرشد ، إلّا وهو مكلف من قبل الله « عز وجل » بتحقيق شرعة الإسلام فى نفسه وتحقيق النظام الإسلامى فى مجتمعه ، على أن يتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من الشدة والأذى ، حتى يتحقق معنى التكليف .

**ثالثاً** : إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين . فلو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله « تعالى » على ألسنتهم فقط ، لاستوى الصادق والكاذب ، ولكن الفتنة والابتلاء ، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب . وصدق الله القائل فى محكم كتابه : ﴿ **الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾(٢) والقائل : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾(٣) وإذا كانت هذه هى سنة الله فى عباده ؛ فلن تجد لسنة الله تبديلاً حتى مع أنبيائه وأصفيائه .

من أجل ذلك أوذى رسول الله ﷺ وجميع الأنبياء والرسل كما أوذى صحابته ﷺ كذلك حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمى من عمى ، رغم عظم فضلهم وجليل قدرهم عند الله « عز وجل » ، ومما ينبغى الإشارة إليه أن العذاب الذى يلقاه المسلم وهو فى طريقه لإقامة المجتمع الإسلامى ليس فى

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٢) سورة العنكبوت الآيات ١ : ٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٤٢ .

حقيقته عقبات أو سدوداً تصده عن بلوغ غايته ، كما يتوهم بعض الناس بل هذه العقبات وتلك السدود فى حقيقتها دليل على أن المسلمين قد اقتربوا لغايتهم التى كلفهم الله بالوصول إليها .

فلا ينبغى للمسلم إذاً أن يتوهم اليأس ، إذا ما عانى شيئاً من المشقة أو المحنة . بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين .

أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضُّرّ ، والنكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم « عز وجل » ، وتأمل فإنك ستجد برهان ذلك جلياً فى قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾[1] .

فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلامى ، وتوهموا أن هذا الذى يرونه من الأذى والعذاب إنما هو عنوان ودليل على ابتعادهم عن النصر ، كان جواب هؤلاء من الله تعالى ﴿ **أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾ .

ونجد برهان ذلك جلياً أيضاً في قصة خباب بن الأرت ، حينما جاء لرسول الله ﷺ بعد اكتواء جسده من عذاب قومه له ، يشكو إليه ﷺ ذلك ويسأله الدعاء بالنصر للمسلمين .

فقد كان جواب رسول الله ﷺ له بهذا المعنى :

« إن كنت تتعجب من العذاب والأذى وتستغرب أن ترى ذلك في سبيل الله « عز وجل » ، فاعلم أن هذا هو السبيل .. وتلك سنة الله في جميع عباده الذين آمنوا به » .

مشط الكثير منهم في سبيل دينه بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب فما صدهم ذلك عن شيء من دين الله .

وإن كنت ترى في العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر ، فأنت متوهم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٤ .

بل الحق هو أن تجد في العذاب والألم سيراً في الطريق ودنواً من النصر وليَنصرن الله هذا الدين حتى يسير الرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلّا الله . وفى رواية « والذئب على غنمه »(١) .

## فتنة المسلمين بإغضاب الوالدين عليهم :

ومن فتنة المسلمين أن حاول المشركون أن يضغطوا على المسلمين بواسطة الوالدين ليردوهم عن دينهم ولكن ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(٢) .

فما كان ذلك يؤثر على المؤمنين لأنهم آمنوا بكل جوارحهم ، واستسلموا لِلّه فلن يصرفهم عن دينهم صارف صغر أو كبر هذا الصارف .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على هذا الموقف منها قول الحق « تبارك وتعالى » : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾(٣) .

وسبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين ما رواه مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه سعد أنه قال : نزلت فى أربع آيات فذكر قصة ، فقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ، والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، فقال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا (٤)فاها فنزلت هذه الآية ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ الآية(٥) .

---

(١) « فقه السيرة » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ص ٨٥ : ٨٧ الطبعة السابعة ط دار الفكر .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآيتين ٨ ، ٩ .

(٤) شجروا فاها : أى جعلوا فى شَجْرِهِ ــ وهو مَفْرَجُهُ ــ عوداً حتى فتحوه . الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) الجامع الصحيح « سنن الترمذى » لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٠٩ ــ ٢٩٧ ج ٥ ٣٤٢ ، ٣٤٣ كتاب تفسيرا لقرآن باب سورة العنكبوت ، حديث رقم ٣١٨٩ ــ ط ثانية ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م تحقيق إبراهيم عطوة عوض . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

وهاتان الآيتان تستهدفان تثبيت الابن المسلم فى إسلامه فتقرران أن ليس على المرء لوالديه إلّا الرفق والحسنى ، وليس عليه لهما الطاعة إذا أراداه على الكفر والشرك بالله .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تعملون ﴾(١).

وهاتان الآيتان جاءتا استطراداً على الأرجح فى سلسلة مواعظ لقمان ، ويدل مضمونهما على أنهما استهدفتا نفس الهدف الذى استهدفته آيتا العنكبوت ، واحتوتا إيضاحاً أكثر ، بما هو الواجب على الولد نحو والديه الكافرين ، وهو الحسنى بما يتعلق بأمور الدنيا فحسب .

وهذا التكرار يدل على أن محنة غضب الوالدين واضطهادهما وإلحاحهما لم تكن مقصورة على حادث واحد ، بل تعرض لها أكثر من واحد من المسلمين فى مكة ممن كانوا يمتون إلى البيوت القرشية الوجيهة .

وهذا مشهد جديد من مشاهد الأذى والفتنة كما هو المتبادر ، كما أن فيه مغزى عظيماً وهو أن بعض فتيان هذه البيوت أقبلوا على الدعوة والاستجابة إليها ، والالتفاف حول صاحبها برغم مواقف آبائهم وذويهم من معارضتها والصد عنها(٢)

**طمأنة بعض المسلمين والتعهد لهم بحمل ذنوبهم إذا رجعوا عن دينهم :**

وهذا أسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم ، فقد كان الزعماء من المشركين يعمدون أحياناً إلى طمأنة بعض المسلمين الذين لا يقدرون على اضطهادهم من أهل العصبية .

---

(١) سورة لقمان الآيتين ١٤ ، ١٥ .

(٢) « سيرة الرسول » لمحمد عزة دروزة ج ١ ص ٨١

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾(١) .

ولكن المسلمين لم يلتفتوا إليهم لتمكن الإيمان فى نفوسهم ، وبذلك أخفقت قريش وفشلت فشلاً ذريعاً .

**رابعاً : مساومته ﷺ بعرض الأمور الدنيوية المغرية عليه لاستمالته :**

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله ، وظنوا أن السخرية والتهكم التى لجئوا إليها ستهد قوى المسلمين المعنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم ، غير أن ظنونهم سقطت جميعاً(٢) ، ومحاولاتهم قد باءت بالفشل الذريع ، الأمر الذى جعل قريشاً تفكر فى ملاطفته ﷺ وملاينته ، علها تستطيع بذلك أن تصل إلى ما تريده من صرفه عن دعوته ، فرأت أن ترسل إليه ﷺ عتبة بن ربيعة ــ وكان سيداً فيهم ــ ليعرض عليه أموراً عله يقبل بعضها ويكف عنهم ــ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ــ فقال عتبة لرسول الله ﷺ يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من الشطر فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لَعَلَّكَ تقبل منها بعضها ، فقال له رسول الله ﷺ « يا أبا الوليد أسمع » .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بماجئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى

---

(١) سورة العنكبوت الآيتين ١٢ ، ١٣ .

(٢) « فقه السيرة » للشيخ محمد الغزالى ص ١١٤ ط بمطبعة حسان الطبعة السابعة .

يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه — أو كما قال له — حتى إذا فرغ عتبة . قال له النبى ﷺ :

« أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم .

قال : اسمع منى ، قال : أفعل .

فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **حمٓ . تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياته قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمدا عليها ، ليسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجدها ثم قال « سمعت يا أبا الوليد ؟ » قال سمعت قال : « فأنت وذاك » .

ثم قام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلسوا إليه قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى . خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم(١) .

إن هذه الإجابة التي أجاب بها عتبة على القرشيين إنما كانت بعد ما لمسه من صدق ثبات الرسول ﷺ وأنه لا يرضى بدينه بديلاً . ولو كان ممن يطلبون الدنيا لاغتبط بما عرض عليه واتفق مع قريش فى الحال وأراح نفسه وصحابته من الإيذاء والفتنة .

---

(١) هذه القصة ذكرها عبد بن حميد وأبو يعلى البغوى من حديث جابر « رضى الله عنه » كما فى تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ ، ص ٩١ بسند حسن ، أخرجها ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ بسند حسن أيضاً . وذكرها السهيلى فى الروض الأنف ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٢١ ط دار الكتب الحديثة .

ولكنه مكلف برسالة خالدة لا بد وأن يبلغها للناس مهما لحقه من أذى أو عاق طريقه من معوقات .

## خامساً : مطالبتهم للرسول ببعض المعجزات :

وبعض أن فشل المشركون فى وسيلة الإغراء التى استخدموها مع رسول الله ﷺ اتجهوا وجهة جديدة علهم بواسطتها أن يقضوا على هذا الدين . وهذه الوجهة هى مطالبتهم للرسول ﷺ بأن يأتى لهم بالمعجزات والآيات الخارقة للعادة برهاناً على صدق دعواه .

ولم يطلبوا ما طلبوه من المعجزات للهداية والإرشاد ، بل طلبوها بهدف العناد والتعجيز فقط . وهم بذلك سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم السابقة من تحديهم لأنبيائهم الذين جاءوا بالآيات والمعجزات كما نرى فى الأمثلة الآتية :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً ﴾(١) .

﴿ وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(٢) .

﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾(٣) .

ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم كثيراً ، حتى حكى القرآن المكى ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة ، عدا ما حكى عنهم من التحدى الضمنى ومن التحدى بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن موعده .

---

(١) الإسراء ٩٠ : ٩٣ .
(٢) الحجر : ٦ ، ٧.
(٣) الأنبياء : ٥ .

ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدى المتكرر كان سلبياً ، إذا استثنينا الإشارة إلى القرآن باعتباره الآية الباقية ، أو إلى احتوائه ما فى الكتب السماوية دليلاً على صحة وحى الله به ، كما نرى فى الأمثلة الآتية :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الأُولَى ﴾(١).

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾(٣)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين . قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٤) .

وهكذا طالب المشركون الرسول ﷺ أن يأتيهم بخوارق من عند الله « تبارك وتعالى » لتكون دليلاً على صدقه فى دعوته ، إلّا أن الله « سبحانه وتعالى » الذى يعلم منهم العناد والمكابرة وأنه لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا إلّا أن يشاء الله ، لأن الإيمان لا يتوقف على المعجزات وإنما هو منوط بحسن القصد وشرح الله صدر المرء به « لم يستجب لما طلبوه من رسول الله ﷺ ، ولعل آيات الحجر والأنعام التالية :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾(٥) .

(١) طه : ١٣٣ .
(٢) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ .
(٣) العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤ .
(٤) الملك : ٢٥ ، ٢٦ .
(٥) الحجر : ١٤ ، ١٥ .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(١)

من هذا الباب من ناحية توكيد نية المكابرة والعناد فى الكفار ، والاستمرار فى الموقف السلبى من أجل ذلك .

وهكذا فقد اقتضت حكمة الله ألَّا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد « عليه السلام » وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التى جاءت بأسلوب جديد ، هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقى البسيط ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب فى الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار أن الدعوة التى تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هى فى غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات .

وفى هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود والتعميم . وآيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت وانقضت ، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية هذا الذى اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلةعلى بعض أولئك الأنبياء ، هو أسلوب خالد حى قوى فى كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله وحيويته ونفوذه وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسُمُوّه ، ولذلك كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحى(٢) .

## سادساً : محاولتهم بث الفرقة بين الرسول ﷺ وعمه أبى طالب :

وذلك بتكوين وفد للذهاب إلى أبى طالب ليطلب منه أن يرد عنهم محمدا ﷺ .

---

(١) الأنعام : ٧ .

(٢) « سيرة الرسول » لمحمد عزة دروزة ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ . .

وذهب الوفد لأبى طالب وأخذ يقول له : يا أبا طالب إن ابن أخيك يأتينا فى أفنيتنا وفى نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل ، فقال أبو طالب لابنه عقيل : التمس لى ابن عمك فأخرجه عقيل من كِبْس[1] من أكباس أبى طالب ، فأقبل محمد ﷺ يمشى مع عقيل يطلب الفىء يمشى فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبى طالب فقال له أبو طالب : يا ابن أخى والله ما علمت إن كنت لى لمطيعاً ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كعبتهم وفى ناديهم تسمعهم ما يؤذيهم فإن رأيت أن تكف عنهم[2] .

وهنا أطرق محمد ﷺ إطراقة وقف إزاءها تاريخ الوجود كله برهة مبهوتاً لا يدرى بعدها ما اتجاهه . فى الكلمة التى تفتر عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم أهو يظل فى الضلال يُمَدُّ له فيه ، فتطغى المجوسية على النصرانية المتخاذلة المضطربة وترفع الوثنية بباطلها رأسها الخرِف والآفن ، أم هو يضىء أمام العالم نور الحق وتعلن فيه كلمة التوحيد وتحرر فيه العقول من رق العبودية ، والقلوب من إسار الأوهام وترتفع فيه النفس الإنسانية لتتصل بالملأ الأعلى .

وهذا عمه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه ، وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقْوون على حرب ، لا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والمال والعُدَّة والعدد . إذا لم يبق له دون الحق الذى ينادى الناس باسمه نصير ، ولم يبق له سوى إيمانه بالحق عُدَّة . ليكن !!

إن الآخرة خير له من الأولى . وليؤد رسالته ولْيَدْعُ إلَى أمر ربه . ولخير له أن يموت مؤمناً بالحق الذى أوحى إليه من أن يخذله أو يتردد فيه . لذلك التفت إلى عمه ممتلىء النفس بقوة إرادته[3] وقال له « والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار »[4] يا لعظمة الحق وجلال الإيمان به « اهتز الشيخ لما سمع من جواب محمد ووقف كذلك منهوكاً أمام هذه

---

(١) الكِبْس : بيت صغير ، ويروى بالنون ، من الكناس بيت الظبى . النهاية ٤ / ٥ .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير إلَّا أنه قال : من جلس مكان كبس ، وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبى يعلى رجال الصحيح . مجمع الزوائد ٦ / ١٤ ، ١٥ .

(٣) حياة محمد « سابق » ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٤) الحديث السابق .

القدسية والإرادة السامية فوق الحياة وكل ما فى الحياة . ولم تك إلّا لحظة اهتزفيها وجود أبى طالب متحيراً بين غضبة قومه وموقف ابن أخيه[1] ثم قال : « والله ما كذب ابن أخى قط ارجعوا راشدين »[2] .

وهكذا خرج رسول الله ﷺ من هذه المفاوضات وتلك المساومات مصمماً على الاستمرار فى دعوته مهما تألب عليه المبطلون .

واكتسبت دعوته نصراً مؤزراً ، لأنه رسخ فى الأذهان ، أن دعوة لا تقبل المساومة ، وترفض أسخى العروض التى يشتهيها كل طموح

مثل هذه الدعوة التى ستعيش ، وسيكتب لها النصر والخلود ، وفى هذا الموقف الذى وقفه الرسول ﷺ تعليم للدعاة فى كل عصر أن يستمروا فى دعوتهم مُتَحَدِّين كل الصعاب ، ومُتَسَامِينَ فوق كل إغراء ، وذلك لأن المتاعب فى سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمائرهم وقلوبهم ، ورضا الله وجنته أعز وأغلى عندهم من كل مناصب الدنيا وجاهها وأموالها .

وخرجت قريش من هذه الإغراءات والمفاوضات بخيبة أمل كبيرة ، حيث أخفقت فى تعويق مسار الدعوة الإسلامية ، وأدركت بعد خوض هذه التجربة أن ما تصبو إليه بعيد المنال .

## سابعاً : التشنيع والدعاية وترويج الشائعات الكاذبة :

لقد كان ما بذلته قريش من جهود فى محاربة محمد ﷺ وصحبه ، وما ثابرت وصابرت السنين الطوال للقضاء عليه وعلى دعوته ، يعدو ما يتصوره العقل ، هددته وهددت أهله وأعمامه . تهكمت به وبدعوته ، وسخرت منه وممن اتبعه . أرسلت شعراءها تهجوه وتعرى أديمه . نالته بالأذى ونالت من أتباعه بالسوء والعذاب .

عرضت عليه الرشوة والملك وكل ما يطمع الناس فيه شردت أنصاره عن

---

(١) حياة محمد ﷺ « سابق » ص ١٤٤ .

(٢) الحديث السابق .

أوطانهم وأصابتهم فى تجارتهم وفى أرزاقهم . أنذرته وأنذرتهم بالحرب وأهوالها وما تجنى وما تدمر ، حاصرتهم لتقتلهم جوعاً إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

ومع ذلك ظل محمد ﷺ يشتد فى دعوة الناس بالحسنى إلى الحق الذى بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً .

أفآن لقريش بعد كل هذا أن تلقى سلاحها وأن تصدق بالأمين الذى عرفته منذ طفولته وكل صباه وشبابه أميناً ؟ .

كلا : لم يأن لها أن تذعن أو تسلم . إنها الآن أشد ما تكون خوفاً من انتشار دعوة محمد ﷺ بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكة .

وقد بقى لديها سلاح لَجأت إليه منذ الساعة الأولى ولا يزال لها فى قوته وفى مضائه مطمع ، ذلك سلاح الدعاية .

الدعاية بكل ما ينطوى عليه من مجادلة وحجج ومهاترة ، وترويج شائعات الدعاية على العقيدة وعلى صاحبها واتهامه فيها ، واتهامها لذاتها .

الدعاية التى لا تقف عند حدود مكة التى ليست بحاجة إليها كحاجة البادية وقبائلها وشبه الجزيرة وسائر أهلها . كان التهديد والإغراء والإرهاب بعض ما يغنى عن الدعاية فى مكة لكن لم تكن لتغنى عنها شيئاً عند الألوف الوافدة إلى مكة لأى غرض من الأغراض سواء للحج أو للتجارة أو لغير ذلك .

لذلك قام المشركون من أهل مكة بتحذير الوافدين إليها من الاجتماع برسول الله ﷺ أو الاستماع إلى كلامه ؛ لأنه فى زعمهم ساحر أو شاعر أو مجنون أو كاهن أو متقول كاذب .

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد من طريق شعبة عن الأشعث بن سليم ، عن رجل من كنانة قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا » وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب ، فإذا هو أبو جهل وهو يقول : يا أيها الناس لا يغرينَّكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى »[1] .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٣٧٦ ورجاله رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد ج ٦ ص ٣٢ .

وما رواه أيضاً :

عن إبراهيم بن أبى العباس عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : أخبرنى رجل يقال له ربيعة بن عباد من بنى الدئل — وكان جاهلياً فأسلم . قال رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول « ياأيها الناس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين (١) يقول : هذا صابىء كاذب — يتبعه حيث ذهب — فسألت عنه فقالوا هذا عمه أبو لهب »(٢).

كذا قال فى هذا السياق أبو لهب وفى الحديث الأول ذكر أبا جهل وقد يكون وهماً من الراوى ، ويحتمل أن يكون تارة ذا وتارة يكون ذا وأنهما كانا يتناوبان على إيذائه ﷺ .

وغير ذلك أمثلة كثيرة تدل على استخدام قريش لهذا السلاح — سلاح الدعاية الوقحة ضد الرسول ﷺ . لكنه « عليه الصلاة والسلام » لم يأبه ولم يعبأ بذلك واستمر يدعو الناس ليلاً ونهاراً وفى كل لحظة من لحظات حياته ، ولم يثنه عن ذلك شىء مما تفعله قريش ضده .

وهكذا فشلت قريش فى إبطال دعوة رسول الله ﷺ ومقارعة حجته بباطلهم فتقطعت بهم الأسباب ، وسقطت كل أسلحتهم التى استخدموها ضد الرسول ﷺ من تهكم وسخرية وتشويش وبطش ومساومة وجدل وغير ذلك . وذلك لأن رسول الله ﷺ قد استوثق بعقيدته ، ووثق بما يدعو إليه ، وأنه حق ، فإن هذه العقيدة فى حد ذاتها تؤتى نتائجها حقاً وصدقاً ، فالثقة والإيمان بما يدعو إليه نتائجها محققة ، وقد تجلى هذا فى رسول الله ﷺ ، حين وقف راسخاً أمام تحديات قريش ، ورفض كل محاولاتها اليائسة التى استخدمتها لصرفه عن مهمته الكبرى التى خلقه الله من أجلها .

---

(١) ذو غديرتين : الغدائر الذوائب ، واحدتها غديرة . قال الليث : كل عقيصة غديرة والغديرتان : الذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر وقيل الغدائر للنساء هى المضفورة والضفائر للرجال . وفى صفته ﷺ قدم مكة وله أربع غدائر ، هى الذوائب واحدتها غديرة اللسان مادة غدر .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ٤٩٢ الطبعة الثانية بمطبعة المكتب الإسلامى ببيروت ، والطبرانى فى الكبير ، والحديث رجاله ثقات « مجمع الزوائد ج ٦ ص ٣٢ » .

**ثامناً : المقاطعة الظالمة :**

وبعد أن استخدمت قريش الوسائل السابقة التى ألجأت الصحابة « رضوان الله عليهم » إلى الهجرة للحبشة ، وجدت أن كل هذه الوسائل قد باءت بالهزيمة ، ولم تنجح فى القضاء على محمد وأتباعه ، وراعها أن أنصار الإسلام يزدادون كل يوم ، وأنهم يجدون من يحقق لهم الأمن والقرار فى غير مكة ، وفكر زعماؤها فى هذا الخطب الجلل ، وانتهوا من تفكيرهم إلى قتل محمد ﷺ ، فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بنى هاشم ، وبنى المطلب ، فأمرهم فأدخلوا رسول الله ﷺ شِعبهم : شِعب بنى هاشم(١) ، ومنعوه ممن أرادوا قتله فأجابوه لذلك حتى كفارهم ، فعلوا ذلك حمية للرحم والقرابة على عادة أهل الجاهلية فى ذلك ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلَّا أبولهب بن عبد المطلب ، فقد انحاز إلى قريش ، فلما رأت قريش ذلك أجمعوا أمرهم ، وأتمروا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على أن لا يُنْكحوهم ولا ينكحوا إليهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

وكتبوه فى صحيفة بخط بغيض بن عامر وقال ابن هشام : بخط النضر بن الحارث ـــ فدعا رسول الله ﷺ على كاتبها . فشلت يده . وقال ابن إسحاق إن الصحيفة كتبت بخط منصور بن عكرمة . وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة .

قال ابن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلَّا سرا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ، وكان ممن يصلهم حكيم بن حزام ابن أخى السيدة خديجة ـــ رضى الله عنها ـــ وفى ذات يوم كان حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة وهى عند رسول الله ﷺ ومعه فى الشعب فقابله أبو جهل فتعلق به ، وقال له : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟! لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . فقال له أبو البحترى

---

(١) شِعب بنى هاشم : الشِّعب بكسر الشين كان منزل بنى هاشم غير مساكنهم ويعرف بشِعب ابن يوسف كان لهاشم « شرح المواهب اللدنية للشيخ محمد بن عبد الباق الزرقانى المالكى ج ١ ص ٣٢٣ والشِّعب الطريق فى الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

ابن هشام بن الحارث ــ وهلك كافراً ــ طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل فأبى أبو جهل حتى نال كل واحد منهما من صاحبه ، فأخذ أبو البحترى لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم ، ومع كل هذا فقد كان رسول الله ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهراً لا يتقى فى ذلك أحداً من الناس[1] .

## نقض الصحيفة

مكث بنو هاشم ، وبنو المطلب بالشعب ثلاث سنين حتى بلغ بهم الجهد مبلغه ، فقيض الله تعالى رجالاً من بنى عبد مناف ، ومن قصى ورجالا من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه ، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة[2] فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق ، ويقال كانت معلقة فى سقف البيت فلم تترك اسماً لله فيها إلّا لحسته[3] ، وبقى ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم ، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذى صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب ، فقال أبو طالب : لا والثواقب ما كذبنى ، فانطلق يمشى بعصابته من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك

---

(١) انظر السيرة النبوية لمحمد بن عبد الملك بن هشام ٢ / ٣ : ٥ ط شركه الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة ، البداية والنهاية ٣ / ٨٤ : ٨٦ ، الكامل فى التاريخ لعز الدين أبو الحسن على الشيبانى ابن الأثير ٢ / ٤٠ ، ٤١ ، شرح المواهب ١ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٥٠٢ : ٥٠٤..

(٢) الأرضة بفتح الهمزة والراء والضاد المعجمة دويبة صغيرة كالعدسة تاكل الخشب شرح المواهب ١ / ٣٣٧ .

(٣) وفى شرح المواهب أن الأرضة آكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم فلم تدع إلّا أسماء الله فقط كما ذكر ابن هشام وأماما ذكر ابن إسحق وابن عقبة وعروة بأن الأرضة لم تدع إسماً لله إلّا أكلته وبقى ما فيها من الظلم والقطيعة قال البرهان ما حاصله « وهذا أثبت من الأول فعلى تقدير تساوى الروايتين يجمع بأنهم كتبوا نسختين فأبقت فى إحداهما ذكر الله وفى الأخرى خلافه وعلقوا إحداهما فى الكعبة والأخرى عندهم فأكلت من بعضها اسم الله ومن بعضها ما عداه لئلا يجتمع اسم الله مع ظلمهم انتهى . شرح المواهب ج ١ ص ٣٣٧ .

وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ ، فتكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوعاً إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم ، فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نصف ، إن ابن أخى أخبرنى ـــ ولم يكذبنى ـــ أن الله برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى كما قال فأفيقوا فوالله لا نسلمه أبداً حتى يموت من عندنا آخرنا ، وإن كان الذى قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتم قالوا : قد رضينا بالذى تقول ـــ ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأتها قريش كالذى قال أبو طالب قالوا والله إن كان هذا قط إلّا سحر من صاحبكم فارتكسوا وعادوا بشر ما كانوا عليه ، فقال أولئك النفر من بنى عبد المطلب : إن أولى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون فإنا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهى فى أيديكم طمس ما كان فيها من اسمه وما كان فيها من بغى تركه ، أفنحن السحرة أم أنتم ؟ .

فقال عند ذلك النفر من بنى عبد مناف وبنى قصى ورجال من قريش ولدتهم نساء من بنى هاشم ، منهم أبو البحترى والمطعم بن عدى وزهير بن أبى أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو وكانت الصحيفة عنده وهو من بنى عامر بن لؤى ـــ فى رجال من أشرافهم ووجوههم : نحن برءاء مما فى هذه الصحيفة ، فقال أبو جهل لعنه الله : هذا أمر قضى بليل .

واضطرب الأمر بينهم وكثر القيل والقال ، فقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فشقها . وفى رواية : قام هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ، فلبسوا السلاح ، ثم خرجوا إلى بنى هاشم والمطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم .

ففعلوا ، وكان خروجهم من الشِّعب فى السنة العاشرة[1] .

**ومما ينبغى الإشارة إليه هنا :**

أن هذه القطيعة ، تصور قمة الشدة التى لقيها النبى ﷺ وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام ، وقد رأينا أن المشركين من بنى هاشم وبنى المطلب ، شاركوا المسلمين فى تحملها ، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ .

وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا ، فقد كان الذى دفعهم إليه حمية القرابة والرحم ، وإباء الذل الذى كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد ﷺ ومشركى قريش من غير بنى هاشم وبنى المطلب يقتلونه ويفتكون به ، بقطع النظر عن العقيدة والدين .

فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتين فى صدورهم :

**الأولى** : الثبات على الشرك والاستكبار على الحق الذى جاءهم به محمد ﷺ .

**الثانية** : الانصياع للحمية التى تدعو إلى حماية القريب من بطشه الغريب وظلمه ، بحق كان أو بباطل .

أما المسلمون ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، فإنما صبّرهم على ذلك الانصياع لأمر الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وَهَوَانُ الدنيا عندهم فى جنب مرضاة الله « عز وجل » ، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه .

قد نسمع بعض المبطلين من محترفى الغزو الفكرى ، يقولون :

إن عصبية بنى هاشم وبنى المطلب ، كانت تكمن خلف دعوة محمد ﷺ

---

(١) ابن هشام ج٢ ص١٧ : ١٩ ، البداية والنهاية ج٣ ص ٩٥ : ٩٧ ، الكامل فى التاريخ لعز الدين ابى الحسن على الشيبانى ٢ / ٤١ ، ٤٢ الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ، شرح المواهب ٢ / ٣٣٧ ، « سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد » للشيخ محمد بن يوسف الصالحى الشامى ٢ / ٥٠٥ ، ٥٠٦ سلسلة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى . بمطابع الأهرام التجارية .

وكانت تحوطها بالرعاية والحفظ !.. والدليل على ذلك موقفهم السلبى من مشركى قريش فى مقاطعتهم للمسلمين .

وللإجابة على ذلك يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى فقه السيرة : « وإنها لمغالطة مكشوفة ، لا يتماسك عليها حجاب أى منطق ولو كان صورياً . ذلك لأن من الطبعى جداً أن تقود الحمية الجاهلية بنى المطلب وبنى هاشم إلى الذود عن حياة ابن عم لهم ، عندما تتهددها يد غريبة ويدنو إليها بالسوء شخص دخيل . والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوى القرابة إلى مثل هذا التعصب ، لا تنظر إلى مبدأ ، ولا تتأثر فى ذلك بحق أو بباطل ، وإنما هى العصبية ولا شيء غير العصبية . ولذلك أمكن أن يجتمع فى ذوى قرباه ﷺ صفتان متناقضتان بحسب الظاهر : الاستكبار على دعوته والجحود بها ، والانتصار له ضد سائر المشركين من قريش .

ومع ذلك ، فأى فائدة حققوها للنبى ﷺ من وراء اعتصامهم معه ؟ لقد أوذوا كما أوذى هو وأصحابه ، ومضت قريش فى قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم وبنو المطلب من غلوائهما شيئاً .

والمهم أن نعلم بأن حماية أقارب رسول الله ﷺ له ، لم تكن حماية للرسالة التى بعث بها ، وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية ، من قبل المسلمين ، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم ، فأنعم بذلك من جهد مشكور ، وسبيل يتنبهون إليها .

أما رسول الله ﷺ ، ومعه أصحابه المؤمنون ، فما الذى كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق ؟ .. وأى غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات على الشدة ؟. بماذا يجيب على هذا السؤال ، أولئك الذين يتأولون رسالة محمد ﷺ وإيمان أصحابه به على أنها ثورة يسار ضد يمين أو ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين ؟ وللإجابة على ذلك أيضاً يقول الدكتور البوطى :

تصور هذه السلسلة من حلقات الإيذاء والتعذيب ، لرسول الله ﷺ

والمسلمين ، ثم أجب على ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهبها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الاقتصادية فيها ؟...

لقد عرض المشركون على محمد ﷺ الملك والثراء والزعامة ، على أن يتخلى عن الدعوة إلى الإسلام ، فلماذا لم يرض « عليه الصلاة والسلام » بذلك ، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه ـــ وإن غايتهم الشبع بعد الجوع ـــ كى يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون فى أيديهم والمال يكون فى جيوبهم .

ولقد قوطع محمد ﷺ ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بنى قومه ، فلم تترك سلعة تتسلل إلى أيديهم ، ولم يترك طعام يدخل إلى بيوتهم حتى راحوا يأكلون الشجر ، وهم على ذلك صابرون ، محدقون برسولهم « عليه الصلاة والسلام » أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدرة الثورة من أجل لقمة العيش ؟ ..

وعندما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ، وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه ، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة ، وقد تجردوا عن كل ما يتعلق به الطامعون فى المال ، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلاً ، ولا يقيمون وزناً لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم ، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟..

قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون ، ملاحظة الأمرين التاليين :

**الأول** : أن الجماعة الاولى من أصحاب محمد ﷺ فى مكة ، كانت على الأغلب من الفقراء والموالى والمضطهدين ، وهو يدل على أنهم ينفسون باتباعهم محمداً ﷺ عن شيء من كربهم ، وأنهم كانوا يتأملون مستقبلاً اقتصادياً أفضل لأنفسهم فى ظل الدين الجديد .

**الثانى** : أن هؤلاء الأصحاب ، ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا ، وأقبل إليهم الثراء والمال ، وهو دليل على أن خطة الرسول ﷺ كانت ترمى إلى تحقيق هذه الغاية .

وإذا تأملنا فى استدلالهم على ما يتصورونه ، بهاتين الملاحظتين ، أدركنا كم هو نصيب الخيال والوهم من عقولهم ومنهج تفكيرهم .

أما أن الجماعة من أصحابه ﷺ كانت على الأغلب من الفقراء والموالى ، فنعم ، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أى علاقة أو نسب ، إن شريعة تقضى بإرساء ميزان العدالة بين الناس ، وبالضرب على يد كل ظالم وطاغية ومستكبر، من المسلم به أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين استمرءوا حياة البغى والظلم ، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم ، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم ، بل كل إنسان ليس له فى تجارة البغى والاستغلال نصيب ، لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم ، أو لأنهم ــ على أقل تقدير ــ ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكاليفها .

إن معظم من كان حول رسول الله ﷺ ، كان مستيقناً أنه على حق وأنه نبى مرسل ، ولكن أرباب الزعامة وعشاق العظمة والسيطرة ، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الاستسلام لهذا الحق والتفاعل معه ، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعوقهم عن الاستسلام لشىء آمنوا به واستيقنوه .

فما العلاقة بين هذه الحقيقة التى يفهمها كل باحث ، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟ وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التى سلكها رسول الله ﷺ كانت تستهدف امتلاك المسلمين لمنابع الثورة، واستيلائهم على عروش الملوك واستلاب السيادة منهم ، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً إلى ذلك ــ فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق والمغرب ..

إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم وفارس ، فى حقبة يسيرة من الزمن ، بعد أن صدقوا الله فى إسلامهم ، أفيكون ذلك دليلاً على أنهم ما أسلموا إلّا طمعاً بعرش الروم والفرس ؟ .

لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول إلى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت ، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح .

لو كان عمر وهو يجهز جيش القادسية ويودع قائده سعد بن أبى وقاص ،

يستهدف كنوز كسرى ، ويسيل لعابه رغبة فى أن ينقلب فى مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه ، لما عاد إليه سعد إلّا بأثقال من الخيبة والهوان ، ولكنهم صدقوا الله فى الجهاد من أجل نصرة دينه ، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون .

لو كان الحلم الذى يراود المسلمين فى معركة القادسية ، وصولاً إلى ثروة وتقلباً فى نعيم وتحقيقاً للذائذ العيش ، إذاً لما دخل ربعى بن عامر « رضى الله عنه » سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التى غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه على البسط والنمارق الفاخرة حتى أفسدها ، ولما قال لرستم : إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم !.

أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك والأرض والمال ؟ .

لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها ، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها ، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً إلى تحقيق مرضاة الله .

ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا إلى شيء منها . المسألة بما فيها ليست إلّا تحقيقاً للقانون الإلهى الذى يقول : ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾[1] وإن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل أى عقل كان ، بشرط واحد ، هو أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأى رغبة أو غرض[2] .

**ثانياً** : إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر ، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق ، ابتكروا وسائل أخرى ، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائى ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة[3] .

* * *

---

(١) سورة القصص آية رقم ٥ .

(٢) فقه السيرة للبوطى ص ٩٥ : ٩٨ .

(٣) « السيرة النبوية » للشيخ مصطفى السباعى ص ٦٠ .

# الباب الثَّانى

## هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة

الفصل الأول : الهجرة الأولى وما وقع فيها .

الفصل الثانى : الهجرة الثانية وما وقع فيها .



# الفصـــل الأول

## هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة

وبعد أن فشلت قريش فى محاولاتها للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وجدت أنه لا مناص من الاستمرار فى وسيلة التعذيب والاضطهاد ، عسى أن تنجح فى التخلص من هذا الدين ، فصبت جام غضبها على المؤمنين ، وضاعفت من تعذيبهم واضطهادهم لدرجة أن أصبحت حياتهم فى مكة شقاء متصلاً .

فحزن الرسول ﷺ لتلك المآسى التى تقع على المسلمين من أصحابه ﷺ وهو عاجز عن كفها ، فكان لا بد من البحث عن حل لهذه المشكلة التى تواجه المسلمين ، ولم يكن هناك طريق لإنقاذهم من أيدى هؤلاء العتاة إلّا الهجرة ولكن إلى أى أرض يهاجرون . لا بد من أرض تتوفر فيها الحرية ، وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيها من قريش ــ تلك القبيلة التى لها مكانة مرموقة بين القبائل ــ وتحت سلطان حاكم لا يؤذيهم ، ولا يمكن أحداً من إيذائهم . حتى يكونوا فى بعد عن الاضطهاد واحتماله .

ولا يتوفر كل ذلك إلّا فى أرض الحبشة . فهى بعيدة عن سطوة قريش . وهى لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل . وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهر . لذلك أشار رسول الله ﷺ عليهم بالهجرة إليها(١) وأمر الرسول هذا لأصحابه مستمد من نحو قوله تعالى(٢) :

---

(١) « خاتم النبيين » للأستاذ الدكتور محمد أبو زهرة ج ١ ص ٤٠٥

(٢) « جوامع السيرة » لابن حزم الأندلسى ص ٤٤ بتصرف .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١] .

فهذه الآية الكريمة كما يقول ابن عباس يراد بها جعفر بن أبى طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة[٢]، والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة[٣] .

واستجاب المسلمون لأمر الله وأمر رسوله فهاجروا إلى الحبشة .

## وقت خروجهم إليها :

خرج الصحابة « رضوان الله عليهم » إلى الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية وكانوا عشرة رجال ، وأربع نسوة ، وقيل : وخمس نسوة ، وخرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار[٤] .

## أسماء الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى :

أما الرجال فهم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وأبو حذيفة بن عتبة ، ومصعب بن عمير ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة ، وسهيل بن بيضاء ، وأبو سبرة بن أبى رهم العامرى ، قال ابن إسحاق : ويقال بدله حاطب بن عمرو العامرى . ثم قال ابن إسحاق أيضاً فهؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى الحبشة . قال ابن هشام : وبلغنى أنه كان عليهم عثمان بن مظعون . وأما النسوة فهن رقية بنت النبى ﷺ ، وسهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة ، وأم سلمة بنت أبى أمية امرأة أبى سلمة ، وليلى بنت أبى جثمة امرأة عامر بن ربيعة ، وأم كلثوم بنت سهل بن عمرو ابن عبد شمس امرأة أبى سبرة بن أبى رهم[٥].

---

(١) سورة الزمر آية رقم ١٠ .

(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٥٦٨٤ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل . لمحمد بن أحمد بن الجوزى الغرناطى المالكى ٣ / ١٩٢ ط دار الكتب الحديثة .

(٤) فتح البارى ٥ / ٣١ .

(٥) فتح البارى ج ١٥ ص ٣١ ، ٣٢ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٦ ، ٩٧ .

**استقبال النجاشي للمهاجرين من المسلمين :**

ولما وصل المسلمون إلى الجبشة أكرم النجاشي مثواهم ، وأحسن لقاءهم ، ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهليهم .

روى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت :

« لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار ـــ النجاشي ـــ أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤذَى ولاَ نسمع شيئاً نكرهه »(١) .

**رجوع مهاجرى الحبشة إلى مكة وسببه :**

واستمر المسلمون المهاجرون فى الحبشة ينعمون بالاستقرار والأمن والحرية التامة فى تأدية عباداتهم دون حدوث أية مضايقات لهم من أحد ، وذلك بسبب ملكها الذى أكرمهم غاية الإكرام ، ولم يمكث المهاجرون بها سوى ثلاثة أشهر ، فقد خرجوا إليها فى رجب وأقاموا بها شعبان ورمضان ، ورجعوا فى شوال من سنة خمس(٢)، وكان سبب رجوعهم مانمي إليهم من أن المسلمين يزدادون قوة وأنهم يمكنهم أن يعيشوا فى مكة دون أن تَقْدِر الجاهلية بصلفها وحمقها على أن تسيء إليهم أو تنال منهم فقد أسلم من الرجال من تهابه قريش وله بينها منزلة رفيعة وشأن مرموق ؛ فرجعوا إلى مكة .

ولكن الجاهلية سرعان ما انطلقت مسعورة غيرعابئة بمن أسلم من رجالاتها تسوم المؤمنين صنوف العذاب الأليم ، لا يردعها رادع من دين ولا يزجرها زاجر من خلق أو رحم .

**قصة الغرانيق وتفنيدها :**

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما ذكره بعض المفسرين من أن سبب رجوع

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ورجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) فتح البارى ج ١٥ ص ٣١ .

مهاجرى الحبشة إلى مكة يرجع إلى قصة باطلة مختلقة تعرف بقصة الغرانيق(١) ، وأن الله أنزل بسببها قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾(٢).

## رواية باطلة فى سبب نزول هذه القصة :

قال الحافظ فى « الفتح » أخرج ابن أبى حاتم والطبرى وابن المنذر من طرق عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة ﴿ **وَالنَّجْمِ** ﴾ فلما بلغ : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى** ﴾ ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ، فنزلت هذه الآية . وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال فى إسناده عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس فيما أحسب ثم ساق الحديث . وبعد أن ذكر الحافظ من خرج هذه القصة ومنهم ابن إسحاق فى سيرته عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب ، والطبرى من طريق العوفى عن ابن عباس . قال وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع ، ثم يقول : لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين ، أحدهما : ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد عن ابن شهاب ، والثانى : ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان وحماد بن سلمة فرقهما عن داود بن أبى هند عن أبى العالية(٣) .

## تفنيد هذه القصة الباطلة :

وقد أنكر هذه القصة جمهور علماء الإسلام القدامى والمحدثين بل ورفضوها

---

(١) الغرانيق : المراد بها ههنا الأصنام ، وهى فى الأصل الذكور من طير الماء ، واحدها غرنوق وغرنيق ، سمى به لبياضه ، وقيل هو الكُرْكِيُّ . والغُرْنُوق أيضاً الشاب الناعم الأبيض وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم ؛ فشبهت بالطيور التى تعلو فى السماء وترتفع . النهاية ج ٣ ص ١٦٠ .

(٢) سورة الحج آية : ٥٢ .

(٣) فتح البارى ج ١٨ ص ٤١ ، ٤٢ بتصرف .

بشدة جملة وتفصيلاً ، وذلك لأنها تتنافى وعصمة رسول الله ﷺ بل وتطعن فى نبوته « عليه الصلاة والسلام » .

وأكتفى هنا بذكر نص واحد أراه كافياً وافياً فى تفنيد هذه القصة ، وهو للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة فى كتابه « السيرة النبوية » حيث يقول :

« وإنى لأجيب على ما ذكره الحافظ ابن حجر فى « الفتح » وتابعه عليه غيره ، بما يأتى :

١ ــ أن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابى وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة ، وعلى الثانى فلا يؤمن أن يكون كذاباً ، وقد قرر الإمام مسلم هذه الحقيقة فى مقدمة صحيحه فقال : « والمرسل من الروايات فى أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة »[١] وقال ابن الصلاح فى مقدمته : « وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه ، هو المذهب الذى استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث ونقاد الأثر ، وتداولوه فى تصانيفهم ، والاحتجاج به مذهب مالك وأبى حنيفة وأصحابهما ــ رحمة الله عليهم ــ فى طائفة[٢] ، وأما الشافعى فيحتج به بشروط ذكرها فى « الرسالة » فى أواخر باب « خبر الواحد »[٣] وقد نقلها العراقى فى شرح ألفيته .

٢ ــ الاحتجاج بالمرسل إنما هو فى فروع الدين التى يكتفى فيها بالظن ، أما الاحتجاج به على شىء يصادم العقيدة ، وينافى دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به فى العقائد لأنه لا يكفى فيها إلّا بما يفيد اليقين ، فما بالك بالضعيف أو المختلف به .

٣ ــ هذا التأويل الذى ارتضاه الحافظ وغيره ممن تابعه قديماً وحديثاً ما أضعفه عند النظر والتأمل فهو يوقع القائل به فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبى ، فالتسلط عليه بالمحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه كلاهما

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٢٤ .

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٠ ، ١٤١ ط دار الكتب ١٩٧٤ تحقيق د . عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٨

لا يجوز ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات . وإذا سلمنا أن الشيطان هو الذى نطق بهذا المنكر من القول فى أثناء سكوت النبى فكيف لم يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا كان سمعه فلم لم يبادر إلى الإنكار ، والبيان فى مثل هذا واجب على الفور ؟ .

وإذا لم يسمع النبى ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا فلم لم يبادروا إلى تنبيه الرسول ؟ وأهون من هذا فى الإبطال وأشد فى الاستغراب ما ذكره موسى بن عقبة فى مغازيه من أن المسلمين ما سمعوها وإنما ألقى الشيطان بهذه المقالة فى أسماع المشركين فهل كان الشيطان يسر بها فى آذان المشركين دون المسلمين ؟ ثم كيف يتفق هذا الذى اختاروه وما روى من أن النبى حزن حزناً شديداً وأن جبريل قال له : ما جئتك بهذا ؟ .

الحق أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون وحاولوا إثبات أن لها أصلاً مهلهلاً متداعياً لا يثبت أمام البحث ، وأن أغلب البلاء دخل على الإسلام من المنقطعات والمراسيل ثم يقول إن هذه القصة مخالفة لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾(1) ومن أحق بهذه العبودية من الأنبياء بله رسول الله ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾(2) وأى بشر أصدق إيماناً وأشد توكلاً على الله من الأنبياء ، ولا سيما خاتمهم ﷺ ، وقد أقر رئيس الشياطين بأنه لا سلطان له على عباد الله المخلصين فقال ما حكاه الله عنه فى قوله عز وجل : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾(3) .

ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء ؟ أو من أشد فى إخلاصهم منهم لله ؟ ونبينا محمد على رأس المصطفين الأخيار ، وفى الذروة منهم إخلاصاً لله ، فهؤلاء الزنادقة الحاقدون على الإسلام ونبيه نسبوا إلى الشيطان ما أقر هو بأنه لا قبل له به ، ووضعوا هذه الروايات الباطلة التى تصادم نص القرآن الذى لا ريب فيه .

---

(1) الحجر آية ٤٢ .
(2) النحل آية ٩٩ .
(3) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

ثم قام بإبطال القصة بطريق العقل والنظر ، فقال : وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر فقد قام الدليل العقلى القطعى وأجمعت الأمة على عصمته « عليه الصلاة والسلام » من مثل هذا ، وكل ما جاءت به الروايات الباطلة ممتنع فى حقه أن يقوله من قبل نفسه عمداً ، أو سهواً ، وهو فى اليقظة أو هو وسنان لمكان العصمة منه ؛ قال القاضى عياض : « وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً ، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقيه الشيطان ، أو يكون للشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه ، قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿ **إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** ﴾[(٢)] .

ولو جوزنا شيئاً من ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء ، ووجد المارقون سبيلاً للتشكيك فى الأديان ، ووجه آخر لفساد هذه القصة ، وهو أن الله « تعالى » ذم الأصنام فى سورة النجم وأنكر على عابديها وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وأن التمسك بعبادتها أوهام وظنون ، قال تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى** ﴾[(٣)] فقد جاءت الآيات على هذا الأسلوب الإنكارى ، والتوبيخى ، التهكمى بالأصنام وعابديها ، وقال بعد الموضع الذى زعموا أنه ذكرت فيه الفرية : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى** ﴾[(٤)] فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بينها وبين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظم مفككاً ، والكلام متناقضاً ، وكيف يطمئن إلى هذا التناقض السامعون وهم أهل اللَّسَن والفصاحة ، وأصحاب عقول لا يخفى عليهامثل هذا ، ولا سيما أعداؤه الذين يتلمسون له العثرات والزلات ، فلو أن ما روى كان واقعاً لشغب عليه المعادون له ، ولارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولثارت ثائرة مكة ولاتخذ منه اليهود

(١) سورة الحاقة ايات ٤٤ : ٤٧ .
(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧٥ .
(٣ ، ٤) سورة النجم آيات رقم ١٩ : ٢٣ .

بعد الهجرة متكأ يستندون إليه فى الطعن على النبى ﷺ والتشكيك فى عصمته ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

ووجه ثالث : وهو أن بعض الروايات ذكرت أن فيها نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِى عَلَيْنَا غَيْـرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾(١) وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ـــ؛ لأن الله ذكر أنهم كادوا يفتنونه ، ولولا أن ثبته لكاد أن يركن إليهم ، ومفاده أن الفتنة لم تقع وأن الله عصمه وثبته حتى لم يكد يركن إليهم ، فقد انتفى قرب الركون فضلاً عن الركون ، فالأسلوب القرآنى جاء على أبلغ ما يكون فى تنزيه ساحته ﷺ عن ذلك ، وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون ، بل افترى بمدح آلهتهم ، وهذا ينافى ما تدل عليه الآية ، وهو توهين للخبر لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ ولقد طالبته ﷺ ثقيف وقريش إذا مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كاد ليفعل ! .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهى مخالفة للقرآن ، ولما قام به الدليل العقلى فلا جَرَم أن التحقيق يدعونا إلى أن نصدع بأن حديث الغرانيق مكذوب اختلقه الزنادقة الذين يريدون إفساد الدين ، والطعن فى سيد الأنبياء ، وإمام المخلصين(٢) .

* * *

---

(١) سورة الإسراء ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) « السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة » للدكتور محمد محمد شهبة ج ١ ص ٣٨٠ : ٣٨٥ ط . دار الكتب المحمدية .

# الفصـل الثانى

## هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة

لما قدم المسلمون من الحبشة إلى مكة قابلهم قومهم بصب الأذى والعذاب الشديد عليهم ، بل اشتدوا فى ذلك عن ذى قبل ، فعندما رأى المسلمون ذلك خرجوا إلى الحبشة مرة أخرى ، وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم ، وعدتهم نحو من ثمانين رجلاً كما روى الإمام أحمد بن حنبل ، فقد روى بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلاً »[1] وقد أقام المهاجرون بخير دار إلى خير جار آمنين على أنفسهم ، ودينهم حتى أراد الله لهم الأوبة .

### قريش تحاول الوقيعة بين المسلمين والنجاشى[2] :

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ أصبحوا فى مأمن من بطشهم ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنجاشى لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة ، إلّا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدرى .

فقد أسفرت مكيدته عند النجاشى عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين وهو جعفر بن أبى طالب ، وبين ملك الحبشة أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشى ، وتأمين المسلمين المهاجرين عنده .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٤٦١ ، حديث إسناده جيد قوى وسياقه حسن ، انظر « البداية والنهاية » لابن كثير ج ٣ ص ٦٩ ، وقال ابن حجر فى الفتح : إسناده حسن ج ١٥ ص ٣٢ .

(٢) النجاشى :اسم ملك الحبشة وغيره . والياء مشددة ، وقيل الصواب تخفيفها . النهاية ج ٤ ص ١٢٨ .

فعن أم سلمة « رضى الله عنها » قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا ، وعبدنا الله وحده ، لا نؤذى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين . وأن يهدوا للنجاشي هداياً مما يستطرق من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم(١) ، فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقته (٢) بطريقاً إلّا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومى وعمرو بن العاص بن وائل السهمى وأمروهما أمرهم . وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم . ثم قدموا للنجاشي هداياه ، ثم اسألوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا فقدما على النجاشي ، ونحن عنده بخير جوار ، وعند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلّا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، ثم قالا لكل بطريق منهم : إنه قد صبأ(٣) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما

---

(١) الأدم . بالضم ما يؤكل مع الخبز أى شيء كان . النهاية ج ١ ص ٢١ .

(٢) قال صاحبا القاموس وتاج العروس : البطريق ككبريت القائد من قواد الروم وهو معرب قيل بلغة الروم والشأم ، ويقال إنه عربى وافق العجمى وهى لغة أهل الحجاز ، ويقال إن البطريق هو القائد تحت يده عشرة آلاف رجل ، وقيل البطريق هو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم وهو ذو منصب ، وقد يقدم عندهم . قلت هو بالرومية بترك كما قاله الجواليقى وغيره ، وقيل البطريق الرجل المختال المزهو عن ابن عباد وغيره . تاج العروس ج ٦ ص ٢٩٦ للسيد محمد مرتضى الزبيدى ط دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م الناشر دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازى مادة « بطرق » .

(٣) صبا إلى بلد الملك : أى مال إلى بلد الملك ـــ لسان العرب عدد ٢٧ ص ٢٣٩٨ بتصرف ، « المفردات فى غريب القرآن » لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ص ٢٧٤ بتصرف ط مصطفى الحلبى .

عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم . فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردوهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ، ثم قال : لاها(١) الله ، أيم(٢) الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد(٣) قوماً جاوروني ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان ، أسلمتهم لهما ، ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني(٤) .

## حوار بين جعفر والنجاشي :

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول ، والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته(٥) ، فنشروا مصاحفهم(٦) حوله ، سألهم فقال : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأمم ؟ .

---

(١) لاها الله ــ أي لا والله فالهاء بدل الواو .

(٢) أيم الله : من ألفاظ القسم كقولك لعمر الله وعهد الله وفيها لغات كثيرة ، وتفتح همزتها وتكسر وهمزتها وصل . وقد تقطع . وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها جمع يمين وغيرهم يقول هي اسم موضوع للقسم . النهاية ج ١ ص ٥٤ .

(٣) أكاد : من الكيد وهو الاحتيال والاجتهاد وإرادة السوء ، وبه سمي الحرب كيداً المفردات ج ٤ ص ٤١ بتصرف .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٢٠٢ ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ٦ / ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) أساقفته : الأسقف هو العالم والرئيس من علماء النصارى ورؤسائهم . وهو اسم سرياني ويحتمل أن يكون سمي به لخضوعه وانحنائه في عبادته . والسقف في اللغة طول في انحناء ــ النهاية ٢ / ١٦٩ .

(٦) مصاحفهم : مفردها مصحف والمصحف ما جُعِلَ جامعاً للصُّحُف المكتوبة ــ المفردات ٢٧٥ .

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش(١) ، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، يأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ـــ فصدقناه ـــ وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا اللهوحده فلم نشرك به شيئاً . وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألّا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقْرَأْه عَلَيّ ؟

فقرأ عليه صدراً من « كهيعص » ، قالت : فبكى والله النجاشى ، حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشى : إن هذا والله والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة(٢) واحدة ، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد(٣) .

---

(١) الفواحش : الفُحْشُ والفحشاء والفاحشة ما عَظُمَ قُبْحه من الأفعال والأقوال ـــ المفردات ص ٣٧٤ .

(٢) المشكاة : الكُوَّة غير النافذة ، وقيل : هى الحديدة التى يعلق عليها القنديل ـــ أراد أن القرآن والتوراة كلام الله « تعالى » وأنهمامن شيء واحد ـــ النهاية ج ٤ ص ٩٦ .

(٣) المسند ١ / ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

## محاولة ثانية للدس بين المهاجرين والنجاشي :

فلما خرج كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من عند النجاشي قال عمرو بن العاص : والله لأنبئنهم غداً عيبهم عندهم ، ثم أستأصل به خضراءهم(١) ، قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ــ وكان أتقى الرجلين فينا ــ لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ، قالت ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم يسألهم عنه ــ قالت : ولم ينزل بنا مثله ، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه ؟ .

قالوا : نقول ، والله فيه ، ما قال الله ، وما جاء به نبينا كائناً فى ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ .

فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ــ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت(٢) بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي « والسيوم الآمنون » من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، فما أحب أن لى دبراً ذهباً ، وإنى آذيت رجلاً منكم ، والدبر بلسان الحبشة الجعل ، ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لنا بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار(٣) .

---

(١) استأصل به خضراءهم : أى أقضى به على دَهْمَائهم وَسَوَادهم ــ النهاية ١ / ٣٠٠ .

(٢) تناخرت بطارقته : أى تكلمت وكأنه كلام مع غضب ونفور ــ النهاية ٤ / ١٣٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ / ٢٠٣ ورجاله رجال الصحيح ، انظر مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢٤ ، ٢٥ .

وفى هذه الحادثة عبرة للمتصدين للدعوة الإسلامية ، فيعتبرون بما فيها من أخلاق إسلامية ، مثل الالتزام بجانب الصدق فى دعوتهم ، وعدم التحريف فيها ، أو تغيير بعض منها ، أو المداهنة تبعاً لأهواء الساسة وغيرهم ، كما يجب عليهم المجاهرة بالحقائق الإسلامية ، غير مبالين فى ذات الله لومة لائم .

**وقفة مع هذه الأحداث السابقة :**

**أولاً** : إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد ، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم فى معتقداتهم ، وسمو نفوسهم وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضمير واطمئنان النفس والعقل ، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد .

إن السيطرة فى المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة ، وبهذا تنتصر الدعوات . وبهذا تتحرر الجماهير من الظلمات والجهالات(١) .

**ثانياً** : لقد كانت الفترة المكية مرحلة صهر للإيمان والعزائم ، وقبول التحدى إلّا أن رسول الله ﷺ لم يكن يسمح لإيمان أصحابه أن يتعرض لأدنى ضعف ، أو لثقتهم فى نصر الله أن تتعرض لأدنى فتور ، أو لطاقة احتمالهم أن تتعرض لأدنى اهتزاز . وحتى فى أحلك الظروف وأشدها بلاءً ، كان صلوات الله عليه يشد من عزائمهم ، ويحول بينها وبين أن تتعرض لشيء من الخور .

كان يمر بآل ياسر وهم يعذبون ، بل يصب العذاب على أبدانهم صباً ، فلم يقل لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم النصر » وإنما كان يقول لهم « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » وهذه لمحة يجب أن نتأملها طويلاً ، فكأن رسول الله « صلوات الله وسلامه عليه » لم يشأ أن يمنيهم بالنصر الذى ينهى بلاءهم ، وإنما أرادهم أن يستعذبوا البلاء حتى الموت ، الذى يضع حداً لمحنتهم ، والجنة فى

---

(١) « السيرةالنبوية » للدكتور مصطفى السباعى ص ٥٧ .

انتظارهم حيث ينعمون فيها بمقام أعلى للشهداء .

وهكذا : فقد لمس الرسول ﷺ من رغبة أصحابه فى الدعاء على الأعداء آثار الضعف ، فتدارك إيمانهم أن يتعرض للاهتزاز ؛ لذلك رفض فكرة الدعاء على الأعداء فى مثل هذا المقام ؛ مع أنه « عليه السلام » فى غير هذا المقام دعا على الأعداء أكثر من مرة . حتى ينتصر أتباعه بإيمانهم . ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ .

وهنا لمحة يجب أيضاً أن نتأملها طويلاً :

أكان أصحاب رسول الله ﷺ يتعجلون آية خارقة من الله « سبحانه وتعالى » ، تضع حداً لما هم فيه من محنة وبلاء ؟ فقد عرفوا قصص أصحاب الدعوات قبلهم ، وأن الله « سبحانه وتعالى » قد أجرى آيات خارقة على أعدائهم ، هذه الآيات كما وضعت حداً لجبروت الأعداء الطغاة ، وضعت فى نفس الوقت حدّاً لابتلاء أصحاب الدعوات وذلك كالطوفان فى عهد نوح ، والريح العاتية فى عهد هود ، والطاغية فى عهد صالح ، والغرق وغيره فى عهد موسى ...

لكن فى عهد محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فقد رجا محمد نفسه ربه ، ألّا يُهْلِكَ قومه بآية عامة ، إنه عليه السلام ، يريد لدعوته أن تشق طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة بالدليل القاطع ، والحجة الدامغة » .

إن الفترة المكية كانت فترة صهر للإيمان ، وامتحان للعزائم ، إذن فليصبر أتباع الدعوة ولا يعتمدوا على آية خارقة من السماء بل على الإيمان وحده .

إن الآية الخارقة قد تضع حداً لابتلائهم ، وحداً لجبروت أعدائهم ، ولكنها لن تسجل للفئة المؤمنة أدنى صفحة من صفحات البطولة بين دفتى التاريخ[1] .

**ثالثاً** : لم يكن معقولاً أن يظل هؤلاء الضعاف نهباً للآلام والحسرات ليسومهم المجرمون سوء العذاب والرسول « صلوات الله وسلامه عليه » ينظر إليهم ، ولكنه لا يملك لهم شيئاً . فهل من وسيلة تنقذ هؤلاء من الفتنة ؟ ألم يجعل

---

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق ص ١٥٧ : ١٦٠ .

الله من الهجرة سبيلاً إلى تحرير النفوس من الشر والفرار بالإيمان إلى أرض طيبة وجوار صالح ؟ لقد فكر صلوات الله وسلامه عليه ثم قدر .. فكر فى أن يأذن لهم بالارتحال إلى أرض الحبشة ليجدوا متنفساً من ذلك الضيق .. وليمارسوا عبادة ربهم دون أن يجدوا ما يصدهم عنها أو يفتنهم فيها .. لذا أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إليها(١) لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ـــ حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه . ومن هنا ينبغى على الداعية فى أى زمان إذا وجد جماعته فى خطر على حياتهم أو معتقداتهم من الفتنة ، أن يهىء لهم مكاناً يأمنون فيه من عدوان المبطلين ويضمنون استمرار دعوتهم وانتشارها ، وإلا عرض جماعته ودعوته لخطر لا يعلم مداه إلا الله . ولا ينافى ذلك ما على دعاة الحق من تضحية .

**رابعاً** : وقد يتبادر إلى الذهن سؤال فحواه ، لماذا لم يذهب النبى مع من هاجر إلى الحبشة ؟ وللإجابة عن ذلك يقول الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاتة فى كتابه « دراسات فى تاريخ العرب » لأنه ﷺ كان أكثر صبراً واحتمالاً ممن هاجر ، وفضل أن يبقى فى مركز الدعاية ليقضى على الوثنية ، كما أنه وجد من أبى طالب حماية تمنعه من قريش ، ثم إن الوحى لم يأته بعد بالإذن فى الهجرة ـــ وتعتبر الهجرة إلى الحبشة أول هجرة كانت فى الإسلام .

### ولماذا لم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية أو إلى أى موطن من مواطن أهل الكتاب ؟ وفضل الهجرة إلى الحبشة :

ويجيب عن ذلك الدكتور عبد الفتاح شحاتة فى كتابه السابق فيقول :

« لم يوجه رسول الله ﷺ المسلمين للهجرة إلى إحدى القبائل العربية ؛ لأنها كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج ، تمسكاً بدينها الوثنى ، أو مجاملة لقريش . كذلك لم يفكر فى الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين فى يثرب ونجران وغيرهما ؛ لأن كلاً من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى

---

(١) « أضواء على الهجرة » للشيخ توفيق محمد سبع ص ١٥٤ ط من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية . طبع بمطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً ، خصوصاً إذا كان من العرب أنفسهم الذين يحتقرونهم ويقولون عنهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾(١) أما اليمن ــ وهى مستعمرة للفرس المجوسيين ــ فلم يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها ، وقد برهن المستقبل على بعد نظره ، وذلك حينما كتب كسرى إلى باذان عامله على بلاد اليمن يقول له : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتيانى به . وفضلاً عن هذا فقد كانت للقرشيين الوثنيين علاقات تجارية ببلاد العرب الجنوبية الخاضعة إذ ذاك للفرس .

هذا إلى جانب وجود اليهودية والمسيحية فيها ــ كما كانت فارس عدواً قديماً للدول المسيحية وخاصة الحبشة . وكان هوى المكيين مع الفرس .

وآية ذلك أن القرشيين حينما انتصر الفرس على الروم فى سورية سنة ٦١٤ م تلقوا هذا النبأ بالبشر والابتهاج ، وشمتوا بالروم وسخروا من مسلمى مكة بدعوى أن كلاً منهما أهل كتاب ، وتربصوا بهم هزيمة كهزيمة الروم ، وقد تأثر المسلمون لهذا ، فوعدهم الله بأن النصر والغلبة ستكون للروم أخيراً :

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) .

ولم يتجه التفكير إلى الحيرة أو الغساسنة بالشام مثلاً ، لبعدهما ، كما أنه كان لقريش بهما صلات تجارية وزيارات فى أوقات منتظمة ، فإذا علمت قريش بوجودهم هناك فإنها تطلب إلى أهل ذلك البلد إعادتهم إليهاويخرجونهم ، كما حاولت ذلك مع النجاشى ، ومن ناحية أخرى فإن الحيرة والغساسنة كانتا تابعتين لدولتى الفرس والروم . فكيف يحمون ديناً يغاير دين سادتهم ، ومن ناحية ثالثة فإنهم عرب يأنفون من رجل عربى أن يسلب عنهم نفوذهم(٣) .

---

(١) آل عمران ٧٥ .

(٢) سورة الروم آيات ٢ ــ ٥ .

(٣) « دراسات فى تاريخ العرب وصدر الإسلام » للدكتور عبد الفتاح على شحاتة القسم الثانى ص ٦٤ ، ٦٥ ، ط بمطبعة المدنى .

أما اختيار بلاد الحبشة دار هجرة . فمن الممكن أن يكون بسبب تيسر السفر إليها ، ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحرى وظروفه ، وهو لا شك يمت بسبب إلى ما كان من التقارب الدينى بين المسلمين وأهل الكتاب من النصارى ، وإشارة الإنجيل إلى رسالة النبى ﷺ .

بل وإنه ليخطر بالبال أن يكون للنبى أمل فى وجود مجال للدعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل .

فمن الممكن أن يكون من أهداف هذه الرحلة بجوار أنها فرار من الفتنة والخلاص من الظلم ، هدف آخر سياسى ، هو شرح قضية الإسلام وموقف قريش منه ، وإقناع الرأى العام بعدالة هذه القضية . على نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسى لشرح قضاياها وكسب الرأى العام إلى جوارها ، وقد كان النجاشى فى ذلك الوقت رجلاً محايداً ، فيه من لطافة الحس وحصافة العقل وقوة الشخصية ، ما يجعل له وزناً عالمياً خاصاً ، وبخاصة وأنه راعى المسيحية مما يجعل لاستقطابه إلى قضية الإسلام قيمة كبرى ، ولسنا نريد أن نطمع فى إسلامه ، بل فقط فى كسب ثقته ضد قريش ، لأنه صاحب دين سماوى وكتاب مقدس !! فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسيحية على عهده لم تكن صافية الجوهر كما أرادها الله ، وكما بلغها المسيح .. وإنما لوثتها أطماع القسس ، وأضافت إليها ما ليس منها .. كالتأليه لمريم ولعيسى .. وداخلتها الوثنية مما يجعلها غير قادرة على الصمود .. أو على الأقل مما يجعل رجلاً كالنجاشى يقتنع بالإسلام حين يُعرض عليه ديناً سماوياً نظيفاً بعيداً عن الدس والتحريف . ولم يكن هناك خوف على المسلمين من تلك المسيحية المحرفة التى داخلتها الأطماع والوثنيات ؛ فإن الرجال الذين رباهم محمد على التوحيد ، وشرح لهم قضية الإيمان ، وغرس حقائقه فى نفوسهم ـــ لم يكونوا ليستبدلوه بمسيحية مهلهلة !!.

لذلك فمن الممكن أن نقول بأنه كان من أهداف هذه الهجرة هدف سياسى بجوار هدف الإيواء الذى أشار إليه الرسول بقوله « حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » . ومما يرجح ذلك أنه قد تم احتكاك شديد بالفعل بين الوثنية المجرمة ـــ وبين الإسلام أمام النجاشى فى بلاطه .. حيث تم فتح حوار أمامه مع جعفر بن أبى طالب فى مواجهة وفد قريش الذى جاء بالهدايا والتحف ليستميل النجاشى

وبطارقته .. فيسلم اللاجئين المسلمين !! ولقد كان من ثمار هذا الحوار أن اقتنع النجاشي بالدعوة . وقيل إنه اعتنقها وسخا فى الكرم والمعاملة الحسنة للمسلمين الذين لاذوا بجواره ، وقد أثارت هذه المعاملة الكريمة بعض أتباعه من المتعصبين . ثم طرد وفد قريش ورده خائباً .. أكان هذا الكسب السياسى متوقعاً ؟ أكان مخططاً له قبل الهجرة ؟ أياما كان فقد جاءت هذه الهجرة بأكثر مما كان يتوقع لها .. حيث وطدت للإسلام ركناً قوياً فى تلك الأرض البعيدة ، وضمت إلى صف المسلمين رجلاً له خطره السياسى وهو النجاشى ، وهذا فى ذاته أروع كسب وأعظمه ، ولا يبعد أن يكون الرسول قد أراد للدعوة أن تكسب أصدقاء محايدين ليجعل لها رصيداً من القوة أمام جبروت قريش وطغيانها ، أو على الأقل يقلل الوطأة عن ضعاف المسلمين ، وهذا الهدف زائد على أصل الإيواء .

وهذه الهجرة لم يكن القصد منها أن تلاقى الدعوة مقراً جديداً تنتشر فيه ومنه ، بل كان الهدف منها الإيواء مضافاً إليه ذلك الكسب السياسى الجليل !! أما أن تكون أرض الحبشة مقراً للدعوة وحصناً لها فذلك ليس معقولاً لأسباب :

**أولاً** : لأن هذه الهجرة كانت مؤقتة بوقت معين ، حتى يجعل الله للصحابة فرجاً من الضيق ولم تكن هجرة للإقامة الدائمة .

**ثانياً** : أن هذه البيئة الحبشية لم تكن لتسمح لهذا الدين اللاجيء أن ينمو إلى جوار المسيحية ، ولم تكن الرومان وهى المهيمنة على المسيحية فى العالم لتسمح للحبشة بذلك .

**ثالثاً** : كيف يمكن أن يجد القرآن العربى فى تلك البيئة الحبشية من يفهمه ويتعلمه ويحفظه وقد نزل بلسان العرب ؟! .

يضاف إلى ذلك كله أن الحبشة لم تكن فى عصر من عصورها التاريخية منطقة انطلاق ، وإنما كانت فى منطقة معزولة لا تصلح متنفساً للدعوة الجديدة .

وإزاء كل هذه الأسباب فإن منطقة الانطلاق المعقولة للدعوة الإسلامية لم تكن سوى المدينة المنورة . التى تستطيع الدعوة فيها أن تجد منطلقاً واسعاً .

أما اختيار الرسول ﷺ الحبشة لهجرة أصحابه فقد كان مؤقتاً « حتى يجعل

الله للمسلمين فرجاً ؛ لأنه لم يكن معقولاً أن يتخذ الرسول ﷺ من تلك المنطقة المعزولة منطلقاً للدعوة الجديدة(١) .

**خامساً** : حاول بعض المستشرقين غمز المهاجرين فى صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم ، وفى رغبتهم فى النجاة بأنفسهم وتخليهم عن رسول الله ﷺ وليس فى هذا شيء من الحق من جهة ، وهو ملقى جزافاً بعقل اليوم المجرد ، وآت من عدم معرفة البيئة النبوية وتقديرها من جهة أخرى . فالذين هاجروا كانوا بين أمرين : إما أن يظلوا يتعرضون للأذى وقد تخون بعضهم أعصابهم فيضطرون إلى الارتداد ، وإما أن يصبروا حتى يودى الصبر بحياتهم ، وليس فى هذا مصلحة للمسلمين : ولقد وقعت الحالتان فى بعض الذين أسلموا فليس فى تفادى مثل ذلك بالهجرة محل للغمز ؛ بل هى دليل على تعلق المهاجرين بدينهم ، وخوفهم من الافتتان عنه ، وتضحيتهم لوطنهم وعائلاتهم وأموالهم — ومنهم من كان ذا مال كبير — فى سبيله ، وفى هذا ما يستوجب الإكبار والثناء عليهم(٢) .

**سادساً** : هذه الهجرة فيها دليل على أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا فى حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشى إذ كان نصرانياً عندئذ ، ولكنه أسلم بعد ذلك(٣) .

أم كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة فى حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة ، كأبى طالب عم الرسول ﷺ وكالمطعم بن عدى ، الذى دخل الرسول ﷺ مكة فى حمايته عندما رجع من الطائف . وهذا مشروط — بحكم البداهة — بألا يستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدعوة الإسلامية ، أو تغييراً لبعض أحكام الدين ، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرمات ، وإلّا لم

---

(١) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ١٥٦ ، ١٦١ .

(٢) سيرة الرسول لمحمد عزة دروزة ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٣) كان النجاشى ممن أسلم برسول الله ﷺ ولما مات نعاه رسول الله ﷺ للصحابة ، ثم خرج بهم إلى المصلى فصلى عليه . والدليل على ذلك ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مات اليوم عبدٌ لله صالح أصحمة » فقام فأمّنا وصلى عليه » وما رواه أيضاً بسنده عن أبى هريرة أنه قال : نعى لنا رسول الله ﷺ النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه فقال : استغفروا لأخيكم » صحيح مسلم كتاب الجنائز . باب فى التكبير على الجنازة .

يجز على المسلم الدخول فيها . ودليل ذلك ما كان من موقفه ﷺ حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء . فقد وطن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه(١).

**سابعاً** : عندما رأت قريش هجرة المسلمين إلى الحبشة أحست أن ترك باب الهجرة مفتوحاً للمسلمين خطر على كيانها ، فهؤلاء اللاجئون سيكونون فى أرض المهجر « جالية » كبيرة بل قوة خطيرة يعمل حسابها ، وَرُبَّمَا ثرت فعادت إلى مكة قوية بالمال والسلاح .. على أنهم سيتمكنون هناك من المجاورة للحبشيين أن يذيعوا أمر عقيدتهم ودينهم فيعظم خطرهم ، وبخاصة وأنهم يحسنون التعبير عنها .. وستكسب قضية الإسلام أنصارًا جُدُدًا وأصدقاءَ محايدين . وستكون لذلك آثار سياسية بعيدة المدى يعظم بها أمر محمد وأتباعه !! .

ولذلك كله جد المشركون فى استقدام اللاجئين ، ولم يقصروا فى اتخاذ الوسائل الكفيلة بعودتهم .. ولو أنهم لم يعملوا حساباً لآثار هذه الهجرة لسكتُوا عنهم ، وفرحوا بتركهم مكة ليرتع فيها الكفر البواح إلى ما شاء الله .

لكن قريشاً أبت السكوت على تلك الهجرة ، فهى تلاحقهم بالأذى فى أى مكان وتطاردهم فى أية بقعة ، وتقعد لهم بكل طريق لتصدهم عن الله !! .

لذلك أرسلت للمهاجرين فى دار هجرتهم وفداً مكوناً من رجلين لهما خبرة وتجربة ، وفيهما ذكاء وتفتح ليطالبا بالفارين ويُحضراهم إلى مكة ليلقوا جزاءهم على فعلتهم !! .

وبمجرد أن وصل الوفد القرشى إلى الحبشة بدأت المفاوضات على الفور بين هذا الوفد وبين البطارقة الحبشيين وملكها بعد تقديم الهدايا لهم ، وعبثاً حاول الوفد استخدام ذكائه ليقنع الملك بطرد هؤلاء اللاجئين من أرضه لكى يعودوا إلى مكة ثانية ، لكن الوفد الإسلامى بقيادة جعفر بن أبى طالب استطاع بمنتهى الفطنة والكياسة عرض قضيته وكسب الجولة ضد قريش ، وكشف الجاهلية وتعرية قبائحها .. وذلك فى ذاته أعظم انتصار أدبى وسياسى أمام رئيس دولة لها تأثير فى

(١) فقه السيرة . للشيخ محمد سعيد رمضان البوطى ص ١٠٢ .

العالم يومذاك ! ولعل ذلك الانتصار لم يكن يغيب عن إلهام الرسول حين أشار على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة لأنها أرض عدالة ونصفة !!

وهكذا أخفقت محاولات وفد قريش فى رد المهاجرين أيما إخفاق ــ وعاد إلى مكة بالخيبة والحسرة وعرفت قريش أن هناك رأياً عاماً عالمياً لا تستطيع تزييفه ولا التطاول عليه ، ولا احتواءه بالباطل . رغم ما توفر لها من قوة تأثير وارتفاع مكانة ، وهكذا انتصر الحق الأعزل على الباطل المسلح فى مواقف الرأى ، ومعارك الحوار ، وأعظم من ذلك أن النجاشى تعهد أمام وفد قريش بحماية المسلمين ، وزكّى آراءهم ، وأطلق لهم الحرية فى أرضه ، وطرد وفد قريش ورفض قبول هديته .

كأن هذا الوفد المشئوم قد حقق عكس النتائج التى كان يبتغيها .. وكان صاحب فضل على المهاجرين ، لأنه قد استخرج من النجاشى كل عطفه وكرمه يمنحه للمسلمين وتعهد بحمايتهم وحريتهم[1] .

**ثامناً** : نأخذ من هجرة المسلمين إلى الحبشة ــ وبعد المناقشة التى جرت بين سيدنا جعفر بن أبى طالب والنجاشى ــ حقيقة العلاقة القائمة بين ما جاء به سيدنا محمد ﷺ وسيدنا عيسى « عليه الصلاة والسلام » ، فقد كان النجاشى على دين عيسى « عليه السلام » ، وكان مخلصاً وصادقاً فى نصرانيته . ولقد كان من مقتضى إخلاصه هذا ألا يتحول عنها إلى ما يخالفها ، وألا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى « عليه السلام » .

أى فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون انتماءهم إلى عيسى بن مريم وتمسكهم بالإنجيل ، من أن عيسى ابن الله تعالى وأنه ثالث ثلاثة ، لتمسك النجاشى « الذى كان من أخلص الناس لنصرانيته » بذلك ، ولردّ على المسلمين كلامهم وانتصر لرسل قريش فيما جاءوا من أجله .

ولكنا رأينا النجاشى يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى بن مريم بقوله : إن هذا والذى جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة ــ يقول ذلك على مسمع من بطارقته وعلماء الكتاب الذين من حوله .

---

(١) أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع ص ٢٠٢ : ٢١٦ بتصرف .

وهذا يؤكد ما هو بدهى الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاءوا بعقيدة واحدة لم يختلف بعضهم عن بعض قيد شعرة ، ويؤكد لناأن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلَّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالى .

**تاسعاً** : أنتجت الهجرة نتائج لا بأس بها من أهمها إسلام النجاشى ــ رضى الله عنه ــ ويظهر هذا واضحاً فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود ــ والذى مر سابقاً ــ فقد جاء فيه أن النجاشى قال لجعفر بن أبى طالب بعد ما دار بينهم من نقاش « مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الرسول الذى بشر به عيسى بن مريم »(١) .

ولذلك فقد صلى عليه رسول الله ﷺ عند موته .

روى البخارى بسنده عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وابن المُسَيَّب أن أبا هريرة « رضى الله عنه » أخبرهما أن رسول الله ﷺ نعى لهم النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه ، قال استغفروا لأخيكم »(٢) .

وفى رواية أخرى عن سعيد بن المسَيَّب أن أبا هريرة « رضى الله عنه » أخبرهم أن رسول الله ﷺ صف بهم فى المصلى فصلى عليه وكبَّر(٣) .

* * *

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٤٦١ إسناده حسن « الفتح » ج ١٥ ص ٣٢ .
(٢) صحيح البخارى . باب موت النجاشى ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٣) المرجع السابق .



# البا بُ الثالث

## هجرة الرسول وصحابته إلى المدينة

الفصل الأول : طور الإعداد للهجرة
الفصل الثانى : تنفيذ الهجرة .
الفصل الثالث : صفات المهاجرين .
الفصل الرابع : أهم النتائج المترتبة على الهجرة
الفصل الخامس : أحكام الهجرة .



# الفصــل الأول

## طور الإعداد للهجرة

**تمهيـــد :**

بينما كان رسول الله ﷺ يدعو الناس لعبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة غير الله « سبحانه وتعالى » ، والمشركون يحاولون بكل قواهم القضاء على هذه الدعوة . والرسول وأتباعه ـــ يجاهدون فى سبيل الله جهاداً مريراً ، ويتحملون من الأذى ومن العذاب ألواناً .

ولم تمض شهور قليلة على نقض الصحيفة الظالمة إذ صدمت محمداً ﷺ فى العام العاشر من بعثته فاجعتان ـــ أعد الله « تبارك وتعالى » رسوله بهما للهجرة من مكة إلى بلدة أخرى ينطلق فيها بدعوته إلى كل بقاع العالم ـــ اهتزت لهما نفسه ، هما وفاة عمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة ، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين(١) .

وكانت السيدة خديجة وزير صدق فى الشدة والرخاء ، يشكو إليها رسول الله ﷺ فيجد عندها المؤانسة ويركن إليها فتواسيه ، وكانت عوناً له على البأساء والضراء فهى بحق التى تسمى السكن ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آياته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾(٢) .

---

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ٤٠ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٢١ .

وأما أبو طالب فقد كان له عضداً وحرزاً فى أمره ومنعة وناصراً له على قومه ، فلم يضن بمساعدته لرسول الله ﷺ ومنع قومه عنه .

لقد ذهب هذا كله بذهاب خديجة وأبى طالب ، وأصبح الآن بحيث لا يجد له فى الداخل أنيساً ولا فى الخارج نصيراً ، فكان حرياً أن يشتد به الحزن ، لأنه أصبح وجهاً لوجه أمام أعدائه ، فوجدوا منفذاً إليه فنالوا منه ما لم ينالوه فى حياة أبى طالب .

يقول ابن إسحاق « فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به فى حياة أبى طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، فدخل رسول الله ﷺ بيته يقول : ما نالتنى قريش شيئاً حتى مات أبو طالب »(١) .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يسمى ذلك العام الذى ماتا فيه عام الحزن(٢) .

وذلك لما وقع فيه من الشدائد على رسول الله ﷺ .

**وتجدر الإشارة هنا إلى عدة نقاط مهمة هى :**

**أولاً** : الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيراً من الصعاب لزوجها الداعية إذا شاركته فى همومه وآلامه ، وبذلك تخفف عنه عبء هذه الهموم ، وتبث فى نفسه الاستمرار والثبات ، فيكون لها أثر فى نجاح الدعوة وانتصارها ، وموقف السيدة خديجة « رضى الله عنها » من رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى لما تستطيع الزوجة المؤمنة بدعوة الخير أن تقوم به فى سبيل نجاح زوجها الداعية ، وثباته ، واستمراره فى دعوته ، وفقد مثل هذه الزوجة فى احتدام معركة الإصلاح خسارة كبيرة لا يملك معها زوجها الداعية إلا أن يحزن ويأسى ويظل طوال حياته

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢ / ٣٤٤ ط ثانية بدار المعارف بمصر تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سيرة ابن هشام ٢ / ٤٦ ، البداية والنهاية ٣ / ١٢٢ فتح البارى ١٥ / ٤٠ مع اختلاف فى ألفاظ يسيرة .

(٢) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية . للشيخ محمد بن عبد الباقى الزرقانى ج ١ ص ٣٤٤ ط ١٢٩١ هـ .

يذكر فضلها ، ويترحم عليها ، ويبر صديقاتها ، حتى كانت السيدة عائشة « رضى الله عنها » تغار منها — وهى متوفاة — لكثرة ما كانت تسمع من ثناء النبى ﷺ عليها(١).

فقد روى البخارى بسنده عن عائشة « رضى الله عنها » قالت : « ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلَّا خديجة ، فيقول : إنها كانت ، وكانت ، وكان لى منها ولد(٢).

**ثانياً** : قد تحدث حماية للداعية من أحد أقربائه الذين ليسوا متبعين لدعوته ، وفى ذلك فائدة عظيمة للدعوة حين تكون مستضعفة ؛ لأن حماية هؤلاء الأقارب للداعية تمنع الأشرار من الاعتداء على حياته أو التعرض له بأى صنف من صنوف الأذى ، ومثال ذلك ما حدث من أبى طالب الذى جعل نفسه واجهة ظليلة طالما رفهت عن قلب الرسول ﷺ ، وأمدته بالأمل العذب والحنان الرطيب ! . وكان قوة تستمد منها الدعوة عزماً يعينها على مغالبة الصعاب ومدافعة الأعداء .

لقد سَخَّر الرجل جاهه وسلطانه لدعوة الحق وعاش لها يتابع مسارها ، ويناوش خصومها ويناصر أصحابها ، لا يضن عليهم بجهد أو مال !! .

ولكن فجأة فقدت الدعوة هذا الرجل العظيم ، فأحست أنها قد تعرَّت أمام العدو وأن البرد قد سقعها « وأصبحت قريش لا تبالى فى محمد أحداً بعده ، ولقد اعترف رسول الله « صلوات الله وسلامه عليه » بمدى الخسارة التى استهدفت لها الدعوة حين قال : « ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب »(٣) !! .

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للشيخ مصطفى السباعى ص ٦٥ : ٦٧ الناشر عدنان زرزور دمشق ١٣٩٢ هـ ١٩٧٣ م .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب المناقب باب تزويج النبى ﷺ خديجة وفضلها .

(٣) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٤٦ ، الروض الأنف ج ٤ ص ١٥ ، البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٤ ، الكامل ج ٢ ص ٤٢ ، سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٧٢ .

ولكن ما الحكمة فى أن يتعجل قضاء الله فى استلاب أبى طالب من الحياة ، قبل أن يشتد ساعد المسلمين فى مكة ويتكون لهم شىء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول ــ قدر الإمكان ــ من كثير من المصائب والشدائد ، وما الحكمة فى أن يتعجل القضاء باستلاب زوجته « رضى الله عنها » ، وقد كان يجد عندها أنسه وسلواه وينفض بمساعدتها عن كاهله كثيراً من أحاسيس الشدائد والآلام .

وللإجابة عن هذا السؤال يقول الأستاذ البوطى فى كتابه فقه السيرة :

لو بقى أبو طالب بجانب رسول الله ﷺ يحميه وينصره إلى أن تقوم الدولة الإسلامية فى المدينة وريثما ينجو رسول الله ﷺ من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان فى ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة ، وأنه هو الذى كان يدفعها إلى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه ، وإن لم يظهر الإيمان بها والانضواء تحتها ، ولجاء من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول ﷺ أثناء قيامه فى الدعوة بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح الحال .

لكن اقتضت حكمة الله أن يفقد الرسول ﷺ عمه أبا طالب وزوجه خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان فى الظاهر حامياً له ومؤنساً ؛ لكى يكون الرسول قدوة للمسلمين فى مواجهة التحديات والمحن التى كان المشركون يصنعونها فى طريق الدعوة الإسلامية .

فلو أن النبى ﷺ نجح فى دعوته بدون أى مشقة أو جهد ، لطمع أصحابه والمسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح ، ولا ستثقلوا المصائب والمحن التى يجدونها فى طريقهم إلى الدعوة الإسلامية .

أما والحالة هذه ، فإن مما يخفف وقع المحنة والعذاب على المسلمين شعورهم أنهم يذوقون مما ذاقه رسول الله ﷺ ، وأنهم يسيرون فى نفس الطريق التى أوذى فيها رسول الله .

ومهما يصبهم من ألم السخرية بهم وإهانة الناس لهم . فإن ذلك لن يثنيهم عن عزمهم ولن يزحزحهم عن عقيدتهم ، ولن يجعلهم يتركون الطريق الذى يسيرون

فيه لإعلاء كلمة الحق والدين[1] .

**ثالثاً : لماذا أطلق رسول الله ﷺ على العام الذى فقد فيه عمه أبا طالب وزوجته خديجة بنت خويلد عام الحزن ؟ .**

قد يحسب بعض الناس أن سبب تسمية الرسول ﷺ لهذا العام بعام الحزن هو مجرد فقده ﷺ لعمه أبى طالب وزوجته السيدة خديجة ، وربما استساغوا إقامة علائم الحزن والحداد على موتاهم مدة طويلة مع الزمن مستدلين بهذا .

والواقع أن هذا خطأ فى الفهم والتقدير .

وذلك لأن النبى ﷺ لم يحزن على فراق عمه وفراق زوجته ذلك الحزن الشديد ، ولم يطلق على ذلك العام عام الحزن لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم .

بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية فى وجهه . فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات كثيرة للدعوة وسبلاً مختلفة للتوجيه والإرشاد والتعليم . وكان يرى فى ذلك بعض النجاح فى العمل الذى أمره به ربه . أما بعد وفاته فقد سدت فى وجهه تلك المجالات فمهما يحاول وجد صدا وعدواناً ، وحيثما ذهب وجد السبل مغلقة فى وجهه فيعود بدعوته كما ذهب بها : لم يسمعها أحد ولم يؤمن بها أحد ، بل الكل ما بين مستهزىء ومعتد ومتهكم به ، فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من المهمة التى كلفه الله بها بنتيجة ، فمن أجله سمى ذلك العام عام الحزن . بل لقد كان حزنه على ألَّا يؤمن الناس بالحق الذى جاء به شيئاً غالياً على نفسه ، فى أكثر الأحيان . ومن أجل تخفيف هذا الحزن كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية ، ومذكرة إياه بأنه ليس مكلفاً بأكثر من التبليغ ؛ فلا داعى إلى أن يذهب نفسه عليهم حسرات إذا لم يستجيبوا ولم يؤمنوا[2] .

استمع مثلاً لهذه الآيات :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

---

(١) فقه السيرة للبوطى ص ١٠٥ : ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ .

بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(١) .

## الرسول يعرض نفسه على القبائل

ذاق محمد ﷺ ما ذاق من أهل مكة المكرمة من صد عن سبيل الله ومقاومة ، وإيذاء له ولأصحابه ، ولله فى ذلك حكمة ولو كانوا أول من يطيعه لقيل إنهم يريدون بذلك السلطان على الناس .

وأياً ما يكن الأمر ولأن من المعلوم بداهة أن دعوته « عليه الصلاة والسلام » هى للناس عامة وليست لقريش خاصة ، كان لزاماً عليه ﷺ مسارة مع مقتضيات هذا العموم أن يجاهد فى تبليغ دعوته إلى غير قريش كما بلغها لقريش ؛ فاتجه إلى عرض نفسه على قبائل العرب فى بلادهم ، وفى مواسم الحج ، وأسواق التجارة .

## « خروجه إلى الطائف »

توجه الرسول ﷺ أول ما توجه إلى الطائف عسى أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله « تبارك وتعالى » ، فيستطيع بذلك أن ينتصر ويمتنع بهم من قومه . وخرج الرسول إليها فى أخريات شوال من السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة ومعه زيد بن حارثة .

ولما انتهى إليها عمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة ، عبد ياليل ومسعود وحبيب ، بنى عمرو بن عوف ، وعند أحدهم صفية بنت معمر القرشى الجمحى ، فجلس إليهم ، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من

(١) سورة الأنعام آيات ٣٣ : ٣٥ .

قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الثانى : أما وجد الله أحداً أرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك ، فقام ﷺ من عندهم ، وقد يئس من مناصرتهم له ، وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا على » وكره أن يبلغ قومه عنه ذلك ، فيزيدهم عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلَىْ رسول الله ﷺ لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه عدة شجاج . ومازالوا بهما حتى ألجئوهما إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حَبلَةٍ من عنب فجلس فيه ، هو وصاحبه زيد ، وابنا ربيعة ينظران إليه ﷺ ، ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله ﷺ المرأة القرشية التى من بنى جمح ، فقال لها ماذا لقينا من أحمائك ، فلما اطمأن قال « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلَّا بك »[1] .

## قصة عداس مع رسول الله :

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقى تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس ، وقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ثم ذهب حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٤٤ : ٣٤٦ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٣ مختصر ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٤٤ : ٣٤٨ وسبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ج ٢ ص ٥٧٦ : ٥٧٨ .

« بسم الله » ثم أكل ، ثم نظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام مَا يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ ومن أهل أى بلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال لهُ عداس وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذلك أخى كان نبياً وأنا نبى فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاء عداس قالا له : ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شيء خير من هذا لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلّا نبى ، قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه(١) .

## خروج الرسول من الطائف :

ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف مهموماً ، حزيناً مكلوم الفؤاد بسبب ماحدث له من هؤلاء القوم حمقى العقول وغلاظ القلوب ، فلم يستفق إلّا وهو بقرن الثعالب وهناك نزل عليه جبريل وعرض الانتقام من المشركين بسبب قسوتهم وغلظتهم معه ﷺ إلّا أن الرسول رفض ذلك ورجا من الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً .

روى البخارى(٢) ومسلم بسندهما عن عروة بن الزبير ، أن عائشة حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثعالب(٣) ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ،

(١) المراجع السابقة .

(٢) رواه الشيخان واللفظ لمسلم . ورواية البخارى فى كتاب بدء الخلق باب « إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » ورواه مسلم فى كتاب الجهاد باب « ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين ، والإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٣٣٥

(٣) قرن الثعالب : جمع ثعلب . الحيوان المشهور ، وهو موضع بقرب مكة . وقال النووى : هو ميقات أهل نجد . ويقال له قرن المنازل بفتح الميم ، ويقال هو على مرحلتين من مكة . وأصل القرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير : وقال عياض : يقال فيه قرن غير مضاف على يوم وليلة من مكة . قال ورواه =

فنظرت فإذا فيها جبريل « عليه السلام » فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث لك ملك الجبال[1] لتأمره بما شئت فيهم ، ثم نادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يا محمد قد بعثنى الله ، إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك ربك لتأمرنى ما شئت ، إن شئت تطبق عليهم الأخشبين[2] ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك بى شيئاً » .

## دخول النبى مكة :

وقفل الرسول ﷺ عائداً إلى مكة المكرمة ــ ومعه زيد بن حارثة ــ فقال له زيد كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم انتهى إلى حراء فأرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدى يخبره أن رسول الله ﷺ يريد دخول مكة فى جواره ــ بعد أن عرض ذلك على غيره من رؤساء قريش فاعتذروا ــ فاستجاب مطعم لذلك وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة[3].

## ومما ينبغى الإشارة إليه هنا أنه :

لو تأملنا هذه الرحلة التى قام بها رسول الله ﷺ إلى الطائف وما حدث فيها من عذاب شديد تعرض له رسول الله ﷺ ، ثم فى شكل عودته إلى مكة لاستخلصنا عدة أمور وهى :

= بعضهم بفتح الراء وهو غلط . وقال القابسى . من سكن الراء أراد الجبل المشرف على الموضع ، ومن فتحها أراد الطريق الذى يتفرق منه ؛ فإنه موضع فيه طرق متفرقة . انظر شرح النووى للحافظ يحيى بن شرف النووى ١٢ / ١٥٥ ط المطبعة المصرية ، عمدة القارى لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى ١٢ ، ٢٩٠ ط مصطفى الحلبى الطبعة الأولى ، فتح البارى ١٣ / ٣٨ .

(١) أى الملك الذى سخر الله له الجبال وجعل أمرها بيده .

(٢) الأخشبين هما جبلا مكة أبو قبيس والذى يقابلة ، وكأنه قعيقعان ، وقال الصنعانى بل هو الجبل الأحمر الذى يشرف على قعيقعان . ووهم من قال هو ثور كالكرمانى ، وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما ، والمراد بإطباقهما أن يلتقيا على من بمكة ، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقاً واحداً « الفتح ١٣ / ٣٨ » .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ / ٣٤٧ ، ٣٤٨ ؛ طبقات ابن سعد ١ / ١٩٦ ، شرح المواهب اللدنية ١ / ٣٥٥ .

**أولاً** : فى توجهه ﷺ إليها بعد أن أعرضت عنه مكة دليل على التصميم الجازم فى نفس الرسول ﷺ على الاستمرار فى دعوته وعدم اليأس من استجابة الناس له ؛ فقام يبحث عن ميدان جديد لعرض دعوته فيه بعد أن قامت الحواجز دونها فى ميدانها الأول(١).

**ثانياً** : إن ما تعرض له رسول الله ﷺ من محن مختلفة إنما كان من جملة أعماله التبليغية إلى الناس ؛ فكما أنه جاء لتبليغ العقيدة الصحيحة السليمة للناس وأحكام العبادات والأخلاق والمعاملات كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر ، ويبين لهم كيفيّة تطبيق الصبر والمصابرة اللذين أمرنا الله بهما فى قوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا** ﴾(٢). وبذلك يكون قد علمنا الصبر بالتطبيق العملى كما علمنا القيام بالعبادات بالوسائل التطبيقية ، فقد قال ﷺ « خذوا عنى ........ »(٣) وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »(٤)، ولعله قد يظن من لم يطلع على سيرة الرسول ﷺ إلّا من الظاهر فقط أن رسول الله ﷺ قد غلب على أمره فى الطائف ، وأن اليأس قد تسرب إليه ، لذلك توجه إلى الله « سبحانه وتعالى » بذلك الدعاء بعد أن لجأ إلى بستان ابنى ربيعة .

ولكن فى الحقيقة أن الرسول ﷺ قد استقبل كل ما حدث له من صعوبات ومشقات وشدائد بصبر ورضا تامين ، وإلّا فقد كان فى استطاعته ـــ لو أراد ـــ أن ينتقم من هؤلاء السفهاء الذين قسوا عليه وآذوه من الزعماء الذين أغروا به سفهاءهم ، وردوه رداً منكراً لفعل ، ولكنه ﷺ لم يرد ذلك ، ولعل أوضح دليل على ذلك ما حدث منه ﷺ مع ملك الجبال عندما نزل عليه وقال له : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؛ فقال له رسول

---

(١) دراسات فى تاريخ العرب وصدر الإسلام ص ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران آية « ٢٠٠ » .

(٣) صحيح مسلم كتاب الحدود باب حد الزنا ، مسند الإمام أحمد ٥ / ٣١٣ ، ٣١٨ ، ج ٣ ص ٤٧٦ .

(٤) صحيح البخارى ، كتاب الصلاة ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة إلخ .

الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً(١) .

إذاً فقد توفرت له فرصة الانتقام فهل استغل هذه الفرصة ، فاستبدت به شهوة الانتقام ممن أهانوه وآذوه ؟ أم أنه ارتفع عن الجراح والرغبة الجامحة فى الانتقام ، وهو القادر على الفتك بأعدائه ؟ ، لا شك أن هذه الفرصة لو سنحت لغيره ما تردد لحظة فى الانتقام لنفسه .

ولكن أنَّى لصاحب الخلق الكريم أن يكون كغيره من الناس ، فيقابل الإساءة بالإساءة ، والقبيحة بمثلها ، ولكنه ﷺ وهو الذى وصفه الله بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(٢) قد أبى أن ينتقم ممن أهانوه وأوجعوه ، ورد مباشرة على ملك الجبال بقوله : « لا تفعل بهم شيئاً فعسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » .

فما أعظم رحمته ﷺ بقومه ، وما أشد حرصه على ما ينفعهم بدنياهم وأخراهم فلقد آذوه واضطهدوه فأغضى عن سفههم ولم يرض أن ينتقم منهم بإنزال العذاب عليهم ، بل رجا الله « سبحانه وتعالى » أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له ، ولا غرو فى ذلك فهو رسول الإنسانية كافة ، وهو المثل الكامل والقدوة الحسنة .

ولكن ربما يقول قائل : فما معنى ارتفاع صوته بالشكوى إذاً ؟ وما معنى دعائه الذى تدل ألفاظه وصيغته على الضجر والملل من طول المحاولة التى لم تأت بنتيجة إلّا الأذى والعذاب ؟ .

وللإجابة عن ذلك يقول الشيخ الشعراوى فى كتابه الإسراء والمعراج :

**أولاً** : إن الإنسان الذى يمده الله بالأسباب عليه أن يستعمل هذه الأسباب وأن يجتهد وسعه فى أن يستخدمها فى الوصول إلى أغراضه ، وحين يلجأ إلى الله

---

(١) الحديث رواه الشيخان . رواه البخارى فى كتاب « بدء الخلق » باب « إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » ، ورواه مسلم فى كتاب الجهاد . باب ما لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين .

(٢) سوره القلم رقم : ٤ .

ومعه الأسباب يرد الله رجاءه لأنه لا تزال معه الأسباب ، ولكن إذا ما أصبح مضطراً ، وقد أعيته الأسباب ، فله أن يلجأ إلى الله لينصره لأن السبب قد امتنع ، والمقدمات لم تعد فى استطاعة البشر ، فوقف موقفه الضارع إلى الله « سبحانه وتعالى » ، بعد أن فقد أسباب البشر وقال دعاءه السابق الذى يشتمل على كل مقومات الإيمان واليقين ، لأن الله الذى أرسله لن يخذله ، ويشتمل أيضاً على أن رسول الله ﷺ قد استنفد الأسباب ، وأنه لم يجد إلَّا عدواً ، وإلا بعيدا فلابد إذاً أن تتدخل السماء(١) .

**ثانياً** : إن الشكوى إلى الله تعبد ، والضراعة والتذلل له « سبحانه وتعالى » تقرب إليه وطاعة ، وللمحن والمصائب حكم ، من أهمها أنها تسوق صاحبها إلى باب الله تعالى وتلبسه جلباب العبودية له ، فليس إذاً بين الصبر على المكاره والشكوى إلى الله أى تعارض ، بل الواقع أن الرسول ﷺ كان يعلمنا فى حياته كلا الأمرين .

فبصبره الشديد على المحن يعلمنا أن هذه هى وظيفة المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة ، وبطول ضراعته والتجائه إلى الله تعالى يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها .

على أن النفس البشرية لا تتجاوز بشريتها مهما تسامت ، والبشر مجبول فى أصل فطرته على الإحساس والشعور ، الإحساس بلذة النعيم والشعور بألم العذاب ، وهو مجبول على الركون إلى الأول والفزع من الثانى . وهذا يعنى أن الرسول ﷺ حتى وهو يوطن نفسه لتلقى أنواع الضر والعذاب فى سبيل ربه فهو مع ذلك بشر . يتألم للضر ويستريح للنعيم . ولكنه مع هذا يفضل الضر مهما تكن آلامه ، على النعيم مهما تكن لذائذه ، إرضاء لوجه ربه وأداء لحق العبودية عليه . ولا ريب أن هذا هو مناط استحصال الثواب وظهور معنى التكليف للإنسان(٢) .

ونلحظ من دعاء رسول الله ﷺ الذى توجه به إلى ربه « سبحانه وتعالى »

---

(١) انظر الإسراء والمعراج للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ط دار الشروق الطبعة الرابعة ١٩٧٥ .

(٢) فقه السيرة للبوطى بتصرف ص ١١٠ ، ١١١ .

أن فيه تأييدًا لصدق رسول الله ﷺ فى دعوته ، وتصميماً على الاستمرار فيها مهما قامت فى وجهه الصعاب ، وأنه لا يهمه إلّا رضا الله وحده ، فلا يهمه رضا الكبراء والزعماء ، ولا رضا العامة والدهماء « إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » كما أن فيه استمداد القوة من الله باللجوء إليه والاستعانة به عندما يشتد الأذى بالداعية ، وفيه أن خوف الداعية كل الخوف هو من سخط الله عليه وغضبه ، لا من سخط أى شيء سواه(١).

**ثالثاً** : إذا تأملنا فى مشاهد سيرته مع قومه ، وجدنا أن ما كان يجده الرسول ﷺ من الأذى فى هذه المشاهد قد يكون قاسياً ، بيد أننا نجد فى كل مشهد منها ما يعتبر رداً إلهياً على ذلك الإيذاء وما يهدف إليه أربابه كى يكون فى ذلك مواساة وسلوى للرسول « عليه الصلاة والسلام » ، وكى لا يتجمع فى النفس من عوامل التألم والضجر ما يدخل إليها اليأس .

ففى مشهد خروجه ﷺ إلى الطائف ، وما لحقه فيها من عذاب الإيذاء ، وألم الإخفاق ، يجد رداً إلهياً واضحاً على وقاحة وسفاهة أولئك الذين لحقوا به وآذوه واعتذاراً له عن سفاهتهم وغلظتهم ، ويظهر ذلك فى موقف الرجل النصرانى « عداس » حينما جاء يسعى إليه وفى يده طبق فيه عنب . ثم انكب فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه وذلك عندما أخبره « عليه الصلاة والسلام » أنه نبى(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن الرد الإلهى الواضح على سفاهة هؤلاء الذين آذوا الرسول ﷺ ، ومواساة الله لرسوله عن سفاهتهم وغلظتهم أن ننقل هنا كلاماً للأستاذ مصطفى صادق الرافعى « رحمه الله » بعد ذكره للقصة فى كتابه وحى القلم إذ يقول :

«ياعجباً لرموز القدر فى القصة : « لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة . وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام ، وممن مشوا إلى أبى طالب عم

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للشيخ مصطفى السباعى ص ٦٨ .

(٢) فقه السيرة للبوطى ص ١١١ بتصرف .

النبى ﷺ من أشراف قريش يسألونه ، أن يكفه عنهم أو يخلى بينهم وبينه أو ينازلوه وإياد حتى يهلك أحد الفريقين فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به هذا الدين ؛ لأن المستقبل الدينى للفكر لا للغريزة .

وجاءت النصرانية تعانق الإسلام وتعزه . إن الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الدين العقل . ثم أتم القدر رمزه فى هذه القصة ، بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءاً حلاوة فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامى العظيم الذى امتلأ حباً ، كل حبة فيه مملكة(١) .

**رابعاً** : إن ما فعله زيد بن حارثة لوقاية الرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء حتى إنه شج فى رأسه عدة شجاج ــ نموذج لما ينبغى أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة ، من حمايته له بنفسه ودفاعه عنه وإن اقتضى ذلك التضحية بحياته .

وهكذا كانت حال الصحابة « رضوان الله عليهم » بالنسبة لرسول الله ﷺ(٢) ، لذلك فمن الواجب على دعاة اليوم أن يتحملوا فى سبيل دعوتهم المحن والعذاب والمشقات والتحديات التى تواجههم لكى لا تكون حائلاً بينهم وبين تبليغ الدعوة الإسلامية للناس .

ولا تبث فيهم روح الكسل والدعة ما داموا على هدى من الإيمان بالله وتوفيقه ، وأن يستمدوا القوة من الله « سبحانه وتعالى » لأن من استمد القوة من الله « سبحانه وتعالى » جدير به ألّا يعرف للكسل أو لليأس معنى إذ ما دام الله « سبحانه وتعالى » هو الآمر فلا شك أنه هو الناصر أيضاً .

كما ينبغى أن يكون للمسلمين فى كل عصر وزمن قادة للدعوة الإسلامية لكى يكونوا بهذه القيادة خلفاء لقيادة النبى ﷺ فى دعوته ، وواجب المسلمين

---

(١) وحى القلم : ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ط ثالثة ١٣٦٦ ــ ١٩٤٧ مطبعة الاستقامة بالقاهرة . تأليف مصطفى صادق الرافعى . ضبطه وصححه وعلق عليه محمد سعيد العريان . ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٢) فقه السيرة للبوطى ص ١١٢ .

كلهم أن يجعلوا من أنفسهم جنوداً مخلصين لهؤلاء القادة ويفدوهم بكل ما يملكون من نفس ومال ، كما كان شأن الصحابة مع رسول الله ﷺ .

**خامساً** : فى رد الرسول ﷺ على زيد بن حارثة قائلاً له : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً . وذلك عندما قال له زيد « يا رسول الله كيف تدخل على قريش مكة وقد أخرجوك ؟ .

نقول فى رد الرسول على زيد دليل على وثوق الرسول ﷺ من نصر الله « سبحانه وتعالى » له فى حُلكة اليأس ، وشدة الحال وما كان الرسول ﷺ يشك لحظة واحدة أو يخالجه الشك أصلاً في أمر نصر الله « سبحانه وتعالى » له مهما تلبد الجو ، وكثرت الأعاصير ، وفي دخول الرسول ﷺ مكة بعد رحلة الطائف فى جوار مطعم بن عدى حكمة بالغة منه ﷺ حيث إنه « عليه الصلاة والسلام » أراد أن يستوثق لنفسه ولدعوته كى لا يغدر به القوم .

## الدعوة فى مواسم الحج

رأينا فيما سبق كيف أن أهل مكة كفروا بالدعوة الإسلامية التى جاءهم بها رسول الله ﷺ من عند الله ، بل وآذوه ﷺ هو وأصحابه وقعدوا لهم بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً ..

كما رأينا أيضاً إباء أهل الطائف نصرته والدخول فى دعوته ، وإيذاءهم له .

لكن الله « سبحانه وتعالى » أراد أن يقضى لتلك الدعوة من يستنقذها من تلك البيئة الوثنية الضالة التى حرمت الخير كله .

وإذا كان أهل مكة قد استنفذوا جهودهم فى حجب أنوار الدعوة الإسلامية لكيلا تصل إلى قبائل العرب ولا إلى الناس جميعاً ، وتفننوا في توهين أمر محمد ﷺ ووصفوا أصحابه بالسفه ونجحت دعاياتهم الكاذبة هذه فى منع قبائل كثيرة من الدخول فى الإسلام .

فقد أراد الله « سبحانه وتعالى » أن تجد هذه الدعوة المصادرة المضطهدة أنساً .

بعد وحشة وأمناً بعد فزع ، ويسراً بعد عسر ، وانطلاقاً بعد طول توقف وجمود .

وذلك فى بلدة أخرى غير مكة ، هذه البلدة هى المدينة المنورة التى أعدها الله « سبحانه وتعالى » لتكون المنطلق الثانى للدعوة الإسلامية حيث تستطيع الدعوة أن تجد فيها منطلقاً تنطلق منه لكل بقاع العالم .

ولكن كيف الطريق إلى ذلك ؟ لا بد من إعداد جيد ومدروس للوصول إلى هذه البلدة المباركة الطيبة التى سوف تأخذ الدعوة منها طريقاً للانتشار .

من أجل ذلك قام رسول الله ﷺ بعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج والمجامع والمنازل ، يكلم كل شريف قوم لا يسألهم مع ذلك شيئاً إلّا أن يؤووه ويمنعوه .

روى ابن ماجه فى سننه : عن جابر كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول « هل من رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى »(١) .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن ربيعة عن عبادة قال : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذى المجاز يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم إلى الله تعالى »(٢) .

ثم لجأ رسول الله ﷺ إلى وسيلة أخرى عسى أن يكون من ورائها خير للدعوة ، فكان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ، له اسم وشرف إلّا تصدى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده(٣) .

### قصة أبى الحيسر وإسلام إياس بن معاذ :

فمن ذلك ما حدث من رسول الله ﷺ عند قدوم أبى الحيسر ــ أنس بن

---

(١) سنن الإمام ابن ماجه . المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية . والحديث صححه الحاكم آخر فتح البارى ج ١٥ ص ٧١ ، وقال صاحب المجمع رجاله ثقات ج ٦ ص ٣٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٩ ، أبوداود ج ٢ ص ٥٣٦ كتاب السنة باب فى القرآن والحديث صححه ابن حبان . انظر فتح البارى ج ١٥ ص ٧١ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ج ٢ ص ٣٥١ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٥٢ .

نافع ـــ ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : هل لكم إلى خير مما جئتم إليه ، قالوا : وما ذاك؟ قال : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل على كتاباً ، ثم ذكر الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ : وكان غلاماً حدثاً : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم إليه . فأخذ أبو الحيسر أنس بن نافع حفنة من البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا عنك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

وقد روى من حضره من قومه عند موته . أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً ، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع(١) .

وهكذا نرى أن البراعم الناشئة تتجه إلى الضوء وتتفتح للنور الجديد ، وقد كان إياس بن معاذ من تلك البراعم التى اتجهت بفطرتها لاستقبال النور . ولكن أنس بن نافع أبى عليه ذلك ونكس هذا البرْعم إلى الأرض ليصرفه عن استقبال النور ، إلّا أن إياس بن معاذ قد تشربت نفسه الإسلام حين استمع من رسول الله وجلس إليه مرة واحدة .. فآمن بالله .. وصدق بآياته فمات على الإسلام !! ومهما يكن من شيء فقد ترك حديث الرسول ﷺ بين القوم أكبر الأثر فى نفوسهم ، مما جعل الأوس والخزرج كليهما يلتمسون فى محمد نبياً ورسولاً وحليفاً وإماماً(٢) .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٤٢٧ والطبرانى . وقال الهيثمى فى المجمع هذا الحديث رجاله ثقات انظر المجمع ج ٦ ص ٣٦ .

(٢) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

## إسلام سويد بن الصامت :

ومن ذلك ما حدث من رسول الله ﷺ مع سويد بن الصامت ـــ أخى بنى عمرو بن عوف بن مالك بن أوس وأوس هذا ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ عندما قدم مكة حاجاً أو معتمراً وكان سويد إنما يسمى فى قومه بالكامل ، لجلده وشعره ، وشرفه ونسبه ، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد ، لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله ﷺ : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ـــ يعنى حكمة لقمان . فقال رسول الله ﷺ له : اعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد عنه ، وقال : إن هذا لقول حسن . ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون إنا لنراه قتل وهو مسلم ، وكان قتله يوم بعاث(١) .

## إسلام أهل المدينة

جاء موسم الحج فى السنة الحادية عشرة من النبوة ، فخرج رسول الله ﷺ ليعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً(٢) من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفرمن الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم ببلادهم ، وكانوا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٤٧ ، سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٦٠٠ ، ٦٠١ .

(٢) الرهط من الرجال ما دون العشرة . وقيل الأربعين ولا تكون فيهم امرأة ، ولا واحد له من لفظه ، ويجمع على أرهط وأرهاط وأراهط جمع الجمع « النهاية ٢ / ١١٤ » .

أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم[(١)] ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر[(٢)] ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم . تعلموا والله أنه للنبي الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا[(٣)] .

**وكانوا ستة نفر : وهم :**

**١** ــ أبو أمامة أسعد بن زرارة . قال أبو النعيم : إنه أول من أسلم من الأنصار من الخزرج .

**٢** ــ عوف بن الحرث بن رفاعة من بنى النجار ، وهو ابن عفراء بنت عبيد النجارية ، وهى أم معاذ ، ومعوّذ وإليها ينسبون .

**٣** ــ ورافع بن مالك بن العجلان الزرقى .

**٤** ــ وقطبة بن عامر بن حَديدة[(٤)] أبو الوليد السلمى .

**٥** ــ وعقبة بن عامر[(٥)] .

---

(١) بالعين المهملة . عز فلاناً يعز عزا من باب نصر ، غلبه وقهره ، ورجل عزيز : منيع لا يغلب ولا يقهر . اللسان مادة عز .

(٢) النفر : بالتحريك والرهط : ما دون العشرة من الرجال ، ومنهم من خصص فقال : للرجال دون النساء والجمع أنفار ولا واحد له من لفظه ومعناه الجمع « اللسان مادة نفر » .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٤ ، ٥٥ ، والبداية والنهاية ٣ / ١٤٨ ، ١٤٩ ، دلائل النبوة ٢ / ١٧٣ باب ذكر العقبة .

(٤) بفتح الحاء ودالين مهملتين أولاهما مكسورة . شرح المواهب ١ / ٣٦١ .

(٥) بضم العين وسكون القاف ــ شرح المواهب ١ / ٣٦١ .

٦ ــ وجابر بن عبد الله بن رباب(١) .

وذكر موسى بن عقبة فيما رواه عن الزهرى وعروة بن الزبير أن أول اجتماعه « عليه السلام » بهم كانوا ثمانية وهم معاذ بن عفراء ، وأسعد بن زرارة ، ورافع بن مالك ، وذكوان ــ وهو ابن عبد قيس ــ وعبادة بن الصامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة(٢) .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا بينهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ(٣) .

وبعد : فهذا أول موكب من مواكب الخير ، لم يكتف بالإيمان وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه ، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله ، فإنهم حين رجعوا نشطوا فى الدعوة إلى الله .. وعرضوا كلمة الهدى على آلهم وذويهم فلم تبق دار من دور المدينة إلّا وفيها ذكر لمحمد ﷺ ، وهكذا عندما يأذن الله تأتى ساعة الحسم الفاصلة فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد ، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول ، ونقطة التحول الحاسم فى التاريخ .. وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار ، بل إنها على التحقيق ساعة الحسم فى مصير العالم كله ونقل الحياة من الظلمات إلى النور . أكان معقولاً فى لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين إلى أنصار للدعوة متفتحين ، وجنود للحق مخلصين ودعاة إلى الله متجردين يذهبون إلى أقوامهم . وبين جوانحهم نور ، وعلى وجوههم نور ، وإنهم لعلى نور ؟ تلك مشيئة القدر العالى هيأت للدعوة مجالها الخصب ، وحماها الأمين .. والسنوات العجاف التى قضاها الرسول نضالاً مستمراً ، وكفاحاً دائباً ، وتطوافاً على القبائل . والتماساً للحليف .. قد ولت إلى

---

(١) بكسر الراء فتحتية خفيفة وهو غير جابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام الأنصارى الصحابى ابن الصحابى ، وجابر بن عبد الله خمسة ، هذان والثالث جابر بن عبد الله العبدى من عبد القيس ، والرابع جابر ابن عبد الله الراسى ، والخامس جابر بن عبد الله الأنصارى استصغره الرسول ﷺ يوم أحد فرده وليس بالذى يروى عنه الحديث ، رواه ابن سعد عن زيد بن حارثة وذكره الطبرى وكذا اليعمرى فى المغازى « شرح المواهب » ١ / ٣٦١ .

(٢) البداية والنهاية ٣ / ١٤٩ ، فتح البارى ١٥ / ٧١ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٥ . والبداية والنهاية ٣ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

غير رجعة .. سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة ، وجيشه الباسل وسيلتقى الحق بالباطل ليصفى معه حساب الأيام الخوالى ، والعاقبة للمتقين !! وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب النور ــ التى هيأها الله للخير لتتصل بالهداية وتسبح فى النور ، وتغترف من الخير ، وترجع إلى يثرب بما وعت من خير ، وبما حملت من نور(١) .

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التى حدثت عند العقبة وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبى ﷺ وأسلموا على يديه لم تكن فيها بيعة(٢) ، لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق فى أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم فى المدينة ولكنهم أخلصوا فى تبليغ رسالة الإسلام(٣) .

## بيعة العقبة الأولى

تجاوبت أصداء الدعوة المحمدية فى ربوع يثرب وتذاكروها تذاكر من لا يتنازعون فى شرف تمسه ، أو عصبية جاهلية ينصرونها ، ولكن تجاوب من يطلبون الحق ، ومن صغت أفئدتهم إليه ، ومن يرجو من الاستجابة زوال الفرقة التى تقتسمهم ، وتجعلهم فى حرب مستمرة ، وفوق كل ذلك يريدون أن يستعلوا بها على اليهود الذين كانوا يستفتحون عليهم بأن النبى ﷺ سيكون مع أهل الكتاب عليهم ، فهم يسارعون إليه ، لأنهم يسارعون فى الحق ، ولا يبغون سواه(٤) وبعد عام من هذه المقابلة الأولى التى تمت بين الرسول ﷺ وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة وبايعوه العقبة الأولى ، وكان فيهم خمسة من الستة الذين أسلموا فى المقابلة الأولى وهم : **١** ــ أبو أمامة أسعد بن زرارة . **٢** ــ وعوف بن عفراء . **٣** ــ ورافع ابن مالك . **٤** ــ وقطبة بن عامر بن حديدة . **٥** ــ وعقبة بن عامر بن نانى . ولم

---

(١) أضواء على الهجرة . لتوفيق محمد سبع ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢) البيعة عبارة عن المعاقدة والمعاهدة كأن كل واحد باع ما عنده من صاحبه ــ النهاية ١ / ١٠٥ وبايع السلطان إذا تضمن بذْل الطاعة له بما رضخ له ، ويقال لذلك بيعة ومبايعة ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فاستبشروا ببيعكم الّذى بايعتم به ﴾ إشارة إلى بيعة الرضوان ــ المفردات ص ٦٧ .

(٣) دراسات تاريخية للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢٤٧ .

(٤) خاتم النبيين ١ / ٤٩٢ .

يكن منهم جابر بن عبد الله بن رباب ... وأما السبعة تتمة الإثنى عشر منهم فهم : ٦ ــ معاذ بن الحرث بن رفاعة وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور وأخو معوذ أيضاً الثلاثة أشقاء . ٧ ــ وذكوان(١) بن عبد قيس البدرى الزرقى(٢) . ٨ ــ وعبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف ابن الخزرج . ٩ ــ وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن حُرمة. ١٠ ــ والعباس بن عبادة بن نضلة(٣) بن مالك بن العجلان(٤) ، وهؤلاء من الخزرج .

ومن الأوس رجلان : ١١ ــ أبو الهيثم مالك ويقال عبد الله بن التيهان(٥) . ١٢ ــ وعويم بن ساعدة(٦) .

## على أى شيء كانت هذه البيعة :

وقد ادعى بعض العلماء أنها كانت بيعة على نمط بيعة النساء فقد ذكر ابن إسحاق فى سيرته بسنده عن عبادة بن الصامت ، قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا . ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر .

ثم ذكر عن ابن شهاب الزهرى عن عائذ الله بن عبد الله الخولانى أبى إدريس عن عبادة بن الصامت أيضاً نحو ذلك إلّا أنه أوفى وأتم ، ولفظه « وإن غشيتم من

(١) ذكوان : بفتح الذال المعجمة وإسكان الكاف . شرح المواهب اللدنية ١ / ٣٦٣ .

(٢) الزرقى بتقديم الزاى المضمومة على الراء وكذا كل ما فى نسب الأنصار قال ابن ماكولا وغيره نسبة إلى جده زريق الخزرجى يكنى أبا اليسع ، وقيل إنه رحل إلى رسول الله ﷺ فى مكة فسكنها معه فهو مهاجرى أنصارى وقتل يوم أحد . شرح المواهب ١ / ٣٦٣ .

(٣) نضلة بنون مفتوحة وضاد معجمة . شرح المواهب اللدنية ١ / ٣٦٣ .

(٤) وأقام العباس بمكة حتى هاجر معه ﷺ فكان أنصارياً مهاجراً ، واستشهد بأحد « نفس المصدر » .

(٥) بفتح الفوقية فتحتية مخففة عند أهل الحجاز ، مشددة عند غيرهم قال السهيلى : واسمه أيضاً مالك لكن فى الإصابة يقال التيهان شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها . « نفس المصدر » .

(٦) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٧ ، البداية والنهاية ٣ / ١٥٠ ، ١٥١ .

ذلك شيئاً فأخذتم بحده فى الدنيا ، فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » وقد نَهَجَ نَهْجَ ابن إسحاق ــ رحمه الله ــ بعض كتاب السيرة من القدماء ــ كابن جرير الطبرى فى تاريخه ٣ / ٣٥٦ ، وابن سعد فى طبقاته ١ / ٢٠٤ ، وابن الأثير فى كتابه الكامل ٢ / ٤٥ وغيرهم ــ وبعض المحدثين كالبوطى فى كتابه فقه السيرة ص ١٢٤ والشيخ الغزالى فى كتابه فقه السيرة أيضاً ص ١٥٧ ، والدكتورمحمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد « ص ١٩٨ ، وكذلك فى كتاب قصص القرآن ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ وغيرهم . وذلك لأن ظاهر رواية الإمام البخارى فى صحيحه تفيد ذلك ، فقد روى بسنده أن عبادة بن الصامت ــ رضى الله عنه وكان شهد بدراً . وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة(١) من أصحابه : بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك(٢) .

وليس فى هذه الرواية الصحيحة التى رواها عبادة أن هذه البيعة بيعة العقبة إذ لم يقل بايعنا رسول الله ﷺ بيعة العقبة(٣) .

ولما كانت آية بيعة النساء قد نزلت بعد الحديبية بلا خلاف(٤) وهو ما يمكن أن يقدح فيما قاله ابن إسحاق هنا فإن الحافظ ابن كثير لجأ إلى تأويل كلمة ابن إسحاق فقال : وقوله على بيعة النساء ــ يعنى على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية ، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابه ليلة العقبة . وليس هذا عجيباً فإن القرآن نزل بموافقة عمر بن الخطاب فى غير ما موطن كما بيناه فى سيرته وفى التفسير ، وإن كانت هذه البيعة وقعت عن وحى غير

---

(١) العصابة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، ولا واحد لها من لفظها ، وجمعت على عصائب . النهاية ٣ / ٩٩ .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب الإيمان باب علامة الإيمان حب الأنصار .

(٣) إنسان العيون فى سيرةالأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية . للشيخ على بن برهان الدين الحلبى الشافعى ج ٢ ص ٨ ط بمصر مطبعة محمد أفندى مصطفى .

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ١ ص ١٢٧ .

متلو فهو أظهر والله أعلم[1] .

وثم رأى آخر يرى أن البيعة كانت على شيء خلاف ما جاء فى بيعة النساء .

وقد تزعم هذا الفريق الحافظ ابن حجر حيث يقول :

« إن المبايعة المذكورة فى حديث عبادة على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة ، وإنما نص ليلة العقبة ما ذكر ابن إسحاق وغيره من أهل المغازى أن النبى ﷺ قال لمن حضر من الأنصار : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه » وفى كتاب الفتن وغيره عند البخارى قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، الحديث وأصرح من ذلك فى هذا المراد ما أخرجه أحمد والطبرانى من وجه آخر عن عبادة أنه جرت له قصة مع أبى هريرة عند معاوية بالشام فقال : « يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى النشاط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول بالحق ولا نخاف فى الله لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة فهذه بيعة رسول الله ﷺ التى بايعناه عليها » فذكر بقية الحديث .

وعند الطبرانى ، له طريق أخرى وألفاظ قريبة من هذه ، وقد وضح أن هذا هو الذى وقع فى البيعة الأولى ، فقد صدرت مبايعات أخرى منها هذه البيعة التى فى حديث الباب فى الزجر عن الفواحش المذكورة . والذى يقوى أنها وقعت بعد فتح مكة بعد أن نزلت الآية التى فى الممتحنة وهى قولة تعالى ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ** ﴾[2] ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلا خلاف ، والدليل على ذلك ما عند البخارى فى كتاب الحدود من طريق سفيان بن عيينة عن الزهرى فى حديث عبادة هذا : « أن النبى ﷺ لما بايعهم قرأ الآية كلها » وعنده فى تفسير الممتحنة من هذا الوجه قال : « قرأ آية النساء » ولمسلم من طريق معمر عن الزهرى قال : فتلا علينا آية النساء قال : « لا تشركن بالله شيئاً » ، وللنسائى من طريق الحارث بن فضل عن الزهرى أن

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥١ .
(٢) سورة الممتحنة آية ( ١٢ ) .

رسول الله ﷺ قال : « ألا تبايعونى على ما بايع عليه النساء : أ ألّا تشركوا بالله شيئاً » الحديث وللطبرانى من وجه آخر عن الزهرى بهذا السند : « بايعنا رسول الله ﷺ على ما بايع عليه النساء يوم فتح مكة ، ولمسلم من طريق أبى الأشعث عن عبادة فى هذا الحديث : « أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ، فهذه أدلة ظاهرة فى أن هذه البيعة إنما صدرت بعد نزول الآية ، بل بعد صدور البيعة ، بل بعد فتح مكة ، وذلك بعد إسلام أبى هريرة بمدة ، ويؤيد هذا ما رواه ابن أبى خيثمة فى تاريخه عن أبيه عن محمد بن عبد الرحمن الطغاوى عن أيوب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ أبايعكم على ألا تشركوا بالله شيئاً فذكر نحو حديث عبادة ورجاله ثقات . وقد قال إسحاق بن راهويه إذا صح الإسناد إلى عمرو بن شعيب فهو كأيوب عن نافع عن ابن عمر ا . هـ . وإذا كان عبد الله بن عمر أحد من حضر البيعة وليس هو من الأنصار ولا ممن حضر بيعتهم ، وإنما كان إسلامهم قرب إسلام أبى هريرة وضح تغاير البيعتين ، بيعة الأنصار ليلة العقبة ، وهى قبل الهجرة إلى المدينة ، وبيعة أخرى وقعت بعد فتح مكة ، وشهدها عبد الله بن عمر ، وكان إسلامه بعد الهجرة بمدة طويلة ، ومثل ذلك ما رواه الطبرانى من حديث جرير قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على مثل ما بايع عليه النساء ، فذكر الحديث ، وكان إسلام جرير متأخراً عن إسلام أبى هريرة على الصواب ، وإنما حصل الالتباس من جهة أن عبادة بن الصامت حضر البيعتين معاً ، وكانت بيعة العقبة من أجل ما يتمدح به فكان يذكرها إذا حدث تنويهاً بسابقيته . فلما ذكر هذه البيعة التى صدرت على مثل بيعة النساء عقب ذلك ، توهم من لم يقف على حقيقة الحال أن البيعة الأولى وقعت على ذلك(١) .

وهذا الذى ذكره الحافظ هو الذى يجب أن يصار إليه فهو ــ رحمه الله ــ من أعلم الناس بالقرآن ، وتنزلاته ، والسنة وطرق الجمع بين رواياتها المختلفة ، وبالسيرة وتواريخ الصحابة ، وله انتقادات كثيرة صائبة على ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة وتاريخ الرجال .

والخلاصة أن المبايعة فى العقبة الأولى كانت على السمع والطاعة والعسر واليسر .

---

(١) فتح البارى شرح البخارى ج ١ ص ١٢٦ : ١٢٨ .

وفى المنشط والمكره ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقول الحق ، وألَّا يخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى الولاء والنصرة لرسول الله ﷺ إذا قدم عليهم يثرب ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ،وأزواجهم ، وأولادهم ، وأما المبايعة على مثل بيعة النساء فقد كانت بعد ذلك(١) .

إلَّا أن صاحب كتاب « عمدة القارى » حاول أن يرد على ابن حجر رأيه هذا وينتصر للرأى الأول أعنى أن بيعة العقبة كانت على ما فى آية النساء ، فيقول بعد أن ذكر كلام ابن حجر السابق قلت : فيه نظر من وجوه .

**الأول** : أن قوله ويبطله أن أبا هريرة صرح بسماعه غير مسلم من وجهين : أحدهما أنه يحتمل أن يكون أبو هريرة « رضى الله عنه » سمع من النبى ﷺ بعد ما سمعه من صحابى آخر ، فلذلك صرح بالسماع وهذا غير ممنوع ولا محال ، والآخر أنه يحتمل أنه صرح بالسماع لتوثقه بالسماع من صحابى آخر ، فإن الصحابة كلهم عدول لا يتوهم فيهم الكذب .

**الثانى** : أن قوله وإن الحدود لم تكن نزلت إذ ذاك ، لا يلزم من عدم نزول الحدود فى تلك الحالة انتفاء كون الحدود كفارات فى المستقبل ، غاية ما فى الباب أن النبى ﷺ أخبر فى حديث عبادة أن من أصاب مما يجب فيه الحدود التى تنزل عليه بعد هذا ، ثم عوقب بسبب ذلك بأن أخذ منه الحد فإن ذلك الحد يكون كفارة له ، ولا شك أن النبى ﷺ كان يعلم قبل نزول الحدود أن حال أمته لا تستقيم إلَّا بالحدود فأخبر فى حديث عبادة بناء على ما كان علمه قبل الوقوع .

**الثالث** : أن قوله والحق عندى أن حديث أبى هريرة صحيح غير مسلم لأن الحديث أخرجه الحاكم فى مستدركة والبزار فى مسنده من رواية معمر عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة . وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وقد علم مساهلة الحاكم فى باب التصحيح على أن الدارقطنى قال : إن عبد الرزاق تفرد بوصله ، وأن هشام بن يوسف رواه عن معمر فأرسله ، فإذاكان الأمر كذلك فمتى يساوى حديث أبى هريرةحديث عبادة بن الصامت حتى يقع بينهما تعارض فيحتاج إلى الجمع والتوفيق . فإن قلت : قد وصله آدم بن أبى إياس عن

(١) السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة ج ١ ص ٤٥٧ .

ابن أبى ذئب أخرجه الحاكم أيضاً . قلت : ولو وصله هو أو غيره ، فإن قطع غيره مما يورث عدم التساوى بحديث عبادة ، وصحة حديث عبادة متفق عليها ، بخلاف حديث أبى هريرة على ما نص عليه القاضى عياض وغيره فلا تساوى فلا تعارض فلا احتياج إلى التكلف بالجمع والتوفيق .

**الرابع** : أن قوله والمبايعة المذكورة فى حديث عبادة على الصفة المذكورة لم تقع ليلة العقبة غير مسلم ، لأن القاضى عياض وجماعة من الأئمة الأجلاء قد جزموا بأن حديث عبادة هذا كان بمكة ليلة العقبة لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ البيعة الأولى بمنى ، ونقيم بصحة ما قالوا دلائل . منها « أنه ذكر فى هذا الحديث » وحوله عصابة » وفسروا أن العصابة هم النقباء الاثنا عشر ولم يكن غيرهم هناك ، والدليل على صحة هذا ما فى رواية النسائى فى حديث عبادة هذا قال : « بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة فى رهط » الحديث . وقد قال أهل اللغة : إن الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ** ﴾[1] قال ابن زيد : وربما جاوز ذلك قليلاً ، قاله فى الْعُبَابْ . والقليل ضد الكثير ، وأقل الكثير ثلاثة ، وأكثر القليل اثنان ، فإذا أضفنا الاثنين إلى التسعة يكون أحد عشر ، وكان المراد من الرهط هنا أحد عشر نقيباً ، ومع عبادة يكونون اثنى عشر نقيباً ، فإذا ثبت هذا فقد دل قطعاً أن هذه المبايعة كانت بمكة ليلة العقبة البيعة الأولى ، لأن البيعة التى وقعت بعد فتح مكة على زعم هذا القائل كان فيها الرجال والنساء وكانوا بعد كثيراً . والثانى : أن قوله ليلة العقبة دليل على أن هذه البيعة كانت هى الأولى ، لأنه لم يذكر فى بقية الأحاديث ليلة العقبة ، وإنما ذكر فى حديث الطبرانى يوم فتح مكة ، ولا يلزم من كون البيعة يوم فتح مكة أن تكون البيعة المذكورة هى إياها ، غاية الأمر أن عبادة قد أخبر أنه وقعت بيعة أخرى يوم فتح مكة وكان هو فيمن بايعوه « عليه الصلاة والسلام » .

والثالث : أن ما وقع فى الصحيحين من طريق الصنابحى عن عبادة « رضى الله عنه » قال : إنى من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، وقال : بايعناه على ألّا نشرك بالله شيئاً » الحديث . يدل على أن المبايعة المذكورة فى الحديث المذكور كانت ليلة العقبة ، وذلك لأنه أخبر فيه أنه كان من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، وأخبر أنهم بايعوه ، ولم يثبت لنا أن أحداً بايعه « عليه الصلاة

---

(١) النمل آية ( ٤٨ ) .

والسلام » قبلهم ، فدل على أن بيعتهم أول المبايعات ، وأن الحديث المذكور كان ليلة العقبة . وأما احتجاج هذا القائل فى دعواه بما وقع فى الأحاديث التى ذكرها من قراءة النبى ﷺ بالآيات المذكورة على ما ذكره فلا يتم ، لأنه يحتمل أن عبادة لما حضر البيعات مع النبى ﷺ وسمع منه قراءة الآيات المذكورة فى البيعات التى وقعت بعد الحديبية أو بعد فتح مكة ذكرها فى حديثه ، بخلاف حديث البيعة الأولى فإنه ليس فيه قراءة شيء من الآيات ، وتمسك هذا القائل أيضاً بما زاد فى رواية الصنابحى فى الحديث المذكور ولا تنتهب على أن هذه البيعة متأخرة لأن الجهاد عند بيعة العقبة لم يكن فرضاً ، والمراد بالانتهاب ما يقع بعد القتال فى المغانم ، وهذا استدلال فاسد لأن الانتهاب من أن يكون فى المغانم وغيرها ، وتخصيصه بالمغانم تحكم ومخالف للغة[1] .

ونجيب على الإمام العينى « رحمه الله » بما يلى :

بالنسبة للوجه الأول أعنى ادعاءه مجازية السماع .

إن الموقف لا يحتاج لكل هذه الفروض والاحتمالات لأن هذه الاحتمالات بعيدة الحدوث فى موطننا هذا ، فقد اعتدنا من رواة الحديث الدقة كل الدقة فى التعبير والإصابة بالعبارة ما هم متأكدون منه بالفعل ، فإذا ورد السماع لم يكن إلَّا السماع حقيقة عن النبى ﷺ إذ لا يقبل المجاز فى مثل هذا الموقف إلَّا حيث تقوم قرينة توجب تعذر الحقيقة وبالتالى الحمل على المجاز وأنى له بمثل تلك القرينة

وبالنسبة للوجه الثانى أعني تجويزه ألَّا يكون حديثه ﷺ عن الحدود حديثاً عن ماض أو حاضر بل عن مستقبل أقول بالنسبة لهذا الوجه فهو مجازفة وخلاف لما هو ظاهر بنفسه أتم ظهور ، لأن الإخبار فى مثل هذه المواطن لا يكون إلَّا عما هو كائن لا عما سيكون فى المستقبل .

ولو كان الرسول ﷺ أخبرهم عما سيقع فى المستقبل لكان فى ذلك إعجاز منه ﷺ يحرص المسلمون على إثباته ويحكيه القاصى والدانى ، ولكن لم يحكه أحد على أنه إحدى معجزاته ﷺ .

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى . للإمام بدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى ج ١ ص ١٨٠ ، ١٨١ .

وبالنسبة للوجه الثالث أعنى محاولته إبطال الاستشهاد بحديث أبى هريرة عن طريق ضعف رتبته بالنسبة لحديث عبادة فإنى أقول ليس فى هذا حجة على الحافظ لأنه يمكن أن ينهض دليلاً لو كان هناك تعارض بين الحديثين يحتاج إلى كل هذا ، فحديث عبادة لم يصرح بأن البيعة كانت بيعة العقبة بدليل أن روايات متعددة وكثيرة نقلت عن عبادة نفسه فيما بايعهم عليه النبى فى العقبة ولم يكن من بينها على كثرتها ما يشير إلى أن بيعة النساء بويع عليها الرجال ليلة العقبة .

وما زعمه الشيخ من ثبوت التصريح بليلة العقبة فى رواية النسائى فإنى قد استقصيت البحث بنفسى فى سنن النسائى فلم أجد لذكر ليلة العقبة عيناً ولا أثراً ، وكذلك استقصى البحث قبلى محدث هذا الزمان الثقة الشيخ عبد القادر الأرناءوط فى تحقيقه لجامع الأصول حيث علق على ما ذكر ابن الأثير من ثبوت هذه الرواية عند النسائى بقوله « هذه الزيادة لم نجدها فى « سنن النسائى » ولا نحسبها تصح ، لأن هذه البيعة كانت بعد الهجرة بزمن كما حققه الحافظ « فى الفتح »[1] أ . هـ . فإذا كان العينى « رحمه الله » يريد السنن الصغرى للنسائى وهو الظاهر لشهرتها وانصراف الحديث إليها عند الإطلاق فهو وَهم تبع فيه ابن الأثير ، وإن كان يريد غيرها كالسنن الكبرى مثلاً فإنى أقول هنا بمقالة الأرناءوط الآنفة « أحسب هذه الزيادة لا تصح » وأستبعد جداً أن يخفى مثلها لو صحت على مثل الحافظ ابن حجر وهو من هو حفظاً وإتقاناً وتحقيقاً وبالنسبة للوجه الرابع .

أعنى محاولته تخطئة ابن حجر بكلام القاضى عياض وجماعة فإنى أقول ليس ملزماً لأنه وإن كان القاضى عياض موضع ثقة فليس ابن حجر بمعزل عن هذه الثقة بل هو فى معيار التحقيق والنصفة أوثق وأخبر من ينبغى الرجوع إليه فى أمثال هذه المجالات .

واستدلاله بكلمة « عصابة » على أن المراد بها النقباء الإثنا عشر واضح البطلان ؛ فليس بلازم فى اللغة أصلاً قصر العصابة على هذا العدد أو غيره . ألا ترى إلى قول الجوهرى فى الصحاح مثلاً فى هذه المادة « العصابة » بالكسر

(١) انظر جامع الأصول لابن الأثير بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط ج ١ ص ٢٥١ بالهامش .

الجماعة من الناس والخيل والطير » أ . هـ .

وهكذا وقع لغيره من أصحاب المعاجم مثل هذا الإطلاق ، بل ألا ترى كيف أطلقها النبى ﷺ نفسه على الجمع الكثير الذى يربو على الثلاث مائة فى قوله يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض بعد »(١) ألم تكن هذه العصابة ثلاثمائة وأربعة عشر كما هو مشهور فى كتب السيرة مما يدل أبلغ الدلالة على صحة إطلاق هذه اللفظة لغة وشرعاً على القليل والكثير من العدد اثنى عشر كان هذا العدد أو أقل أو أكثر ، فمن أين له إذا مثل هذا التحديد الذى يريد حتى يلزمنا القول بصحة هذا التفسير الذى فسره .

واستدلاله بلفظة « رهط » فيه نظر إذ لا مانع من تعدد المبايعات التى كان لعبادة شرف لحضورها ويمكن أن يكون المراد بالرهط جزءاً من جماعة المبايعين كأن يكونوا مقسمين إلى رهوط على رأس كل رهط نقيب لهم .

وعلى ذلك لا تكون لفظة رهط المذكورة فى الحديث دالة على أن المراد بيعة العقبة والدليل متى تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال .

وأما الحديث الوارد عن طريق الصنابحى فليس فيه دلالة على أن البيعة المذكورة كانت فى العقبة فقول ابن الصامت فيه « إنى من النقباء » سبق لابن حجر أن أجاب عنها ؛ فبين عندها أن بيعة العقبة كانت مفخرة يتفاخر بها كل من حضرها فهذه هى المفاخرة .

ثم قوله بعد ذلك « بايعناه على ألَّا نشرك به شيئاً » حديث عن بيعة جديدة كانت بعد الفتح ، وهى التى جاءت على صورة بيعة النساء .

ومحاولته إبطال الاستشهاد بذكر الآية عقب الحديث وهى متأخرة فى النزول بقوله وهذا لا يتم ثم يعلل بقوله : لأنه يحتمل ليس من لغة العلم فالاحتمال لا يرد به على الحقيقة الثابتة ، وإلَّا فأين ما قاله عندما حاول إبطال حديث أبى هريرة بأنه لا ينهض أمام حديث عبادة لأنه ليس مساوياً لحديث عبادة بل أضعف منه . فلماذا نراه الآن يحاول إبطال اليقين بالاحتمال .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة فى بدر ، وإباحة الغنائم .

أما أن الانتهاب ليس مقروناً بالجهاد لأنه ليس مقصوراً على الغنائم فنحن نسأل أى انتهاب انتهبه المسلمون قبل الجهاد لقد كانوا مستهدفين لكل انتهاب غير قادرين حتى عن الدفاع عما يملكون . على أن التأمل المنصف يقتضى أن تكون بيعة العقبة الأولى كانت قاصرة على الاتفاق على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى التأييد والمنعة .

أما والقوم حديثو عهد بالدعوة الإسلامية التى لم تكن إلى هذا الوقت تعنى بغير الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك ـــ فلم تكن قد وصلت بعد إلى مرحلة التشريع والتفصيل حتى يتحدث عن الحدود وكونها كفارات إلى أمثال ذلك من التشريعات التفصيلية .

ولذا فالصحيح الذى أكدته الأدلة أن الحق مع ابن حجر وأن خصومه ليسوا على شىء .

## أول سفير فى الإسلام :

وبعد أن أتم وفد الأنصار هذه البيعة ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير[1] وابن أم مكتوم[2] فقد روى البخارى

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى بن كلاب العبدرى وكنيته أبو عبد الله . كان أنعم غلام فى مكة ، وأجود شبابها حلة وبهاء ، ولما جاء الإسلام كان أحد السابقين إليه فقد أسلم والنبى ﷺ فى دار الأرقم وكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه ؛ فلما علموا بإسلامه أوثقوه فلم يزل محبوساً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة ثم رجع مع من رجع إلى مكة ـــ فهاجر إلى المدينة وشهد بدراً ثم شهد أحداً ومعه اللواء فاستشهد ، ولم يترك إلا ثوباً واحداً فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ ضعوها مما يلى رأسه واجعلوا على رجليه شيئاً من الأذخر . فرضى الله تعالى عنه وأرضاه . صحيح مسلم ج ٣ ص ٤٨ . كتاب الصلاة باب فى كفن الميت ، الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ج ٦ ص ١٠١ ط المطبعة الشرقية ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م .

(٢) هو عمرو بن أم مكتوم القرشى ويقال اسمه عبد الله وعمرو أكثر وهو ابن قيس بن زائدة بن الأصم ، ومنهم من قال عمرو بن زائدة لم يذكر قيساً ومنهم من قال قيس بدل زائدة وقال ابن حبان من قال ابن زائدة نسبهُ لجده ، ويقال كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله . حكاه ابن حبان وقال ابن سعد : أهل المدينة يقولون اسمه عبد الله وأهل العراق يقولون اسمه عمرو واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله بن عنكثة بمهملة ونون ساكنة وبعد الكاف مثلثة ابن عائذ بن مخزوم وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين . وقد أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين قدم المدينة قبل أن يهاجر النبى ﷺ وكان النبى ﷺ يستخلفه على المدينة فى عام غزواته يصلى بالناس قال ابن الزبير بن بكار خرج إلى القادسية فشهد القتال واستشهد هناك =

بسنده ، أن البراء بن عازب قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس »(١) وكان الغرض من بعثتهما كما بين الحديث الشريف هو تعليم من أسلم من أهل المدينة القرآن والفقه فى الدين ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام ، وكان مصعب متسماً فى دعوته بحسن أسلوبه وجميل عرضه ومرونته .

فلم يشأ أن يعقد الأمور بل كان يطلب ممن يريد أن يدخل الإسلام ببساطة ويسر : التطهر ثم شهادة الحق ، ثم الصلاة ، إنها أمور لا تكلف أدنى مشقة ولا تحمل أدنى عناء : تطهير الجسد والثوب من أدران الجاهلية ، وتطهير النفس من رواسب الوثنية ، ثم الإقبال على الله « عز وجل » بعد ذلك بالصلاة(٢).

وبهذا المنهج الحكيم الذى اتبعه مصعب بن عمير انتشر الإسلام فى دور المدينة كلها ولم يكن بينهم حديث إلّا عن الإسلام .

**ويجدر بنا أن نشير إلى عدة نقاط تتضح لنا من مدارسة هذه الفترة المهمة فى حياة الدعوة الإسلامية :**

**أولاً** : فى عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل فى مواسم الحج دليل على أنه ينبغى على الداعية ألّا يقتصر فى دعوة الناس إلى الخير ضمن مجالسه وفى بيته فحسب ، بل يجب عليه أن يذهب إلى كل أماكن التجمع للناس أو ما يغلب على ظنه أن الناس يتجمعون فيه ، كما أنه لا ينبغى له أن ييئس من إعراضهم عنه مرة بعد أخرى ؛ فقد يهيىء الله له أنصاراً يؤمنون بدعوته الخيِّرة من حيث لا يحتسب ، وقد يكون لهذه القلة التى تهتدى به فى بعض المناسبات شأن كبير فى انتشار دعوة الحق والخير ، وفى انتصارها النهائى على الشر وأعدائه .

---

وكان معه اللواء حينئذ وقيل بل رجع إلى المدينة بعد القادسية فمات بها . ذكره البغوى روى عن النبى ﷺ وحديثه فى كتب السنن المرجع السابق ٤ / ٢٨٤ .

وقال العينى فى « عمدة القارى » ومكتوم من الكتم سُمِّىَ به لكتمان نور عينيه ج ٤ ص ٢٩٤ .

(١) البخارى كتاب بدء الخلق باب « مقدم النبى وأصحابه المدينة » .

(٢) « الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق » للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ١٨٩ ، ١٩٠ سلسلة مجمع البحوث الإسلامية السنة الرابعة ــ الكتاب ٤٦ المحرم ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م .

ولعلنا نجد ذلك واضحاً فى إيمان الستة أو الثمانية الأوائل من الأنصار الذين التقوا برسول الله ﷺ أول مرة .

فقد أدى إيمانهم إلى تغلغل الإسلام فى المدينة ، وكان لهذا التغلغل أثر فى انتشار الإسلام وسيطرته عليها ، مما مهد للمؤمنين المضطهدين فى مكة أن يجدوا فى المدينة مُهَاجَراً يتمركزون فيه ، ولرسول الله ﷺ موئلاً أميناً يقيم فيه دولته ، ويبث منه دعوته ، وينطلق منه أصحابه إلى مقاومة الشرك والمشركين بالحروب والمعارك التى كانت نهايتها انتصاراً خالداً للإيمان ، وهزيمة أبدية للشرك(١).

**ثانياً** : فى هذه الفترة من حياة الدعوة الإسلامية رأينا كيف بدأ التحول فى طبيعة ما كان يلاقيه النبى ﷺ طيلة هذه السنوات التى مرت من عمر بعثته ﷺ لقد أينع الصبر وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ زرع الدعوة وأخذ يستوى على سوقه ليعطى النتيجة والغلال بعد أن استمر الرسول ﷺ إحدى عشرة سنة يعانى فيها من حياة لا راحة فيها ولا استقرار ، تصب قريش فيها عليه ألواناً من المحن والشدائد ، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزيمته ولا يضعف شيئاً من قوته وسعيه ، كما كان يعانى فيها أيضاً من غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات والقبائل المحيطة به ، فلا ييئس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شيء من أنسه بربه عز وجل ، كما ظل يجاهد فى سبيل الله ويتحمل كل المشقات فى هذا السبيل ، لكى يؤدى ثمن إقامة مجتمع إسلامى عظيم ينتشر فى مشرق العالم وغربه ، تتساقط أمامه الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس ، وتذوب من حوله قيم النظم والحضارات .

**والآن آن لنا أن نتأمل تلك الثمار التى أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة من الدعوة الإسلامية وطبيعتها وكيفية نموها :**

**أولاً** : جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه « عليه الصلاة والسلام » رغم جواره معهم ، واحتكاكه بهم ، فلماذا ؟ .

ذلك لأن حكمة الله الباهرة قد اقتضت أن تسير الدعوة الإسلامية فى سبيل لا تدع شكاً للمتأمل فى طبيعتها ومصدرها ، حتى يسهل الإيمان بها ، ولا يقع أى التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى .

(٢) انظر السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعى ص ٧٠ ، ٧١ .

من أجل ذلك كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وبعث فى أمة أمية لم تقتبس حضارة ولم تعرف مدنية أو ثقافة معينة ، وجعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة .

ثم اقتضت حكمة الله « سبحانه وتعالى » أن يكون نصر محمد ﷺ الحاسم من غير بيئته وقومه ، حتى لا يظن ظان بأن الدعوة الإسلامية كانت فى حقيقتها دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته .

وهذا فى الواقع من أجل المعجزات التى تكشف لنا أن يداً إلهية تحوط حياة الدعوة النبوية وظروفها من كل جانب ، كى لا توجد فى أى جانب منها ثغرة لمطعن ، يقوم به مشكك أو محترف غزو فكرى(١) .

**ثانياً** : إن الله « سبحانه وتعالى » قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية ، وذلك بأن وفر لها ظروفها وعوامل معينة ساعدت على سرعة انتشار الإسلام بين أهلها .

## فما الظروف والعوامل التى ساعدت على سرعة انتشار الإسلام فى المدينة ؟ :

علمنا مما سبق ما لاقاه الرسول ﷺ وصحبه من معارضة شديدة واضطهاد وتعذيب للمسلمين وسخرية واستهزاء بالنبى ﷺ وبمن معه ، وذلك أثناء دعوته بمكة ، ورغم كل ما لاقاه هو وصحابته لم تضعف عزيمته عن تبليغ دعوة ربه ، بل ظل يدعو إلى دين الله متحملاً ما يلاقيه من متاعب ومشقات ، إلى أن هدى الله له قلوب أهل المدينة المنورة فأسلموا بهذه الدعوة السامية وعقدوا مع النبى ﷺ معاهدة العقبة .

## ولكن قد يسأل سائل عن الدوافع التى دفعت أهل المدينة للدخول فى الإسلام ؟

إن بعض المستشرقين الفرنسيين يدعى : بأن السبب الوحيد الذى حمل الأنصار على اعتناق الدين الإسلامى ودعوتهم له عند رجوعهم إلى المدينة هو

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعى ص ٧٠ ، ٧١ .

غيرتهم من مكة وحسدهم على التجارة التى يحضرها الحجاج معهم إليها ، مع فقدان الصناعة من يثرب وضآلة الزراعة بها ، ولهذا كان طبعياً أن تتهافت يثرب على أن تستقبل مكياً من إحدى عائلاتها النبيلة ، والذى يعتبر مؤسساً لدين جديد فيمكنه تحت هذا الستار أن ينقل المركز الدينى من مكة إلى يثرب ، والذى يتبعه حتماً أن يحج إليها جميع قبائل شبه الجزيرة ومعهم تجارتهم وثرواتهم ، مما يزيد فى ثروة يثرب ويضاعف من دخل الأوس والخزرج .

**فهل هذا الادعاء صحيح ؟ :**

إن هذا الادعاء باطل ولا أساس له من الصحة .

وقد فنده الأستاذ الدكتور عبد الفتاح شحاته فى كتابه « دراسات فى تاريخ العرب وصدر الإسلام » فقال :

« إن التاريخ لم يحدثنا أن الأنصار حينما بايعوا الرسول أشاروا عليه بجعل المدينة مركزاً للحج ، كما لم يتحدث المنافقون بالمدينة عن خيبة الأمل التى لاقاها الأنصار ، ولما أخفقوا فى جعل المدينة قبلة لحجاج العرب أجمعين ، إذا كان ذلك مأربهم ، وقد تحدث التاريخ من قبل عن بناء أبرهة لكنيسة القُلَّيس بصنعاء ، وصرف الحجيج عن مكة إليها . كما أنه لم يفهم من حديث النبى قبل الهجرة أو بعدها أن تصبح المدينة كعبة بدلاً من كعبة مكة يحج إليها الناس فيما بعد ، بل بالعكس عمل النبى والأنصار معه على أن يحجوا إلى الكعبة بمكة ، وأيضاً فإن جميع مسلمى المدينة كانوا يتجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس أولاً ، وإلى الكعبة بعد ، ولم تكن المدينة يوماً ما المكان المقدس الذى سوف يتجهون إليه .

ثم يستمر الدكتور عبد الفتاح شحاتة قائلاً :

« وأخيراً فإن الخزرج الستة الذين أسلموا بالعقبة الأولى ، لم يخطر ببالهم أن محمداً ﷺ سوف يهاجر إليهم حتى يصح أن يفهموا أن « المدينة » قد تصبح فيما بعد مركزاً للدين الجديد ، إذا ما تحول إليها الحجاج[1] .

---

(١) دراسات فى تاريخ العرب وصدر الإسلام ، للدكتور عبد الفتاح شحاتة ، القسم الثانى ص٩٧ ، ٩٨ .

ولكن هناك ظروف وعوامل ساعدت على سرعة انتشار الإسلام بالمدينة هى :

**أولاً** : أن المدينة كان يسكنها الأوس والخزرج واليهود ، وكان اليهود كما نعرف أهل علم وكتاب ، أما الأوس والخزرج فكانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وكانوا أهل شرك وأوثان يعبدون الأصنام كما يعبدها سائر العرب ، وبمجاورة عرب يثرب لليهود كانوا أقرب إلى الأديان السماوية ، وذلك لكثرة ماسمعوا من اليهود عن الله والوحى وعن البعث والحساب وعن الجنة والنار ونحو ذلك(١) . وربما حاورهم اليهود فى شئون الأديان ، ونعوا عليهم عبادة الأوثان .

كذلك كان أهل المدينة على اتصال بإخوانهم عرب الغساسنة المسيحيين بجنوب الشام وهم مثلهم من أصل يمنى فعلموا منهم مثل هذه التنبؤات التى وردت فى الإنجيل .

فكانت هذه التعاليم مع تهيئة الفرصة لهم بملاقاة النبى ﷺ حافزاً لهم على سرعة الدخول فى الإسلام .

**ثانياً** : كان هناك عداء يكاد يكون متصلاً بين العرب واليهود ، وكانوا إذا احتدم الخلاف بينهم وانتصر العرب على اليهود قال اليهود « إن نبياً مبعوثاً الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم »(٢) .

ومن الغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبى بل وناصبوه العداء وهم أعرف الناس بأمره ؛ ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض . قال تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ـ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾(٤) .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٨٩ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ١٤٦ .

أما هؤلاء العرب فقد أصبحت نفوسهم تتوق لرؤية هذا النبى الذى تخبرهم عنه اليهود ليتبعوه عسى أن تنطفىء نار العداوة المستعرة بين أوسهم وخزرجهم ، وتتوحد بفضله صفوفهم ، ويلتئم شملهم وتذوب وتمحى أسباب الشقاق مما بينهم ، فلما ظهر النبى سارع الجميع إلى قبول دعوته .

**ثالثاً** : كذلك كان من أسباب مسارعة الأنصار لاتباع الرسول ﷺ والدخول فى الدين الجديد أنهم لم تكن لهم فائدة تعود عليهم من التمسك بعبادة الأوثان كما كان لقريش بمكة ، ولكن هذا لا يعنى أنهم كانوا يريدون إقامة بنية وثنية أو غير وثنية تقوم مقام الكعبة ، وللكعبة من تاريخها وقداستها فى نفوس العرب مالا يتصور معه أن يفكر أحد من العرب فى نقلها من مكة(١) .

**رابعاً** : كانت بيئة يثرب عاملاً قوياً كذلك فى سرعة انتشار الإسلام ، إذ لم يكن لقريش من الأمر والسلطان فى يثرب ما كان لها فى سائر العرب ، بل إن المكيين أنفسهم كانوا فى حاجة إلى أهل يثرب لحماية تجارتهم فى أثناء ذهابها إلى الشام وإيابها منها(٢).

**خامساً** : ويرى أحد علماء الاجتماع : « أن قوة سريان الإسلام فى يثرب ليس له شبيه فى تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية وأنه لا يمكن تعليله إلَّا أنه آية من الآيات التى تكشف عن أسرار الروح الإلهى وهو الإسلام ، وعن صحة رسالة الداعى إليه فهو معجزة خارقة للناموس الطبيعى ـــ وفى نظره ـــ أن كل تعليل غير هذا لا يقوى على النقد » .

ثم يقول : « وأما أنه معجزة فلأن قبيلتين صغيرتين هما الأوس والخزرج قد ألقى فى روعهم هداية اجتماعية على حين فجأة وهو أمر غير معتاد ، وثانياً : لأن هذا العدد الضئيل قبل أن يضطلع بعبء حماية الدعوة ضد الأبيض والأسود أى ضد العالم كله وهى مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فما ظنك بقبيلتين صغيرتين ضعيفتين فى الأهمية والموارد ، إن الإقدام المنطلق من هذه الجماعة غير مألوف فى النواميس المعتادة ، ويعجز الإنسان عن تعليله بالعلل الطبيعية . وكذا

---

(١) دراسات تاريخية العرب وظهور الإسلام . للدكتور محمد مصطفى النجار . ط شركة الطباعة المتحدة الفنية ص ٢٥٥ .

(٢) دراسات تاريخية . للدكتور عبد الفتاح شحاتة ج ٢ ص ٩٩ المدنى ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

لا أراه إلَّا آية إلٰهية »[1] .

وسواء أكان هذا أو ذاك فإن الأوس والخزرج قد قبلوا الإسلام . وكما أن دعوى الغيرةمن مكة قد ظهر بطلانها فكذلك لا تصح دعوى أن عصبية بنى النجار أقرباء النبى ﷺ بالمدينة كانت هى الداعية لقبول دعوة الإسلام ، فإنه كان أحرى بذلك القبول لوصحت هذه الدعوى عصبيته فى قريش ، وأيضاً فإن ذلك لو كان له أثر كما يفترى البعض لكان ذلك من جهة أخرى سبباً لجفول الأوس عنه وتوجسهم من قبول دعوته ، أما كثرة عدد الخزرج فى بيعتى العقبة فلعله راجع إلى كثرة عدد فروع هذه القبيلة وأفرادها .

والدليل على ذلك أن أهل المدينة اختاروا قبل دخولهم فى الإسلام عبد الله بن أبى بن سلول قريب الخزرجيين أميراً على المدينة ، وكاد أن ينصب فعلاً ألَّا أن اتباعهم للإسلام حال دون ذلك .

وفى هذا الاختيار دليل على أن قبيلة الخزرج كانت تتمتع بكثرة العدد ؛ لأن الإمارة عند العرب لا تكون إلَّا من القبيلة التى تتميز بالكثرة والمنعة .

## لقاء الرسول بالأنصار فى العقبة الثانية :

استطاع مصعب بن عمير أن يجمع حوله عصابة مؤمنة من أهل يثرب ، عقدت العزم على أن تلتقى برسول الله ﷺ : بمكة وتستقى منه العلم والدين مباشرة ، فخرج مصعب من المدينة ومعه سبعون[2] من أهل يثرب ــ وذلك فى موسم الحج من العالم الثالث عشر من البعثة النبوية الشريفة لملاقاة رسول الله

---

(١) الأستاذ محمد فريد وجدى ص ٢٠ المجلد الحادى عشر من مجلة الأزهر . نقلاً عن كتاب دراسات تاريخية . للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) اختلفت الروايات فى عدد الذين حضروا بيعة العقبة الثانية ؛ ففى رواية كعب بن مالك كما فى المسند أنهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان . وقال الحاكم : إن الذين حضروا البيعة كانوا خمسة وسبعين نفساً وهذا عين الأول إن لم يثبت أنه كان فيهم أكثر من امرأتين ، وقيل كانوا سبعين رجلاً كما ورد فى حديث جابر الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده وقطع به الحافظ فى سيرته وقدمه مغلطاى ــ كما فى المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٦٧ وقال ابن سعد فى طبقاته خرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين فى خمَر ــ أى جماعة الأوس والخزرج وهم خمسمائة ــ حتى قدموا على رسول الله ﷺ مكة « الطبقات الكبرى لأبى عبد الله محمد بن سعد ١ / ٢٠٥ .

ﷺ . قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه منا سبعون رجلاً ، حتى قدموا عليه فى الموسم ، فواعدناه شعب العقبة من أوسط أيام التشريق ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا[1] .

وعن كعب بن مالك : وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها قال : نمنا تلك الليلة ـــ ليلة العقبة ـــ مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا ، نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى مازن بن النجار ، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن ثابت إحدى نساء بنى سلمة وهى أم منيع »[2].

**العباس يستوثق للرسول :**

ولما تكامل وفد الأنصار بالشعب ، جلسوا ينتظرون رسول الله ﷺ ليبايعوه حتى جاءهم ﷺ ومعه يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلَّا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ـــ من هؤلاء الوفد ـــ فتكلم وقال :

يا معشر الخزرج ـــ وكانت العرب مما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج أوسها وخزرجها ـــ إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلَّا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك !! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت[3].

---

(١) أخرجه أحمد « ٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٩٤ » والحاكم « ٢ / ٦٢٤ ـــ ٦٢٥ » وقال صحيح الإسناد . وقال الحافظ ابن كثير « ٣ / ١٦٠ « من البداية والنهاية » وهذا إسناد جيد على شرط مسلم « وقال الحافظ فى « الفتح » « ١٥ / ٧٤ ، ٧٥ » رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ / ٤٦٢ قال ابن حجر فى الفتح ج ١٥ ص ٧٢ صححه ابن حبان

(٣) سبق تخريجه والحكم عليه المرجع السابق .

## عهد الرسول على الأنصار والمبايعة :

تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله « عز وجل » ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا(١) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة(٢) ، ورثناها كابراً عن كابر(٣) .

## اعتراض أبى الهيثم بن التيهان :

وكان أبو الهيثم بن التيهان حليف بنى عبد الأشهل ممن حضر القول فاعترض كلام البراء بن معرور وقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً(٤) وإنا قاطعوها ـــ يعنى العهود ـــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ .

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم(٥) الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

## مقولة العباس بن عبادة بن نضلة :

وعندما هم القوم بالبيعة اعترضهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ـــ أخو بنى سالم بن عوف ـــ قائلاً : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام

---

(١) أزرنا : أن نساءنا وأهلنا كنى عنهن بالأزر وقيل أراد أنفسنا وقد يكنى عن النفس بالإزار النهاية ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الحلقة . بسكون اللام السلاح عامة وقيل هى الدروع خاصة النهاية ١ / ٢٥١ .

(٣) حديث كعب السابق .

(٤) حبالاً : الحبال هى العهود والمواثيق ـــ النهاية ١ / ١٩٧ .

(٥) بل الدم الدم ، والهدم الهدم يروى بسكون الدال وفتحها فالهدم بالتحريك القَبْرُ يعنى إنى أقبر حيث تقبرون وقيل هو المنزل أى منزلكم منزلى كحديثه الآخر المحيا محياكم والممات مماتكم أى لا أفارقكم . والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً هو إهدار دم القتيل . يقال دماؤهم بينهم هَدْمٌ أى مهدرة ، والمعنى إن طُلِب دمكم فقد طلب دمى وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمى لاستحكام الألفة بيننا وهو معروف للعرب يقولون دمى دمك وهَدْمى هَدْمُك وذلك عند المعاهدة والنصرة « النهاية ٤ / ٢٤٢ / ٢٤٣ » .

تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن : فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكِةِ الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خيرُ الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ .

قال عليه الصلاة والسلام : الجنة .

قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم بن عمر بن قتادة : والله ما قال ذلك العباس إلّا ليشهد العقد لرسول الله ﷺ فى أعناقهم .

وأما عبد الله بن أبى بكر فقال : ما قال ذلك العباس إلّا ليؤخر القوم تلك الليلة ، رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبى بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم . فالله أعلم أى ذلك كان(١) .

**مقالة أسعد بن زرارة :**

وعندما قام القوم ليبايعوا رسول الله ﷺ أخذ بيده أسعد بن زرارة — وهو من أصغرهم — وقال : رويداً يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلّا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف .

فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وأما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله ! .

قالوا أمط عنايا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً ، قال جابر راوى الحديث : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا الجنة(٢) .

(١) مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٦٢ سبق الحكم عليه .
(٢) مسند الإمام أحمد ٣ / ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٩٤ ، والحاكم ٢ / ٦٢٤ — ٦٢٥ وسبق الحكم عليه

## أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ :

اختلف الرواة فى أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ لمبايعته ؛ فقد روى الإمام أحمد عن معبد بن كعب عن أخيه عن أبيه كعب بن مالك قال : « أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم تتابع القوم(١) .

وكذلك روى ابن إسحاق أيضاً أن البراء أول من بايع ثم بايع القوم(٢) .

وابن سعد فى طبقاته روى عن سليمان بن نجم قال : تفاخرت الأوس والخزرج فيمن ضرب على يد رسول الله ﷺ ليلة العقبة أول الناس فقالوا :

لا أحد أعلم بهذا من العباس بن عبد المطلب فسألوه فقال : ما أحد أعلم بهذا منى ، أول من ضرب على يده ﷺ ، تلك الليلة ، أسعد بن زرارة ، ثم البراء بن معرور ثم أسيد بن الحضير(٣) .

وكذلك قال ابن إسحاق فى رواية أخرى إن بنى النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده .

وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان(٤) .

وابن الأثير روى أن بنى سلمة يزعمون أن أول من بايعه ﷺ ليلتئذ ـــ كعب بن مالك(٥) .

## أسماء النقباء الاثنى عشر :

وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من بيعتهم جميعاً « رضوان الله عليهم » ، طلب منهم أن يخرجوا من بينهم اثنى عشر نقيباً(٦) قائلاً لهم :

(١) الحديث السابق .
(٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٧ .
(٣) شرح المواهب ١ / ٣٦٧ .
(٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٧ .
(٥) النهاية ٣ / ١٦٣ .
(٦) النقيب هو كالعريف على القوم المقدم عليهم الذى يتعرف أخبارهم وينقِّبُ عن أحوالهم أى يفتش ، وكان النبى ﷺ قد جعل ليلة العقبة لكل جماعة من الذين بايعوه بها نقيباً على قومه وجماعته ليأخذوا عليهم الإسلام ويعرفوهم شرائطه ، وكانوا اثنى عشر نقيباً كلهم من الأنصار وكان عبادة بن الصامت منهم ـــ النهاية ٤ / ١٦٨ .

« أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، يكونون على قومهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، منهم تسعة من الخزرج وهم :

١ ــ أبو أمامة أسعد بن زرارة .
٢ ــ وسعد بن الربيع .
٣ ــ وعبد الله بن رواحة .
٤ ــ ورافع بن مالك .
٥ ــ والبراء بن معرور .
٦ ــ وعبد الله بن عمرو بن حرام .
٧ ــ وعبادة بن الصامت .
٨ ــ وسعد بن عبادة .
٩ ــ والمنذر بن عمرو بن خنيس .

وثلاثة من الأوس وهم :

١٠ ــ أسيد بن حضير .
١١ ــ وسعد بن خيثمة بن الحارث .
١٢ ــ ورفاعة بن المنذر[١] .

قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة . واستشهد على ذلك بقصيدة كعب بن مالك فى النقباء فإنه ذكر فيهم « أبا الهيثم ، ولم يذكر رفاعة . « وهو كذلك فى رواية يونس عن ابن إسحاق . واختاره السهيلى وابن الأثير »[٢] .

## صرخات الشيطان لإخبار أهل مكة بالبيعة :

تمت بيعة العقبة بما فيها من أحداث فى جوف الليل فى شعب العقبة والقوم على ثقة من أنه لا يطلع عليهم أحد إلّا الله ، لكنهم ما كادوا يتمونها حتى سمعوا

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ٤٦٢ . « سبق الحكم عليه » .
(٢) البداية والنهاية ٣ / ١٦١ .

صوتاً يصيح بقريش من رأى العقبة قائلاً لهم : يا أهل الجباجب(١)ــ والجباجب المنازل ــ هل لكم فى مُذَمَّم(٢) والصباة(٣) معه ، قد أجمعوا على حربكم ، قال على يعنى ابن إسحاق ــ ما يقول عدو الله ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أذب(٤) العقبة ، هذا ابن أذيب ، اسمع أى عدو الله والله لأفرغن لك . ثم قال رسول الله ﷺ : ارفضوا(٥) إلى رحالكم . فقال العباس بن عبادة بن نضلة ، والذى بعثك بالحق لئن شئت لنملين على أهل منى غداً بأسيافنا فقال رسول الله ﷺ : لم أومر بذلك ، فرجع القوم إلى رحالهم(٦) .

**موقف قريش من العقبة :**

بلغ الخبر لقريش ، ففزعوا لذلك فزعاً شديداً ، وفى الصباح غدت جلة من قريش حتى جاءوامنازل الخزرج ، فقالوا لهم :

يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، والله إنه ما من العرب أحد أبغض إلينا ، أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم ، فانبعثت من هنالك من مشركى يثرب يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شىء ، وما علموه ، وقد صدقوا لأنهم لم يعلموه .

وأما المسلمون فجعل بعضهم ينظر إلى بعض(٧) .

(١) الجُبَاجب : هى جمع جبجب بالضم وهو المستوى من الأرض ليس بحَزْن ، وهى ها هنا أسماء منازل بمنى ، سميت به قيل ، لأن كروش الأضاحى تُلقى فيها أيام الحج ، والجَبْجَبَة الكرش يُجْعَل فيها اللحم يُتَزَوَّد فى الأسفار ــ النهاية ١ / ١٤١ .

(٢) المذم : بذال معجمة المذموم جداً ، وأرادت قريش عكس اسم النبى ﷺ فكانوا يقولون عوض محمد : مذمم بوزنه وعكس معناه ، وكذبوا بل محمد من كثرة خصالة المحمودة وكذلك كان النبى ﷺ وهو اسم صادق على مسماه .

(٣) الصباة : بضم الصاد المهملة هو جمع صابىء وهو الخارج من دين إلى دين غيره من قولهم صبأناب البعير إذا طلع وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها ، وكانت العرب تسمى النبى ﷺ الصابىء لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام ــ النهاية ٢ / ٢٤٨ .

(٤) أذب العقبة : هو شيطان اسمه أذب العقبة النهاية ١ / ٢٨ .

(٥) ارفضوا إلى رحالكم : أى تفرقوا ــ النهاية ٢ / ٩٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٦٢ قال ابن حجر فى الفتح صححه ابن حبان ج ١٥ ص ٧٢ فتح البارى وقال الهيثمى فى المجمع ج ٦ ص ٤٥ رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق . وقد صرح بالسماع .

(٧) المرجع السابق .

## وقفة مع أحداث هذه البيعة :

**أولاً** : إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتفشت فى كل كلمة قيلت وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التى توجه الحديث أو تملى العهود كلا ، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم ، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة .

مغانم ؟ أين موضع المغانم فى هذه البيعة ؟ لقد قام الأمر على التجرد المحض والبذل الخالص .

هذه الفئة المؤمنة من الأنصار مثل لانتشار الإسلام ، عن طريق الفكر الحر والاقتناع الخالص . فقد جاءوا من « يثرب » مؤمنين أشد الإيمان . وملبين داعى التضحية ، مع أن معرفتهم بالنبى ، كانت لمحة عابرة . غبرت عليها الأيام. وكان الظن بها أن تزول .

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة ، إنه القرآن !! لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلّا لماماً ، فإن الوحى المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية .

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن . سال على ألسنة الحفاظ ، وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة . والقرآن النازل بمكة . صوّر جزاء الآخرة رأى العين .

فتوشك أن تمد يدك . تقطف من أثمار الجنة ، انظر لقول الحق « تبارك وتعالى » فى سورة الحاقة : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾[1] .

فهذه الآيات نزلت فى مكة تصور الثواب فى الآخرة للناس حتى كأنهم يرونها من الأعمال الصالحة حتى يستطيع الأعرابى المتعشق للحق أن ينتقل فى لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم .

---

(١) سورة الحاقة آيات ١٩ : ٢٤ .

وكذلك حكى القرآن أخبار الأولين . وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم وكيف طغى الكفار . وأسكرهم الإسهال فتعنتوا وتجبروا حتى حلّ بهم العدل الإلهى . فذهب الظالمون بدداً. وتركوا وراءهم دنيا مدبرة . ودوراً خربة . انظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ . وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾(١).

فقد كشفت الآيات عن المصير المؤلم الذى انتهى إليه أمر الكفار المعاندين والهلاك الذى نزل بهم بما فيه من عبرة وعظة تهدد كل من يقفون محاربين لدعوة الله ومعادين لرسوله . مما كان له أكبر الأثر فى إسراع الأنصار إلى الاستجابة طمعاً فى رضا الله . وخوفاً من عقابه فقد رأوا نهاية الظالمين وكيف أحاط بهم عذاب الله .

**فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم**

ثم إن الرسول ﷺ جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين فى المشرق والمغرب .

فالمسلم فى المدينة وإن لم ير أخاه المستضعف فى مكة ــ يحنو عليه ــ ويتعصب له . ويغضب من ظالمه . ويقاتل دونه ــ وذلك ما استقدم الأنصار من

---

(١) سورة هود ايات : ٦١ : ٦٨ .

يثرب تجيش فى حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب فى ذات الله .

عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله . فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبى الله ﷺ » فقال يا نبى الله : ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ! . انعتهم لنا — يعنى صفهم لنا — فسر وجه النبى ﷺ لسؤال الأعرابى وقال : هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل . لم تصل بينهم أرحام متقاربة . تحابوا فى الله وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) .

الإيمان بالله ، والحب فيه ، والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع فى النفوس المجتمعه فى ظلام الليل بجوار مكة السادرة فى غيها ، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم ، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء .

إن مشركى مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام فى نطاق لا يعدوه ، وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذى اقترف الإثم وأمن القصاص .

**حسنت ظنونك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف بسوء ما يأتى به القدر**
**وسالمتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر**

أجل ، ففى هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية وأن ينتهوا بالجاهلية إلى الفناء(٢) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٣٤٣ والحاكم فى المستدرك ٤ / ١٧٠ ط المطبعة الحديثة قال المنذرى ٤ « ٤٨ » : رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن ، والحاكم قال : صحيح الإسناد وهو عند الحاكم عن ابن عمر وقال : هو صحيح الإسناد .

(٢) فقه السيرة للغزالى من ص ١٦١ إلى ص ١٦٣ بتصرف .

**ثانياً** : إن هذه البيعة تدل دلالة واضحة على صدق محمد ﷺ وإخلاصه ، ولو قارنا بينها وبين من يضعون المعاهدات السياسية لوجدنا أن المعاهدات السياسية ترتكن إلى حقوق ذاتية تكون أجراً مادياً مكافئاً للتعاون والتناصر فتفسح مجال الإغراء بما تبسط من وعود وتزلف من أحلام ، وأن كلا الفريقين ليترقب الخير العاجل لنفسه سائراً إليه على بساط من التمويه والتضليل ! أما محمد فلا يعد بشيء دنيوى ولا يتحمل حقوقاً خاصة لفريق خاص ! وهنا يشع جوهره الصادق كاشفاً عن منبع اليقين فى ذات نفسه ، ولو كان ـــ حاشا لله ـــ إنساناً وصولياً ، لانتهز الفرصة السانحة مع أهل المدينة بعد أن جافاه القريب والبعيد ولامتد ببساط الآمال مع حلفائه إلى حدٍّ يجعلهم وحدهم أصحاب حق أكيد في السيطرة والرياسة تلزمه المعاهدة وتقوم عليه المبايعة ! ولكنه قبل كل شيء رسول الإنسانية الصادق ، وصاحب الخلق العظيم ، وقد نهض برسالة تقوم على المساواة العادلة ! ومن مبادئها الرفيعة ألا يخص بالجاه النافذ فريقاً دون فريق ، لأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين(١).

**ثالثاً** : جاءت بيعة العقبة الأولى بعد اللقاء الأول بين النبى ﷺ والخزرج وبهم انتقل الإسلام إلى يثرب التى أعدها الله « سبحانه وتعالى » لتكون المدينة الفاضلة مدينة الرسول ﷺ ، وقام هذا الوفد بتبليغ رسالة الله « سبحانه وتعالى » فى هذه المدينة دون خوف أو خشية من أحد سوى الله « سبحانه وتعالى » وكفى به حسيباً . يقول سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً** ﴾(٢) أى إن الذين يبلغون رسالة الله إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها ويخافونه تعالى فى كل ما يأتون ويذرون ، ولا سيما فى أمر تبليغ الرسالة ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى لأن الله « سبحانه وتعالى » كاف لهم بالنصر والإعانة(٣).

وكأن هؤلاء الأنصار يؤمنون إيماناً صادقاً بهذه المعانى حتى استطاعوا أن

---

(١) معارك الإسلام فى العصر النبوى . للدكتور محمد رجب البيومى ص ٩ . ط أولى بمطبعة السعادة بالقاهرة ط ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٤٩٢ بتصرف .

يمهدوا مع معلمهم الأول مصعب بن عُمير لبيعة العقبة الثانية بعد أن فشا الإسلام بينهم ، وكانت هذه البيعة الثانية تمهيداً لانتقال الرسول والمسلمين إلى المدينة المنورة بالهجرة . ويظهر أن بيعة العقبة هذه كانت فى آخر موسم حضره النبى ﷺ بمكة المكرمة ، وأما العقبة الأولى فكانت فى الموسم الذى قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالإيواء والنصرة .

ويظهر أن خبر اتصال النبى ﷺ كان يتسرب إلى القرشيين ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم . إذا رأوا أن النبى ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل ، وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة إلى التوحيد من بين ظهرانيهم إلى العرب ، وأنهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم .

وقد رأينا فيما مضى كيف كان المشركون يتعقبون الرسول ﷺ فى مواسم الحج وغيرها لكى يحولوا بينه وبين تبليغه لدعوة ربه .

لذلك عندما جاء مصعب بن عمير من المدينة « يثرب » هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الأوس والخزرج ، قد أسلموا وقد كان معهم من سكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنيتهم ، ولم يذوقوا بعد بشاشة الإسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبى بن سلول الذى أكله بغض الإسلام والمسلمين حتى صار رأس النفاق فى المدينة المنورة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويبثها ، ويثيرها حيثما وجد إلى ذلك سبيلاً .

ولقد أخذ النبى ﷺ حذره من ناحيتين :

**أولاهما** : من ناحية قريش الذين حسبوا أن أمراً يدبر من ورائهم ، ولقد كانت عيونهم تبث من حوله .

**ثانيتهما** : من ناحية أولئك المشركين الذين صحبوا المسلمين من الأوس والخزرج ، ولعله ﷺ فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش وفريق المشركين الذين صحبوا وفد الإيمان .

ولهذا لم يلتق بهم فى أول حضورهم لأخذ البيعة عليهم ، بل ضرب لهم

موعداً فى أيام منى(١) عند العقبة فى جوف الليل فى أواسط أيام التشريق وطلب إليهم أن يتكتموا الأمر .. حتى لا تحبط الخطة !! ولقد وفى الأنصار لذلك أشد وفاء ، فكتموا الأمر حتى على المشركين من أهليهم الذين جاءوا معهم(٢) .

رابعاً : فى مقالة العباس عم الرسول ﷺ الموجهة لمن بايعوا النبى من أهل يثرب والتى تحمل بعض التحذيرات لأولئك النفر من أن يسلموا النبى ﷺ فى آجل أمرهم . هذه المقالة مما تجرى به العادة حين يروم القريب أن يأخذ الحذر لقريبه من قوم هم حديثو عهد بمخالطتهم . فأما قوله لشهود البيعة من أهل يثرب عن الرسول ﷺ « وهو فى عز من قومه ومنعة من بلده » فلعل ذلك مما أملته عليه الحمية العربية أو عصبية القرابة وإلّا فهذا القول من العباس معاكس للوضع الذى كان عليه الرسول ﷺ ومن تابعه بين قومهم إلّا أن يكون العباس بن عبد المطلب قد أراد بالمنعة منعة العنصر والنسب لا منعته أو مؤازرته فيما كان يدعو إليه(٣) .

وأما قوله « وقد أبى إلّا الانحياز إليكم واللحوق بكم » أى قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ربما يفيد أن الناس غير الأنصار وافقوه على مناصرته فأباهم ، ولا يساعد علي ذلك ما تقدم من إعراض القبائل عنه ولكن يحتمل أن يكون المراد بالناس الذين أباهم محمد ﷺ أهله وعشيرته ، والله أعلم(٤) .

**خامساً** : فى قول رسول الله ﷺ للوفد وتمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . له مغزى ومعنى .

وهو أن للنساء لدى العرب حرمات يبذلون من أجل صيانتها والذود عنها دماءهم ، لأدنى مساس بها(٥) .

(١) خاتم النبيين للشيخ محمد أبوزهرة ١ / ٤٩٨ / ٤٩٩ . بتصرف .
(٢) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ٤٨٩ .
(٣) فصول من السيرة النبوية . للدكتور عبد المنعم السيد حسن / ١٢٥ ، ١٢٦ ط دار المطبوعات الدولية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .
(٤) إنسان العيون المعروف بالسيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبى ٢ / ١٨ .
(٥) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق للدكتور محمد عبد الله السمان ص ١٩٦ .

**سادساً** : فى قول البراء بن معرور لرسول ﷺ والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه نساءنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابراً عن كابر . نقول : إن هذا القول يحمل الإخلاص لله والوفاء للحق والفناء فى الدعوة ما لا يمكن وصفه بالكلمات ، فقد أبدى هذا الصحابى الجليل استعداداً كريماً للتضحية والذود عن رسول الله ، ووضع كفاءته القتالية هو وقومه فى خدْمة الدعوة والداعية . وكانت هذه الكلمات أيضاً صريحة مضيئة ليس فيها التواء المعاهدات السياسية ، ولا مناورات الأحلاف المشبوهة ، ومن ثم بقيت تلك الكلمات نصوصاً حية معبرة لأسمى المعاهدات التاريخية تقرأ فيها الأجيال الحديثة معنى صدق الكلمة وشرفها والوفاء لها[1] لكي يلتزموا بذلك في حياتهم تجاه دينهم ودعوتهم فيستطيعوا بذلك تحقيق هدفهم الأسمى ألا وهو تبليغ دعوة الله إلى الناس كافة ؛ وبذلك يكونون قد قاموا برسالتهم كاملة فى هذه الحياة .

**سابعاً** : فى قول أبى الهيثم بن التيهان لرسول الله ﷺ يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال ـــ يعنى اليهود حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

نقول فى قول أبى الهيثم هذا صدق في الحديث وحرية فى الرأى وجرأة منه « رضوان الله عليه » فى مواجهة رسول الله ﷺ ، فهو يقول لرسول الله ﷺ : وبعد أن ضمنت وفاءنا لك بما تعاهدنا عليه نريد أن نضمن نحن أيضاً وفاءك لنا أم أنك سوف تنتصر بنا ثم بعد ذلك تتركنا لليهود .

إنه كلام فى منتهى الصدق والصراحة ؛ لأن هذا الصحابى الجليل أراد أن يحتاط لنفسه ولقومه وأراد أن يشترط كذلك لنفسه ولقومه كما اشترط رسول الله ﷺ لربه ولنفسه .

وفى تبسم الرسول وقوله لهم بل الدم الدم ، الهدم الهدم إلخ فهذا أيسر ما يطمئن به أولئك المبايعون على مصيرهم ، وأيسر ما يسدى إليهم من معروف على

---

(١) أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ بتصرف .

الجميل الذى أسدوه إليه حين حالفوه على السمع والطاعة وأن يمنعوه من كل المتربصين به ، كما كان هذا القول الكريم منه ﷺ رداً على ما قالوه من أن بينهم وبين اليهود حبالاً هم قاطعوها . وعلى ما أبدوه من حذر وتخوف فى قولهم « فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟(١).

**ثامناً** : قد يتعلق فى بعض الأذهان شبهة خلاصتها أن أهل يثرب قد وقر فى أذهانهم أنهم بايعوا رسول الله ﷺ على حرب قريش والنيل منهم ، وأن ذلك كان أبرز بنود هذه البيعة لما جاء فى ثنايا تحاورهم مع رسول الله ﷺ : من مثل قولهم على لسان العباس بن عبادة « أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس » .

وقد تتضخم هذه الشبهة حتى تخيل لبعض الأذهان أن الرسول ﷺ قد اعتزم قتال قريش ومن على شاكلتهم منذ اللحظة الأولى لالتماسه النصرة بين أهل يثرب وأن أهل يثرب قد فهموا ذلك منه .

ومن ثم صارح بعضهم بعضاً بما قد يستقبلونه من أمرهم مع ذلك النبى الذى دخلوا فى دينه ، وقد تنمو هذه الشبهة فى ذهن من وفدت على ذهنه مع ما اتصل بها من شوائب وتصورات خاطئة حتى تفضى بمتوهمها إلى ما تردد على ألسنة خصوم الإسلام من أن الإسلام لم يعرف طريقه إلى أقطار الأرض وتبعاً لذلك لم يعرف طريقه إلى كثير من القلوب إلّا عن طريق الاستنصار بالسيف وإعلان النفير العام للحرب .

يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد حسن فى كتابه فصول من السيرة النبوية « رداً على هذه الشبهة من منبتها :

إن هذا القول الصادر من أنصار يثرب يرد فى منشئه إلى توقعات القوم وهيئاتهم التى كانوا عليها مع جيرانهم من اليهود .

فغلب على ظنهم أنهم لا بد خائضون حرباً مع الرسول ﷺ فى مواجهة قومه ولهم العذر فى ذلك .

---

(١) فصول من السيرة النبوية للدكتور عبد المنعم السيد حسن ج ١ ص ١٢٨ .

فتلك كانت طبيعة الأحلاف الملتمسة يومئذ خصوصاً إذا أخذنا فى اعتبارنا توعد اليهود لهم بمبعث النبى ﷺ ، واعتزامهم الانضمام إليه ليقتلوا الأوس والخزرج معه كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

يضاف إلى ذلك أنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام الذى يقضى بطبيعة رسالته بإحلال الوفاق محل الشقاق ، فلم يكن ذلك قد تغلغل بعد فى نفوسهم .

كما أن من شأن المعاهدات أن يؤكد فيها المتعاهدون نصر بعضهم بعضاً على كل ما يجد لهم من أحداث مرتقبة أو غير مرتقبة .

فأما الرسول ﷺ فلم يكن يدور بخلده يومئذ فيما نحسب أن يجندهم لقتال لم يحن حينه بدليل أنه قال لهم : « لم نؤمر بذلك » يعنى القتال حين قالوا له لو شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا .

وغاية ما كان ﷺ ينشده من وراء ذلك الحلف الذى تم بينه وبين جماعة من أهل يثرب أنه كان يبغى جمع أكبر عدد ممكن أو متاح على الحق الذى بعث به .

ومما يؤيد ما قلناه أنه ﷺ عرض نفسه ودعوته على أهل ثقيف بالطائف وغيرهما عسى أن يجد من بينهم من ينضوى تحت لواء دينه ، ولم يكن يخالج خاطره وقلبه أن يقاتل أهل مكة بمن قد يدخلون فى دينه من هذه القبائل(١) .

## تاسعاً : أما عن النقباء الاثنى عشر فنقول

كل نظام جديد يراد له النجاح لا بد له من تخطيط ، وتنظيم ومتابعة وبدون ذلك لا يمكن أن ينجح ، فقد تكون المبادىء صالحة ، ولكن ما قيمتها إذا لم تلتزم ؟ .

لا بد إذن من عمل تنظيمى دقيق — يقوم على تخطيط واع — يسهر على تطبيقه جماعة تكون مسئولة عن التنفيذ والالتزام !! وإذا كان هذا هو قمة ما توصل إليه العصر الحديث فإن الرسول ﷺ قد مارس هذا التخطيط بكل أبعاده التى تكفل له التطبيق الصحيح منذ بيعة العقبة الأولى . فقد برز فيها عنصر التنظيم

(١) فصول من السيرة النبوية . للدكتور عبد المنعم السيد حسن ص ١٢٦ : ١٢٨ .

الرائع متمثلاً فى التزام الجماعة ، وتحديد دورها ثم إقامة النقباء فى البيعة الثانية . ولعل ما ساد البيعة من فهم حر ، ونقاش مثمر ، قد أرسى قواعد التطبيق على أسس سليمة لا غموض فيها ولا لبس !! .

إننا نجد أنفسنا فى هذه البيعة أمام عمل تنظيمى سابق لعصره ، فالرسول لا يكتفى بالمبايعة ووضوح المبادىء وإنما يقسم من حضر البيعة إلى أسر صغيرة ، ويجعل على كل مجموعة من هذه المجموعات الصغيرة نقيباً يتولى الإشراف على التنفيذ ، ومراقبة الالتزام ، وصحة التطبيق ودقة المتابعة ويكون مسئولاً مسئولية تامة عن جماعته(١).

و الملاحظ أن الرسول ﷺ هو الذى طلب من القوم أن يختاروا منهم اثنى عشر نقيباً ، كان له ــ وحسب ــ تحديد عدد النقباء ، لكنه ترك للقوم أن يختاروهم بأنفسهم وينتخبوهم من بينهم ، وذلك لأنهم أدرى برجالهم ، ولو أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو الذى عين أولئك النقباء الاثنى عشر ، لما وسع القوم إلّا السمع والطاعة والنزول على رغبته ، لكن بعد نظره ، لم يقم بهذه المهمة وتركها لهم ، فهو أولاً حديث عهد برجالهم ، وثانياً ليضع قاعدة سليمة من قواعد التنظيم السياسى ، قاعدة تعتبر من أرقى قواعد التنظيم السياسى ، كالقيادات الشعبية لا تفرض على الشعب فرضاً ، وإنما يختارها الشعب بنفسه عن رضا وإرادة حرة ... وكان هذا العمل بداية للتمرس على التنظيم السياسى ، وتمهيداً لتنظيم أشمل .. للدولة الإسلامية .. فى يثرب(٢) .. وقد روى ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قال للنقباء بعد اختيارهم : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى .

كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾(٣) .

إنها مهمة تنظيمية من الطراز الأول . مهمة حماية ورعاية وإشراف ، تضع كل جماعة مع كفيل أو نقيب يكون مسئولاً عنها أمام نقيب النقباء ، وإن شئت

(١) أضواء على الهجرة . لتوفيق محمد سبع ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ بتصرف .
(٢) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق . للدكتور محمد عبد الله السمان ص ١٩٥ .
(٣) سورة آل عمران آية ٥٢ .

فقل أمام النقيب العام وهو الرسول الكريم الذى يأخذ دور المسئول العام عن المسلمين ، أليس يأسرك هذا التنظيم ويأخذ بلبك ؟ كذلك برزت الجماعة الأولى للإسلام !!(١) .

وقديما مارس سيدنا موسى « عليه الصلاة والسلام » تلك المهمة فى بنى إسرائيل ، حيث اتخذ اثنى عشر نقيباً أيضاً ليكونوا كفلاء على قومهم بالوفاء لله تعالى بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به ونهاهم عنه(٢) قال تعالى مبيناً ذلك : ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً** ﴾(٣) .

**عاشرا** : بهذه البيعة المباركة تغير سير الدعوة الإسلامية وتطورت بعدها الحوادث تطوراً سريعاً بين المسلمين وقريش .

فالمسلمون انفتحت أمامهم أبواب من الآمال واسعة ،، وأحسوا بعدها بما يحس به المكروب الذى وجد الفرج بعد الضيق ، والأمل بعد اليأس . والأمن بعد الخوف ، فأخذ يتنفس بملء رئتيه تنفس الراحة والطمأنينة . فقد قضوا فى مكة ثلاثة عشر عاماً وهم قليل مستضعفون فى الأرض ، يذوقون ألوان العذاب والاضطهاد ، ويمتحنون فى إيمانهم أشد الامتحان ، فقتل منهم من قتل ، وفتن منهم من فتن ، وصبر منهم من صبر ، وفر بدينه من فر ، حتى أصبحوا واليأس يكاد يغلبهم على أمرهم لولا أن عصم الله قلوبهم بالإيمان ، وأيدهم بروح منه . فلما تمت هذه البيعة بين رسول الله والأنصار ملأ الأمل قلوبهم ، وأيقنوا أن نصر الله قريب ، فجعلوا يتسابقون فى الهجرة إلى يثرب ، فارين بدينهم إلى الله ، مضحين بكل ما يحرص عليه الناس من عرض الحياة الدنيا .

وأما قريش فقد أخذت أخذاً بهذه البيعة ، وفوجئت بما لم يكن لها فى حسبان ، فقد ظنت قريش أنها قد سيطرت على الموقف من جميع نواحيه ، وأنها استطاعت أن تحبس الدعوة بين جبال مكة ، وأن تؤثر على قلوب العرب فتحول بينهم وبينها إلى الأبد . كما ظنت أنها بما كان لها من المهابة بين العرب ، قد أمنت أن يعتدى على حرمتها أحد ، أو يقف منها أحد موقف التحدى والعداوة بمناصرة هذه

---

(١) أضواء على الهجرة ص ٣٠٧ .
(٢) الألوسى ج ٦ ص ٨٥ ، ٨٦ بتصرف .
(٣) سورة المائدة آية ١٢ .

الدعوة ، وعلى أساس هذا الظن أمنوا واطمأنوا ، وأيقنوا أن العرب جميعاً لن يؤمنوا بهذه الدعوة ، ولن يؤيدوا صاحبها بالمنعة والمؤازرة ، فلما علموا بأن الأوس والخزرج من أهل المدينة ، قد تابعوا محمداً ، وبايعوه على أن ينصروه ويمنعوه ممن خالفه .. صدموا بهذا النبإ صدمة عنيفة ، وزلزلوا زلزالاً شديداً وطاشت أحلامهم ، واضطرب تفكيرهم ، وانقلبوا يلاحقون الأنصار فى كل طريق ، ويطلبونهم فى كل وجه ، يريدون أن ينتزعوا من أعناقهم هذه البيعة الخطيرة(١) التى أوجدت لدعوة الرسول مأوى فى يثرب ، فظهر غضبهم فى تتبع القوم وفى الأذى الذى أنزلوه بسعد بن عبادة وهو الذى أدركوه من أهل البيعة فقط ، أما غيره فقد اجتازوا الطريق ورحلوا ، قبل أن يصل مشركو مكة إليهم ، ولو أدركوهم فوق السبعين لا يعلم إلّا الله تعالى كيف تكون العاقبة . ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الإسلام ولو قليلة وقوة الشرك ، وإن كانت كثيرة ، ولعل المشركين أدركوا بأن عهد الاستضعاف أوشك على نهايته . والله ولى الصابرين(٢)

**حادى عشر** : ولقد كانت هذه البيعة حداً فاصلاً بين عهدين من عهود الدعوة .. كان أولها عهد ابتلاء واختبار وهو العهد المكى الذى عاش المسلمون فيه قلة مستضعفين بين عدو قاهر جبار ، يسومهم سوء العذاب ، ويذيقهم من صنوف الأذى ما لا يمكن أن يطاق ، ولا أن يحتمله بشر من الناس ، إلّا أن يكون له مدد قوى من الإيمان الصادق واليقين الثابت . وكأنما كان ذلك امتحاناً من الله لهم ، أراد به تمحيصهم ، وإعدادهم ليكونوا نماذج للعقيدة .

* * *

---

(١) صور من حياة الرسول لأمين دويدار ص ٢٢٦ ، ٢٣٠ بتصرف .
(٢) خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة ج ١ ص ٥٠٤ .

# الفصل الثانى

## تنفيذ الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية ورجع الأنصار إلى المدينة ، قاموا بنشر الدعوة الإسلامية فيها على أوسع نطاق حتى انتشر الإسلام بين أهل المدينة انتشاراً لم يكن يتوقعه أحد ، وبذلك أصبح للمسلمين إخوان مؤمنون صادقون فى دار أمن وإيمان ، وإسلام وسلام ، وهى المدينة .

وقد آلم المشركين وقض مضاجعهم انتشار الإسلام بالمدينة هذا الانتشار السريع فأوغلوا فى إيذاء المسلمين ونالوا منهم غاية النيل ، وضيقوا عليهم السبل والمسالك[(١)] وبلغوا فى ذلك حداً لا يمكن معه البقاء .

وما قيمة البقاء فى بلد يفتن فيه المرء ويضرب ويهان بالغداة والعشى ، ولا يتمكن فيه من عبادة ربه وإقامة شعائر دينه ؟ .

وإنه ليغدو ويروح بين حياة وثنية وقوم غلاظ قساة لا يجدى معهم إنذار ولا وعيد[(٢)] ، لأن الله « سبحانه وتعالى » قد أحدث فى نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصى واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم ، وانهماكهم فى التقليد ، وإعراضهم عن النظر الصحيح ولهم بذلك عذاب عظيم ، لا يساويه أى عذاب . قال تعالى : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[(٣)] .

---

(١) السير النبوية فى ضوء القرآن والسنة للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة ج ١ ص ٤٧٦ .

(٢) أضواء على الهجرة للشيخ توفيق محمد سبع ص ٣١٥ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٦ ، ٧ .

لهذا كان من الحكمة أن يفر المسلمون بدينهم إلى ربهم ، إلى حيث الأفق الصافى ، والأرض الطيبة ، والبيئة الخصبة النقية التى تجاوبت مع الإسلام منذ سمعته . وتكونت من أهلها طلائع كريمة ، تبذل أرواحها فى سماحة ويسر ، من أجل مستقبل هذه الدعوة ، حتى أصبحت جديرة بأن تكون مركزاً لانتشارها .

## الرسول يأذن لأصحابه بالهجرة :

لما كان أمر المسلمين فى مكة على الوجه الذى وصفنا أذن الله « سبحانه وتعالى » لنبيه ﷺ أن يأمر صحابته بالهجرة إلى المدينة(أ) . فى قرآنه قال تعالى : ﴿ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ ﴾(١).

هذه الآية الكريمة نزلت فى تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ، لأن البقاء فى بقعة على أذى الكفار ليس بصواب . بل الصواب أن يتلمس عبادة الله فى أرضه مع صالحى عباده ، أى إن كنتم فى ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة ، لإظهار التوحيد بها(٢) .

(ب) وبإيحائه إليه فى المنام :

فقد رأى ﷺ فيما يرى النائم أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب ظنه إلى أنها اليمامة أو هجر(٣) ثم استبان له بعد ذلك أنها المدينة ؛ فقد روى البخارى بسنده أن النبى ﷺ قال :

« رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى(٤) ، إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هى المدينة يثرب »(٥) .

عند ذلك أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة فوافق ذلك هوى فى نفوسهم ، فخرجوا إليها أرسالاً وفرادى منهم من خرج مستعلناً كالفاروق عمر بن

---

(١) سورة العنكبوت آية ٥٦ .

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٦ ص ٥٠٧٣ .

(٣) اليمامة بلد بنجد بالجزيرة ، وهجر بلد بالبحرين وهى من بلاد عبد القيس ، وقد سبقوا غيرهم من القرى إلى الإسلام فتح البارى ١٥ / ٧٩ .

(٤) وهلى : وهَل الشىء بالفتح يهِل بالكسر وهْلاً بالسكون إذا ذهب وهْمُه إليه . النهاية ٤ / ٢٣٤ .

(٥) البخارى كتاب المبعث النبوى باب هجرة النبى وصحابته للمدينة .

الخطاب « رضى الله عنه » ، ومن صحبه وأبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، ومنهم من خرج مستخفياً وهم الضعفاء ، والموالى كصهيب الرومى ، ورجع الكثيرون ممن هاجر للحبشة إلى مكة ، ثم هاجروا منها إلى المدينة .

## أول مهاجر إلى المدينة :

وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ سيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد[1] ، وذلك قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قد عاد من الحبشة إلى مكة ، فآذاه أهلها ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، وإذن النبى لأصحابه بالهجرة إلى المدينة فتوجه إليها مهاجراً ومعه زوجه أم سلمة وابنهما سلمة وخرج يقود بهما بعيره ؛ فلما رأته رجال من بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم ــ هم عشيرة زوجه وابنة عمه أم سلمة ــ قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك قد غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده ، وانتزعوها منه فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ــ رهط أبى سلمة ــ فقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إن نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا « سلمة » فيما بينهم حتى خلعت يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وأما أم سلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم ، وفرقوا بينها وبين زوجها وولدها ، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً ، ولم يلو على أهل ، ولا ولد ، ولا مال حتى وصل إلى قباء فأقام بها حتى وصلت إليه زوجه بعد عام .

## أم سلمة :

أما أم سلمة فكانت تخرج كل غداة ، فتجلس على الأبطح ، فما تزال تبكى ، حتى تمسى : واستمرت على ذلك سنة أو قريباً منها حتى مر بها رجل من بنى عمها ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بها . فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه

---

(١) هو أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، واسمه عبد الله وهو أخو رسول الله ﷺ من الرضاع ، أرضعتهما ثويبة جارية أبى لهب ، وابن عمته برة بنت عبد المطلب وهو من السابقين الأولين ،ومن خيار المسلمين ، استشهد بعد أحد فى أوائل السنة الرابعة للهجرة انظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ج ٣ ص ٩٥ .

المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! فقالوا لها : الحقى بزوجك إن شئت . وحينئذ رد بنو عبد الأسد إليها ابنها سلمة . وعند ذلك خرجت مهاجرة وسنتركها تحكى لنا هجرتها فتقول : « ارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ـــ ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله ، فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم(١) لقيت عثمان(٢) ابن طلحة بن أبى طلحة ، أخابنى عبد الدار ، فقال لى إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ فقلت : أريد زوجى بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ فقلت لا والله إلَّا الله وابنى هذا قال والله ما لك من مترك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط . أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى ، فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى شجرة ، وقال : اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه ، فقاده حتى ينزل بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عوف بن عوف بقباء ، قال : زوجك فى هذه القرية ـــ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـــ فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

فكانت السيدة أم سلمة تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة(٣) .

**وإن لنا هنا وقفة عند قصة عثمان هذا الذى كان يومئذ كافراً** : لأنه لم يسلم إلَّا أوائل عام الفتح ، وهى تشهد لنفاسة معدن العرب ، وفضائلهم فى الجاهلية ولا سيما خلق المروءة والنجدة ، وحماية الضعيف ، فقد أبت عليه مروءته ، وخلقه العربى الأصيل أن يدع امرأة شريفةتسير وحدها فى هذه الصحراء الموحشة وإن كانت على غير دينه ، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش !! .

(١) موضع على فرسخين من مكة .

(٢) أسلم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة بعد الحديبية وهاجر هو وخالد بن الوليد وقتل أبوه وإخوته : الحارث وكلاب ومسافع وعمه عثمان ابن أبى طلحة يوم أحد ، ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبة ولد بنى شيبة مفاتيح الكعبة أقرها عليهم فى الإسلام كما كانت فى الجاهلية ، ونزل فى ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ انظر الإصابة فى تميز الصحابة ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٨٠ ، ٨١ ، البداية والنهاية ٣ / ١٧٠ ، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣١٣ ، ٣١٤ .

فأين من هذه الأخلاق ، أخلاق الحضارة من القرن العشرين من سطو على الحريات ، واغتصاب للأعراض ، بل وعلى قارعة الطريق وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإنسانية ومن تفنن فى وسائل الاغتصاب ، وانتهاك الأعراض والسطو على الأموال . إن هذه القصة ، ولها مثل ونظائر — لتدل دلالة لا شك فيها على أن للعرب رصيداً هائلاً وكبيراً من الفضائل كان أكبر من مثالبهم ورذائلهم ، فمن ثم اختار الله خاتم الأنبياء والرسل من بينهم ، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة وتبليغها للناس كافة(١).

## هجرة عامر بن ربيعة وزوجه :

ثم قدم المدينة بعد أبى سلمة عامر بن ربيعة(٢) حليف بنى عدى بن كعب ومعه امرأته ليلى بنت أبى حتمة العدوية(٣) ، قال أبو عمر : هى أول ظعينة قدمت المدينة ، وقال موسى بن عقبة وغيره أولهن أم سلمة . وجمع بأن ليلى أول ظعينة مع زوجها وأم سلمة وحدها(٤).

## المشركون يفتنون بعض المهاجرين :

ولما قدم سيدنا عمر وسيدنا عياش(٥) المدينة ، خرج أبو جهل والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكة ، فكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت ألَّا يمسّ رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له سيدنا

---

(١) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة . للدكتور محمد أبو شهبة ج ١ ص ٤٨٠ .

(٢) هو أحد السابقين الأولين هاجر إلى الحبشة بزوجته أيضاً وشهد بدراً . وما بعدها ، وروى عن النبى ﷺ فى الصحيحين وغيرهما ، توفى سنة ثلاث أو اثنتين وثلاثين وقيل غير ذلك . شرح المواهب ١ / ٣٧٠ .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ١٧٠ .

(٤) شرح المواهب ١ / ٣٧٠ .

(٥) عياش بفتح المهملة وشد التحتية وشين معجمة — ابن أبى ربيعة واسمه عمرو ، ويلقب ذا الرمحين ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى من السابقين الأولين ، وهاجر الهجرتين ومات بالشام سنة خمس عشرة ، وقيل استشهد باليمامة وقيل باليرموك — شرح المواهب ١ / ٣٧١ .

عمر : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلَّا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو قد أذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكةلاستظلت ، فقال له : أبر قسم أمي ، ولى هنالك مال فآخذه . فقال له عمر : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما . ولكنه أبى عليه إلَّا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلَّا ذلك ، قال له سيدنا عمر : أما إذ قد فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب ، فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا ابن أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . فأناخ عياش ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة ، وفتناه فافتتن . « وكان دخولهما به مكة نهاراً موثقاً ، ثم قالا : ياأهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم . كما فعلنا بسفيهنا هذا »(١) .

## هجرة رسول الله ﷺ

وبعد أن هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة أقام « عليه الصلاة والسلام » بمكة ينتظر الإذن من الله « تبارك وتعالى » له بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة إلَّا من حبس أو فتن ، وإلَّا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق ـــ رضوان الله عليهما ـــ ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له الرسول : « على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى »(٢) فيطمع أبو بكر « رضوان الله عليه » أن يكون مصاحباً لرسول الله ﷺ فى هجرته .

ولما رأت قريش أن رسول الله « عليه الصلاة والسلام » قد صار له شيعة وأصحاب من غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، فيقوى بهم ويجمع على حربهم . من أجل ذلك حاولوا إيجاد طريقة يقضون بها عليه ﷺ قبل أن يفلت من أيديهم .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٨٥ ، البداية والنهاية ٣ / ١٧٢ ، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣١٦ .
(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الوحى « باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة » .

## اجتماع قريش بدار الندوة للتشاور فى أمر الرسول :

واجتمع طواغيت قريش فى دار الندوة(١) ـــ وهى دار قصى بن كلاب ـــ فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له : من أنت؟ قال : شيخ من أهل نجد(٢) سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى . قالوا : أجل ادخل فدخل معهم . فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره .

فقال قائل منهم :

احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم .

فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال : والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم .

قالوا : صدق الشيخ فانظروا فى غير هذا .

---

(١) قال الزرقانى : قال ابن الكلبى : وهى أول دار بنيت بمكة . وحكى الأزرقى أنها سميت بذلك لاجتماع الندى فيها يتشاورون ـــ والندى جماعة ينتدون أى يتحدثون ـــ فلما حج معاوية اشتراها من الزبير العبدرى بمائة ألف درهم ثم صارت كلها بالمسجد الحرام وهى فى جانبة الشمالى . وقال الماوردى : صارت بعد قصى لولده عبد الدار فاشتراها معاوية من عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وجعلها دار الإمارة . وقال السهيلى : صارت بعد بنى عبد الدار بن حكيم بن حزام فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم زمن معاوية فلامه وقال أبعت مكرمة آبائك وشرفهم ؟ فقال حكيم : ذهبت والله المكارم إلّا التقوى ، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر ، وقد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله فأينا المغبون ؟ ذكر ذلك الدارقطنى فى رجال الموطأ . انتهى . « من شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٢ » .

(٢) قال السهيلى : إنما قال لهم إبليس إنه من أهل نجد لأنهم قالوا : لا يدخلن معكم فى المشاورة أحد من أهل تهامة لأن هواهم مع النبى ﷺ ، فلذلك تمثل لهم فى صورة شيخ نجدى . وقد تمثل قبل ذلك فى صورة شيخ نجدى حين حكموا رسول الله ﷺ فى أمر الركن من يرفعه ، فصاح الشيخ النجدى : يا معشر قريش أقد رضيتم أن يليه هذا الغلام دون أشرافكم وذوى أسنانكم ، فإن صح هذا الخبر فلمعنى آخر تمثل نجدياً ؛ وذلك أن نجداً يطلع منها قرن الشيطان كما قال رسول الله ﷺ حين قيل له : وفى نجدنا يا رسول الله؟ قال : هنالك الزلازل والفتن ومنها يطلع قرن الشيطان « فلم يبارك عليها كما بارك على اليمن والشام وغيرها » سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٢٩ » .

قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ؛ فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره فى غيركم .

فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا الرأى لكم برأى ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .

قالوا : صدق والله . فانظروا رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره .

فقالوا وما هو ؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل واحد ؛ فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها .

فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه .

فقال الشيخ النجدى هذا والله الرأى . القولُ ما قال الفتى لا أرى غيره .

ثم تفرقوا على ذلك وهم مجمعون له(١) .

وقد ورد الحديث عن هذه المؤامرة الدنيئة بشىء من الإجمال فى مسند الإمام أحمد بن حنبل حيث روى بسنده عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ﴾(٢) الآية قال :

تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه فأطلع الله « عز وجل » نبيه على ذلك .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٩ : ٩١ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٢ وما بعدها ، سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٢٤ : ٣٢٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٤٨ ، والحديث إسناده حسن ، قاله صاحب البداية والنهاية ج ٣ ص ١٨١ وكذلك قال ابن حجر فى الفتح : إن إسناده حسن ج ١٥ ص ٩٠ .

# تخطيط الرسول للهجرة

وهكذا دبر المشركون خطة للقضاء على رسول الله ﷺ قبل أن يفلت من أيديهم .. ولكن لله تدبيراً فوق تدبيرهم ، ويداً فوق أيديهم .. فقد أوحى الله إلى رسوله بما دبروا له من كيد ، وأذن له فى الهجرة إلى المدينة .

روى الترمذي بسنده عن ابن عباس قال : « كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت عليه ﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيراً** ﴾[(١)] ولا نعرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل الرسول ﷺ الذى لاقى فى جنب الله ما لاقى . ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أنملة فى استجماع أسبابه وتوفير وسائله .

ومن ثم فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته ، وأعد لكل فرض عدته ، ولم يدع فى حسبانه مكاناً للحظوظ العمياء .

وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، أن يقوم بها كأنها كل شيء فى النجاح ثم يتوكل ـــ بعد ذلك ـــ على الله ؛ لأن كل شيء لا قيام له إلّا بالله .

فإذا استفرغ المرء جهوده فى أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه على هزيمة بلى بها . وقلما يحدث ذلك إلّا عن قدر قاهر يعذر المرء فيه !

وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً . ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار .

كالسفينة التى يشق عباب الماء بها ، ربان ماهر ، فإذا التيار يساعدها والريح تهب إلى وجهتها . فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى إلى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر .

وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار[(٢)] .

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٣٠٤ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح كتاب تفسير القرآن باب سورة بنى إسرائيل ، والحاكم ج ٣ ص ٣ وقال ابن حجر فى الفتح ١٥ / ٧٨ صححه الترمذى والحاكم .

(٢) فقه السيرة للغزالى ص ١٧١ .

فقد وضع رسول الله ﷺ خطة محكمة للخروج من مكة إلى المدينة سالماً دون أن يصيبه أى أذى من مشركى مكة .

وأول شىء فعله رسول الله ﷺ هو الإذن لسائر المؤمنين بالهجرة إلى المدينة واستبقى معه علياً وأبا بكر .

ثم بعد ذلك لما أمره الله « سبحانه وتعالى » بالهجرة اتبع الكتمان التام فى تنفيذ خطتها ، ولم يطلع أحداً عليها إلَّا من لهم صلة ماسة به حتى أنه أيضاً لم يتوسع فى إطلاع من له صلة ماسة بأحداثها إلَّا بقدر العمل المنوط بهم .

**رفيقه فى هذه الهجرة :**

واختار رسول الله ﷺ أبا بكر ليكون رفيقه فى هذه الهجرة الميمونة ، وذلك بعد أن أمره جبريل أن يستصحبه معه ؛ فقد روى الحاكم عن على أن النبى ﷺ قال لجبريل من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر(1) ، وكان اختياراً صائباً من رسول الله ﷺ لأن أبا بكر الصديق يليق لهذه المهمة وهى تليق به أيضاً ، فهو صاحب الخلق الكريم ، قبل وبعد دخوله فى الإسلام ، وهو أول رجل اعتنق الإسلام بمجرد أن دعاه الرسول ﷺ إليه ، وبسببه اعتنق كثير من رجالات قريش الإسلام ، وهو الملقب بالصديق ، كما أنه كان أعظم الناس إخلاصاً وحباً للرسول الكريم . ومن أجل ذلك وغيره اختاره الرسول ﷺ ليكون مصاحباً له فى هجرته ، ولذلك بمجرد أن أخبره الله « سبحانه وتعالى » بالهجرة ذهب مباشرة لأبى بكر فى بيته ؛ ليعلمه بأمر الهجرة لكى يعد العدة لها .

يقول البخارى فى صحيحه عن عائشة « رضى الله عنها » قالت : بينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة(2) قال قائل(3) لأبى بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلَّا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ

---

(1) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٥ كتاب الهجرة باب « هجرة أبو بكر إلى المدينة » ط المطبعة الحديثة .

(2) نحر الظهيرة : أى أول الزوال وهو أشد ما يكون من حرارة النهار — النهاية ٤ / ١٣١ بتصرف .

(3) الظاهر أن القائل أسماء بنت أبى بكر ؛ ففى حديثها عن الطبرانى كان النبى ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشياً ، فلما كان يوم من ذلك جاءنا فى الظهيرة فقلت : يا أبت هذا رسول الله ﷺ . فتح البارى ١٥ / ٨٨ .

فاستأذن فأذن له فدخل ، فقال النبى ﷺ لأبى بكر أخرج من عندك فقال أبوبكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله ، قال فإنى قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر : الصحابة(١) بأبى أنت يا رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : « نعم »(٢) .

## مهمـــة على :

واختار محمد ﷺ سيدنا علياً « رضى الله عنه » لكى ينام على فراشه ثم أخبره بما كان من عزمه على الهجرة ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان الرسول « عليه الصلاة والسلام » ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلّا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ(٣) .

واستجاب على « رضى الله عنه » لأمر رسول الله . وفى ذلك تفان من على « كرم الله وجهه » فى حبه للرسول ﷺ وإيثاره حياة الرسول على حياة نفسه .

## إعـــداد الراحلـــة :

كان أبو بكر « رضى الله عنه » تجهز قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ على رسلك(٤)فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر(٥) وهو الخبط أربعة أشهر(٦) وذلك ليعدهما

(١) الصحابة بالنصب أى أريد المصاحبة : ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . الفتح ١٥ / ٨٨ .

(٢) صحيح البخارى كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٣) البداية والنهاية ٣ / ١٧٨ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٩٣ .

(٤) على رسلك : أى أثبت ولا تعجل ، يقال لمن يتأنى ويعمل الشىء على هيئته النهاية ٢ / ٨١ .

(٥) السمر : يقال أيضاً الشجرة أم غيلان ، وقيل : كل ما له ظل ثخين ، وقيل السمرورق الطلح والخبط بفتح المعجمة والموحدة ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر . قاله ابن فارس ـــ فتح البارى ١٥ / ٨٨ .

(٦) قال الحافظ فى قوله أربعة أشهر بيان المدة التى كانت بين ابتداء هجرة الصحابة بعد العقبة الأولى والثانية وبين هجرته ﷺ ، وكان بين العقبة الثانية وهجرته ﷺ شهران وبعض شهر على التحرير' ابن حجر فى الفتح ١٥ / ٨٨ .

للهجرة ويجهزهما لذلك ،ومن أجل ذلك عندما قال رسول الله ﷺ لأبى بكر قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين. قال رسول الله ﷺ : بالثمن قالت عائشة فجهزناهما أحث(١) الجهاز(٢) .

**اختيار من يدلهما على الطريق :**

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل(٣) وهو من بنى عبد بن عدى هادياً خريتاً ، والخريت(٤) الماهر بالهداية قد غمس(٥) حِلْفاً فى آل العاص بن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش ، فأمناه فدفعا إليه راحلتهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث »(٦). وقد يقال هنا : كيف حدث هذا ؟ ألم يفكر الرسول ـــ صلوات الله عليه ـــ من الجائز والممكن أن يغدر به ، ويشى به إلى طالبيه من قريش ولا سيما أن قريشاً قد رصدت مائة بعير لمن يأتيهم بمحمد حياً أو ميتاً ؟ .

مثل هذا الخاطر لا بد أنه مر بذهنه « عليه السلام » ، لكن ماذا كان يفعل لو لم يوجد مسلم يستطيع أن يكون دليله إلى يثرب .

إن محمداً ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ أراد أن يقرر مبدأ واقعياً سامياً ـــ

(١) أحث الجهاز أى أسرع فيمن يحتاج إليه فى السفر ـــ فتح البارى ١٥ / ٨٩ .

(٢) البخارى ج ٥ ص ٧٥ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى ﷺ وصحابته إلى المدينة .

(٣) واسم هذا الرجل عبد الله بن أريقط ، ويقال أريقد بالدال بدل الطاء المهملتين وهو بكاف بصيغة التصغير الليثمى ثم الدئلى . وقد كان فى ذلك الوقت على ديانة قومه ولم يذكره فى الصحابة أحد إلّا الذهبى فى التجريد ، وقد جزم عبد الغنى المقدسى فى السيرة له بأنه لم يعرف له إسلاماً وتبعه النووى فى تهذيب الأسماء ـــ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٤ / ٣٣ .

(٤) الخريت : قال الأصمعى سمى خريتا لأنه يهدى بمثل خرت الإبرة أى ثقبها وقال غيره : قيل له ذلك لأنه يهتدى لأخرات المغارة وهى طرقها الخفية ـــ الحافظ فى الفتح ١٥ / ٩٢ .

(٥) غمس حلفاً : بكسر المهملة وسكون اللام أى كان حليفاً فى آل العاص أى أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به . كانت عادتهم أن يحضروا فى جفنه طيباً أو دماً أو رماداً فيدخلون فيه أيديهم عند التحالف ليتم عقدهم عليه باشتراكهم فى شىء واحد ـــ النهاية ٣ / ١٧١ .

(٦) صحيح البخارى ج ٥ ص ٧٨ كتاب بدء الخلق باب هجرة الرسول والصحابة إلى المدينة .

فمصالح الناس فى حياتهم متشابكة .

**والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم**

كما يقول الشاعر العربى ، فيجب ألّا يقف الاختلاف فى الدين عائقاً دون تحقيق مصلحة ولا بد أن معنى آخر قد جال بخاطر الرسول ـ صلوات الله عليه ـ فعبد الله بن أريقط وإن كان مشركاً لا يدين بالإسلام ـ إلّا أنه عربى لا يجرده شركه من عروبته .

والعربى معروف بالوفاء ولا سيما إذا ارتبط بمهنته ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرسول ﷺ منحه ثقته فإن ذلك يقوى فيه نزعة الوفاء .. وكان رسول الله مصيباً كل الإصابة فى تقديره(١) .

**إعداد الطعام اللازم لهذه الرحلة :**

وبعد أن علم سيدنا أبو بكر وأهل بيته بأمر هجرة رسول الله ﷺ قام أهل بيته « رضوان الله عليهم » بتجهيز ما يحتاجه الرسول ﷺ وصحبه أبو بكر من طعام . تقول عائشة : « رضى الله عنها » فى رواية البخارى :

« وصنعنا لهما سفرة(٢) فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق »(٣) .

قال ابن سعد فى طبقاته « قالت عائشة وصنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فأوكأت(٤) بقطعة منه الجراب وشدت فم

---

(١) الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢) سفرة فى جراب أى زاد فى جراب لأنه أصل السفر فى اللغة الذى يوضع للمسافر ثم استعمل فى وعاء الزاد ، ومثله المزادة للماء وكذلك الراوية فاستعملت السفر فى هذا الخبر على أصل اللغة ، وأفاد الواقدى أنه كان فى السفرة شاة مطبوخة . فتح البارى ١٥ / ٩٠ .

(٣) النطاق ما يشد به الوسط ، وقيل هو إزار فيه تكة ، وقيل هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى الأسفل ، قاله أبو عبيد الهروى ، قال : وسميت ذات النطاقين لأنها كانت تجعل لها نطاقاً على نطاق ، وقيل كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتجعل فى الآخر الزاد . أ . هـ . والمحفوظ أنها شقت نطاقها فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر فمن ثم قيل لها ذات النطاق وذات النطاقين ، فالتثنية والإفراد بهذين الاعتبارين . فتح البارى ١٥ / ٩٠ .

(٤) أوكت بقطعة من الجراب . أوكوا الأسقية أى شدوا رءوسها بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء يقال : أوكيت السقاء أوكيه إيكاء فهو موكى . النهاية ٤ / ٢٢٩ .

القربة بالباقى فسميت ذات النطاقين »(١).

## اختيار مكان الاختباء بعد الخروج :

واختار رسول الله ﷺ مكاناً للاختباء فيه أثناء البحث عنه ، وكان لابد من مكان أمين لا تشك قريش فى اختفاء الرسول وصاحبه أبى بكر فيه ، وببعد نظره ﷺ اختار غاراً يسمى بغار ثور(٢).

ففى حديث الهجرة عند البخارى أن الرسول ﷺ وأبا بكر « رضى الله عنه » قد واعدا دليلهما عند غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبح ثلاث »(٣).

وهذا الغار له رهبة الموت من داخله ، مقتحمةٌ قد يفاجئه فى عماية الظلام وحش رهيب أو يردعه ثعبان مسعور ، ولكن النبى ﷺ لم يكن يتهيب هذه الأخطار ؛ لأن قلبه الشجاع قد امتلأ باليقين والثبات وبلغ من السمو درجة يراغم بها الأخطار »(٤).

## التخابر على أهل مكة وإمداد الرسول وصحبه بما فى مكة من معلومات :

وكان لا بد لرسول الله ﷺ وصحبه أن يعينوا لهم رجلاً يقوم بدور المخابرات التى تقضى نهارها بمكة لكى تتسمع لما يقوله الناس فيها وما يردده الرأى العام هناك . ثم ينطلق إلى الرسول وصحبه فى المساء ليبلغهما المعلومات التى يحصل عليها . واختارا لهذه المهمة الخطيرة هذا الشاب الثقة عبد الله بن أبى بكر

---

(١) طبقات ابن سعد ١ / ٢١٤ ، فتح البارى ١٥ / ٩٠ .

(٢) بغار ثور : قال فى الأنوار الغار ثقب فى أعلى ثور فى يمين مكة على مسيرة ساعة وقيل : إنه من مكة على ثلاثة أميال ، وفى معجم ما استعجم : إنه منها على ميلين وارتفاعه نحو ميل وفى أعلاه الغار الذى دخله النبى ﷺ وأبو بكر وهو المذكور فى القرآن . وفى هذا الجبل من كل نبات الحجاز وشجره وفيه شجر البان . وفى القاموس ثور جبل بمكة فيه الغار المذكور فى التنزيل ويقال له ثور أطحل واسم الجبل أطحل نزله ثور بن عبد مناة فنسب له . انتهى . شرح المواهب ١ / ٣٨٠ ، إنسان العيون ٢ / ٣٥ ، أخبار مكة للأزرقى ٢ / ١٦٥ .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ٧٧ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى ﷺ وصحابته .

(٤) دراسات تاريخية للدكتور محمد مصطفى النجار ص ٢٦٥ .

« رضى الله عنهما » يقول البخارى بسنده عن عائشة « رضى الله عنها » كان « يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف[1] لقن[2] فيدلج[3] من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت[4] فلا يسمع أمراً يكتادان[5] به إلّا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام »[6].

وهكذا فقد ظل عبد الله بن أبى بكر طوال الفترة التى مكثها رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق « رضى الله عنه » فى الغار يقضى نهاره فى قريش يسمع ما يأتمرون به وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

## اختيار من يمدهما بالزاد والتموين فى الغار :

وكان من المهم جداً أن يختارا من يمدهما بالطعام أثناء مدة اختبائهما ، فاختارا عامر بن فهيرة[7] مولى أبى بكر لهذه المهمة الجليلة يقول البخارى نقلاً عن السيدة عائشة وكان « يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة[8] من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ــ فيبيتان فى رسل[9] وهو لبن

---

(١) ثَقِف بفتح المثلثة وكسر القاف ويجوز إسكانها وفتحها وبعدها فاء الحاذق . تقول ثقفت الشىء إذا أقمت عوجه الفتح ج ١٥ ص ٩١ .

(٢) لقن . فتح اللام وكسر القاف سريع الفهم جيد الوعى « المرجع السابق » .

(٣) فَيدّلج بفتح الياء وتشديد الدال بعدها جيم أى يخرج بفلس أى بسحر إلى مكة « السابق » .

(٤) كبائت أى مثل البائت يظنه من لا يعرف حقيقة أمره لشدة رجوعه بفلس . الفتح ١٥ / ٩٢ .

(٥) يكتادان به . وفى رواية الكشميهنى « يكادان به » بغير مثناه أى يطلب لهما المكروه وهو من الكيد . الفتح ١٥ / ٩٢ .

(٦) البخارى ج ٥ ص ٧٥ ، ٧٦ كتاب بدء الخلق باب هجرة الرسول وصحابته للمدينة .

(٧) عامر بن فهيرة بضم الفاء مصغرة مولى أبى بكر من السابقين الأولين . ذكر ابن عقبة عن ابن شهاب أن أبا بكر اشتراه من الطفيل بن سخيرة فأسلم فأعتقه ، وهو مخالف لما رواه الطبرانى عن عروة أنه كان ممن عذب فى الله فاشتراه أبو بكر فأعتقه .

واستشهد ببئر معونة ــ شرح المواهب ١ / ٣٩٣ .

(٨) مِنْحة . بكسر الميم وسكون النون بعدها مهملة غنما فيها لبن وتطلق على كل شاة ، وفى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب أن الغنم كانت لأبى بكر فكان يروح عليها الغنم كل ليلة فيحلبان ثم تسرح بكرة بتصبح فى رعيان الناس فلا يفطن له ــ فتح البارى ١٥ / ٩٢ .

(٩) فى رِسْل بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة . اللبن الطرى . فتح البارى ج ١٥ ص ٩٣ .

مِنْحَتِهِما وَرَضِيفِهِمَا[1] حتى ينعق بها عامر[2] بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالى الثلاث[3]. وهكذا فقد خطط رسول الله ﷺ تخطيطاً محكماً لهجرته النبوية الشريفة .

## خروج الرسول للهجرة ووصوله إلى الغار :

نام على « رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه » على فراش النبى ﷺ ليلة الهجرة ، واجتمع أولئك النفر من قريش على باب رسول الله ﷺ يرصدونه حتى ينام ، فيثبون عليه .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة ، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطباً لأصحابه ــ المطوقين لبيت رسول الله ﷺ ــ فى سخرية واستهزاء : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها[4].

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلاً فاحشاً . ففى هجمة من الليل وغفلة من الحرس ، انسل الرسول ﷺ من بيته غير مبال بكيدهم ، ولا عابىء بجمعهم ، لأن الله وعده العصمة ، ومناه النجاة ، ثم أتى إلى دار رفيقه ــ وأمن الناس عليه فى صحبته وماله ــ أبى بكر الصديق « رضى الله عنه »[5] الذى كان فى انتظار الرسول ﷺ ؛ لأنهما كانا قد اتفقا على الهجرة

(١) ورضيفهما بفتح الراء وكسر المعجمة بوزن رغيف أى اللبن المرضوف أى التى وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته وهو بالرفع ويجوز الجر . الفتح ١٥ / ٩٣ .

(٢) ينعق أى يصيح والنعيق صوت الراعى إذا زجر الغنم .

(٣) البخارى ج ٥ ص ٧٦ كتاب بدء الخلق باب هجرة الرسول وصحابته للمدينة .

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩١ .

(٥) يقول الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة : وذهاب الرسول هذا إلى بيت الصديق ، خلاف الذهاب الأول فى نحر الظهيرة ، فالأول كان لإخبار الصديق بالإذن بالهجرة ، والثانى كان ليلاً بعدما أفلت من المشركين للخروج إلى الغار ، وقد تحير بعض كتاب السيرة وشراحها فى هذا ، فخروج الرسول من بيته كان ليلاً ، ووصوله إلى بيت الصديق كان فى الظهيرة كما ثبت فى الصحيح وغيره ، فأين كان النبى فى هذه الساعات الطوال ؟ وهذا الذى ذهبت إليه ينبغى أن يصار إليه ، وقد جوز بعضهم أن النبى مكث فى بيت =

عندما أخبر الرسول ﷺ أبا بكر ــ ثم خرجا من عند أبى بكر « رضى الله عنه » إلى غار ثور ــ إلى الغار الذى استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ، ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته فى حراسة الصمت والوحشة والانقطاع .

**ما قاله الرسول عند خروجه :**

وعند خروج الرسول ﷺ للهجرة وقف بالجزورة فى سوق مكة وقال : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت »(١) . ثم انطلق رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور ليقيما فيه فترة البحث عنهم وبعد أن دخلاه أمر الله « تبارك وتعالى » عنكبوتاً فنسج خيوطه على باب الغار لحماية رسول الله ﷺ وصحبه من بطش المشركين ، وصرفهم عنهما . روى الإمام أحمد بسنده : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل ــ جبل ثور ــ اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت . فقالوا : لو دخل ها هنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه »(٢) .

وهذه الآية من جنود الله « سبحانه وتعالى » التى يخذل بها الباطل وينصر بها الحق ؛ لأن جنود الله « سبحانه وتعالى » أعم من أن تكون مادية أو معنوية ، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل فى ضخامتها فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذى لجب . قال تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** ﴾(٣)أى وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلَّا هو ، فجنود الله غير متناهية لأن مقدوراته غير متناهية(٤) .

= الصديق حتى كانت الليلة المقبلة فخرجا ليلاً ، وهو بعيد ، والبعض جوز أنه خرج إلى الغار ، ثم عاد إلى بيت أبى بكر فى الظهيرة ثم عادا إلى الغار معاً وهو أشد بعداً من الأول : والحق ما هدانى الله إليه وهو الذى يتفق ومنطق العقل وتسلسل الحوادث . انظر السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة . للدكتور محمد أبو شهبة القسم الأول ص ٤٩٧ .

(١) الحديث أخرجه الترمذى كتاب المناقب باب فضل مكة ۾ / ٧٢٢ قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح ، سنن ابن ماجة ٢ / ١٠٣٧ كتاب المناسك باب فضل مكة ط عيسى الحلبى .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ / ٣٤٨ قال صاحب البداية والنهاية إسناده حسن وهو من أجود ما روى فى قصة نسج العنكبوت على فم الغار ٣ / ١٨١ ، وقال صاحب الفتح إسناده حسن ١٥ / ٩٠ .

(٣) سورة المدثر جزء من الآية رقم ٣١ .

(٤) الفخر الرازى ٣٠ / ٢٠٨ .

### البحث عن رسول الله وصحبه فى كل مكان :

تركنا القوم بباب رسول الله ﷺ بعد خروجه من بينهم دون أن يشعروا به حتى لحق بالغار وكان على ــ رضى الله عنه ــ نائماً على فراش النبى تلك الليلة وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبى ﷺ ؛ فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى »(١) وتموج مكة بالخبر ، لقد نجا محمد من الموت ، وخرج إلى يثرب .

عند ذلك قامت قيامة قريش ، وانطلقوا فى أثر المهاجرين يرصدون الطرق ، ويفتشون كل مهرب ، وراحوا ينقبون فى جبال مكة وكهوفها ، حتى وصلوا ــ فى دأبهم ــ قريباً من غار ثور بل وصلوا إلى الغار عند ذلك قال أبو بكر لرسول الله ﷺ بعد أن رآهم أمام الغار » يا نبى الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا ، قال : اسكت يا أبا بكر ، اثنان الله ثالثهما »(٢) وفى رواية أخرى أن أبا بكر « رضى الله عنه » قال : « كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه فقال يا أبا بكر : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »(٣) .

ويظهر أن المطاردين داخلهم اليأس من العثور عليهما فى هذا الفج ، فتراكضوا عائدين ، روى الإمام أحمد .

« أن المشركين اقتفوا الأثر فلما بلغوا الجبل خُلِّط عليهم فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال »(٤) فعندما رأت قريش هذه الآية استبعدت وجود محمد وصحبه داخل الغار . وبهذا وغيره حفظ الله « سبحانه وتعالى » رسوله ﷺ وصاحبه فى الغار . وصرف بذلك المشركين عن النبى وصحبه .

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٤٨ حديث إسناده حسن البداية والنهاية ج ٣ ص ١٨١ وكذلك قال ابن حجر فى الفتح إن إسناده حسن ج ٢٥ ص ٩٠ .

(٢) صحيح البخارى باب الهجرة كتاب بدء الخلق .

(٣) صحيح البخارى كتاب التفسير باب تفسير سورة التوبة .

٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ٣٤٨ نفس حديث الإمام أحمد السابق .

قال الله تعالى فى ذكر الهجرة : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وهذه الآية الكريمة نزلت عتاباً من الله للمسلمين الذين تكاسلوا عن الخروج مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك(٢).

وفيها يقول سبحانه وتعالى : يا من تكاسلتم عن الخروج مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك إلَّا تنصروه أنتم أو غيركم حين يطلب منكم الجهاد معه فسينصره سبحانه وتعالى بغيركم ، كما نصره فى وقت أشد وأقسى من أى وقت(٣) وذلك حين ضاقت قريش به ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة دائماً بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها صبراً فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه ، فأطلعه الله على مؤامرتها ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيداً إلَّا من صاحبه الصديق ، لا جيش ولا قوة ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه : « إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » والقوم على إثرهما يتعقبون والصديق — رضى الله عنه — يجزع — لا على نفسه ولكن على صاحبه أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، ويقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدىء من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها فى جانب ، والرسول ﷺ مع صاحبه منها مجرد ؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس .

وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار : وظلت كلمة الله فى مكانها العالى منتصرة قوية نافذة ؛ لأنه سبحانه وتعالى « عزيز » لَا يُذَلُّ أَوْلِيَاؤُه ، « حكيم »

---

(١) سورة التوبة : ٤٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ٤ ص ٢٩٨٢ .

(٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية . الحزب العشرون ص ١٧٠٤ .

يقدر النصر فى حينه لمن يستحقه[1] .

## استكمال المسيرة المباركة إلى المدينة :

وفى اليوم الثالث من خروج النبى ﷺ وصحبه من مكة ، وبعد أن سكن الناس عن طلبهما أتاهما عبد الله بن أريقط ببعيريهما وبعير له كما اتفقا معه قبل ذلك لاستكمال تلك المسيرة المباركة الطيبة إلى المدينة المنورة ، هذه البلدة التى أصبحت المقر الجديدة للدعوة الإسلامية .

## الطريق الذى سلكوه فى هجرتهم :

فلما خرج بهما عبد الله بن أريقط ، سلك بهما أسفل مكة ، غرباً إلى طريق الساحل ثم اتجه بعد هذا شمالاً متجنباً مناطق الاستقرار فى هذا النطاق ، مستفيداً فى نفس الوقت من موارد المياه الموجودة ، وإن مر فى طريقه ببعض الرعاة أو المضارب الصغيرة ، وتابع سيره شمالاً ماراً بالطريق أسفل عُسفان[2] ، ومر بعد ذلك بأمج[3]، ثم أجاز قُدَيداً[4]،

(١) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٦٥٦ ، ١٦٥٧ .

(٢) عسفان : بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الفاء بعدها ألف فنون — من قرى رابغ فى إمارة مكة ، وسميت بهذا الاسم لتعسف السير فيها ، تبعد عن مكة ستة وثلاثين ميلاً ، وهى حد تهامة . وهذه البلدة ما زالت قائمة حتى الآن أ هـ « معجم البلدان ج ٤ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، المعجم الجغرافى فى البلاد العربية والإسلامية لمحمد آل جاسر جـ ٢ ص ٨١٥ ط أولى ١٣٩٧ ، ١٩٧٧ فى دار اليمامة ، طريق الهجرة للدكتور عبد العزيز كامل ص ٢٠ من محاضرة ألقاها بقاعة الإمام محمد عبده ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م .

(٣) أَمَجَ بفتح أوله وثانيه بلد من أعراض المدينة تبعد عن مكة مسيرة ثلاثة أيام ، وهى بين مكة والمدينة ولم يرد لها على الخرائط الحديثة ذكر ، وهى واد يأخذ من حرة بنى سليم وينتهى إلى البحر . معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، النهاية ج ١ ص ٤١ ، الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، حققه محمد بن بليهد النجدى ص ١٧٠ ط دار السعادة القاهرة ١٩٥٣ .

( ٤ ) قُدَيدا بضم القاف وفتح الدال الأولى بعدها مثناة تحتية ساكنة فدال وهى تصغير القد ، أو من القِد بالكسر وهو جلد السخلة أو تصغير لقدد وهى الفرق واد ذى قرى ساكنه من زبيد من حرب . وهى موضع قرب مكة .

وهى الآن قرية صغيرة تقع على وادى ستارة الذى ينبع من حرة رهط ويتجه إلى البحر نحو الجنوب الغربى ، ويذكر البكرى أنها « قرية جامعة مذكورة فى رسم الفرع وفى رسم العقيق وهى كثيرة المياه والبساتين . معجم البلدان ج ٤ ص ٣١٣ ، المعجم الجغرافى ج ٢ ص ٩٦٢ ، معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٠٥٤ نشر المعهد الخليفى للأبحاث المغربية . حققه مصطفى السقا — ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩ .

ثم سلك الخرار[1] ، ثم لقفا[2] ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج ، ثم سلك بهما مرجح محاج ثم تبطن بهما مرجح من ذى الغضوين[3] ، ثم تبطن ذى كشر[4] ، ثم أخذ بهما على الجَداجد[5] ثم على الأجرد[6] ، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تِعْهُن[7] ، ثم على العبابيد[8] .

---

(١) الخرار : بفتح الخاء وتشديد الراء الأولى موضع بالحجاز قرب الجحفة ، قرب رابغ الحالية ، وذكر البكرى أنه واد بالحجاز يصب على الجحفة ، وتحمل هذا الاسم عيون وغدران أخرى ليست بين مكة والمدينة ، ولم يرد هذا الوادى على الخرائط الحديثة وإن ذكر الجغرافيون القدماء احتمال وقوعها قرب الجحفة . معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠ ، البكرى : معجم ما استعجم ٢ / ٤٩٢ . وقد اندثرت هذه القرية . وكانت ميقات الإحرام لأهل الشام ومصر حين يقبلون للحج أو العمرة ، وأصبحت رابغ الآن ميقاتاً .

(٢) لقفا : ضبطه الحازمي بفتح أوله ، وسكون ثانية ، وقال عرام : لقف ماء آبار كثيرة عذب ليس عليها مزارع ولا نخل فيها لغلظ موضعها وخشونته ، وهو بأعلى قوران واد من ناحية السوارقية على فرسخ واقع بين مكة والمدينة وفى لقف ولفت وقع الخلاف فى حديث الهجرة وكلاهما صحيح هذا موضع وذاك آخر . معجم البلدان ج ٥ ص ٢١ ، لسان العرب مادة لفت .

(٣) ذو الغضوين . بفتح الغين والضاد ، بلفظ تثنية الغضا موضع بين مكة والمدينة جاء ذكره فى حديث الهجرة قال ابن إسحاق : ثم تبطن بهما ، يعنى الدليل ، مَرْجَحَ من ذى الغَضَوين ، بالغين والضاد المعجمتين ويقال ذى العصوين بالعين والصاد المهملتين معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٤) كَشْر بالفتح ثم سكون ، وهو بَدْو الأسنان عند التبسم : جبل قريب من جُرَش ، وهو موضع بين مكة والمدينة ـــ السابق ج ٤ ص ٤٦٢ .

(٥) الجداجد : بالفتح ، جمع جُدْجُد ، وهى الأرض المستوية الصلبة ، ويجوز أن يكون جمع جُدْجُد ، وهى البئر القديمة ، وأظنها على هذا آباراً قديمة فى طريق ليس بعلم ، وفى حديث : أتينا على بئر جدجد ، قال أبو عبيدة . والصواب بئر جُدَّة أى قديمة ، حكى الهروى عن اليزيدى ويقال : بئر جُدْجُد ، قال : وهو كما يقال فى الكم كمكم وفى الرَّف رَفْرَف السابق ج ٢ ص ١١٢ .

(٦) الأجرد : بفتح الألف وإسكان الجيم فراء مفتوحة فدال ـــ من قرى شَجْوَى ، فى منطقة المدينة . المعجم الجغرافى ج ١ ص ٦٣ .

(٧) تِعْهِن : بكسر أوله وهائه ، وتسكين العين ، وآخره نون : اسم عين ماء سمى به موضع على ثلاثة أميال من السُّقْيا بين مكة والمدينة ، وقد رُوى فيه تَعْهِنْ ، بفتح أوله ، وكسر هائه ، وبضم أوله ، قال السهيلى فى شرح حديث الهجرة . تِعْهِن بكسر التاء ، والهاء والتاء أصلين على قياس النحو ، ووزنها فِعْلِل إلّا أن يقوم دليلَ من اشتقاق على زيادة التاء ، وتصح رواية من روى تعهن بضم التاء ، فإن صحت فالتاء زائدة كسرت أو ضمت ، المعجم ج ٢ ص ٣٥ .

(٨) العبابيد بعد الألف باء أخرى ، ودال مهملة ، وقد روى فى اسم هذا الموضع العبابيب ، بعد الألف باء أخرى ثم ياء آخر الحروف ثم باء أخرى ، وروى فيه أيضاً العِثْيَانة ، بالعين المهملة والتاء المثلثة وياء آخر الحروف وبعد الألف نون ، كل ذلك جاء مختلفاً فيه فى حديث الهجرة . فمن رواه عبابيد جعله جمع عبّاد ، ومن روى عبابيب كان كأنه جمع عَبَّاب من عبيت الماء عباً فكأنه ـــ والله أعلم ـــ مياه تُعَبّ عَباباً وتُعَبّ =

ثم أجاز بهما الفاجة(١) .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العرج ، ثم خرج بهما دليلهما من العرج ، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبه ، حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف ، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس أن تعتدل(٢) .

**انتظار المسلمين بقباء مقدم الرسول :**

ولما سمع المسلمون بمخرج الرسول ﷺ من مكة إليهم ، كانوا يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، إلى أن جاءهم رسول الله ﷺ .

عن عائشة « رضى الله عنها » قالت :

« لما سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أوْوا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم (٣)من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين(٤) يزول بهم السراب(٥) ؛ فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم(٦) الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحُرَّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ، ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس

---

= عَبًّا . المعجم ج ٤ ص ٧٣ .

(١) فاجة . من قرى العرضية الشمالية ، بمنطقة القنفذة ، فى إمارة مكة المكرمة . المعجم الجغرافى ج ٢ ص ٩١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) أُطُم : بضم أوله وثانيه بناء مرتفع وهو كالحصن النهاية. ١ / ٣٥ .

(٤) مبيضين : ـــ أى عليهم ثياب بيض ـــ الفتح ١٥ / ٩٨ .

(٥) يزول بهم السراب أى يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له ؛ أو المراد ظهرت حركتهم للعين . « السابق » .

(٦) هذا جدكم : بفتح الجيم وشد الدال : أى حظكم الذى تتوقعونه « السابق » .

رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك (١).

## منزل رسول الله ﷺ :

**ونزل رسول الله ﷺ بقباء « في بني عمرو بن عوف »**(٢) بن مالك بن الأوس بن حارثة(٣)، وكان نزوله على كلثوم بن الهرم(٤) أخي بني عمرو بن عوف(٥) .

## الرسول يؤسس مسجد قباء :

إن للمسجد فى الإسلام دوراً كبيراً فهو مدرسة للعلم يتخرج فيها دعاة الإسلام الذين يتحملون دعوته ، لينشروها فى أرجاء المعمورة ، حيث يدعون من لم يعتنق الإسلام للدخول فيه ، كما يبصرون المسلمين بأحكامه ، وفيه يربى المسلمون التربية الإسلامية الصحيحة ، ومنه توجه الجيوش لتأديب المعتدين ، وفيه أيضاً تعقد مجالس الشورى ، وتبحث فيه مشاكل المسلمين ، فهو إذاً له دور كبير ، من أجل ذلك ، كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ بعد وصوله إلى قباء ، أن أسس أول مسجد فيها ، خلال تلك الفترة الوجيزة التى أقامها بها ، فكان أول مسجد أسس فى العالم بعد ظهور الإسلام ، وقد عمل فيه رسول الله ﷺ بيده ، وشارك أصحابه فى حمل الحجارة والصخور ، حتى كان يبدو عليه الجهد .

وقد حاول أصحابه « رضوان الله عليهم » أن يريحوه من العمل معهم ، فكان يأبى إلّا أن يكون واحداً منهم .

---

(١) صحيح البخارى م ٢ ج ٥ ص ٧٧ ، ٧٨ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى وأصحابه إلى المدينة .
(٢) « السابق » .
(٣) وكانت منازلهم بقباء وهى على فرسخ من المسجد النبوى بالمدينة « فتح البارى ج ١٥ ص ٩٨ .
(٤) قيل كان كلثوم بن الهرم يوم نزول الرسول عليه — مشركاً — وجزم به محمد بن الحسن بن زبالة فى أخبار المدينة « السابق » .
(٥) ابن هشام — ج ٢ ص ٩٩ ، البداية والنهاية ٣ / ١٩٧ ، فتح البارى ج ١٥ ص ٩٨ ، زاد المعاد ٢ / ٥٤ — رواه الطبرانى ورجاله ثقات مجمع الزوائد ج ٦ ص ٦٢ ، ٦٣ .

روى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن الشموس بفتح الشين المعجمة ـــ بنت النعمان « رضى الله عنها » قالت : « نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد : مسجد قباء ، فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره(١) الحجر ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سرته فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : يا رسول الله بأبى أنت وأمى أعطنى أكفك ، فيقول : « لا خُذ مِثلَه » حتى أسسه(٢) ، وهكذا تأسس مسجد قباء الذى وصفه الله « سبحانه وتعالى » بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، حيث قال تعالى : **﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾**(٣) .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : وفيها حث من الله « تبارك وتعالى » لرسول الله ﷺ على الصلاة فى مسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وجمعا لكلمةالمؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله ، ثم يقول : والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يأتى قباء راكباً وماشياً(٤). وفى الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة . فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد فى حديث بسنده أن النبى ﷺ أتى أهل قباء فى مسجدهم فقال : « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلّا أنه كان

---

(١) هصر فلان الشيء .. يهصره هصراً من باب ضرب وهصر الغصن عطفه وأماله « لسان العرب . مادة هصر وفى النهاية ٤ / ٢٤٩ . أصل الهصر أن تأخذ برأس العود فتثنيه إليك وتعطفه ، وفى حديث بناء مسجد قباء . فهصر الحجر إلى بطنه أضافهُ إليه وأماله ، وقيل : لعل المراد أن الحجر لضخامته كان يغالبه ويجذبه إليه من ثقله .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ورجاله ثقات « مجمع الزوائد ج ٤ ص ١١ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ .

(٤) اللفظ لمالك كتاب قصر الصلاة فى السفر باب العمل فى جامع الصلاة ، وأخرجه البخارى فى كتاب الصلاة فى مسجد مكة والمدينة . باب إتيان مسجد قباء ماشياً وراكباً ، مسلم فى كتاب الحج باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته .

لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه وقال ابن جرير بسنده عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية والحديث لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى(١).

وقال القاضى : لا يمنع دخولهما . جميعاً تحت هذا الذكر لأن قوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ هو كقول القائل ، لرجل صالح أحق أن تجالسه . فلا يكون ذلك مقصوراً على واحد(٢).

كذلك جمع الشريف السمهورى بين الأخبار وسبقه إلى ذلك السهيلى وقال : كل من المسجدين مراد لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه(٣) .

**المدة التى مكثها الرسول بقباء :**

اختلف العلماء فى المدة التى قضاها رسول الله ﷺ بقباء ، وقد وفى بتحرير هذا الخلاف وبسط القول فيه الحافظ ابن حجر « رحمه الله » إذ يقول فى الفتح فى شرح حديث الهجرة الطويل عن عائشة « قوله(٤) وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول » وهذا هو المعتمد وشذ من قال يوم الجمعة ، فى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب » « قدمها لهلال ربيع الأول » أى أول يوم منه وفى رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق «قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول» ونحوه عند أبى معشر لكن قال « ليلة الاثنين » ومثله عن ابن البرقى وثبت كذلك فى أواخر

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨٩ .
(٢) الفخر الرازى ج ١٦ ص ١٩٧ .
(٣) الألوسى ج ١١ ص ٢٠ .
(٤) يعنى قول البخارى بسنده عن عروة عن عائشة فى هذا الحديث .

صحيح مسلم . وفى رواية إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق « قدمها لأثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول » وعند ابن سعد فى شرف المصطفى من طريق أبى بكر ابن حزم » قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول » وهذا يجمع بينه وبين الذى قبله بالحمل على الاختلاف فى رواية الهلال . وعنده من حديث عمر « ثم نزل على بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول » كذا فيه ولعله كان فيه خلتا ليوافق رواية جرير بن حازم . وعند الربيع فى خبر المدينة عن ابن شهاب فى نصف ربيع الأول ، وقيل كان قدومه فى سابعه ، وجزم ابن حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر وهذا يوافق قول هشام بن الكلبي : إنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول فإن كان محفوظاً فلعل قدومه قباء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وإذا ضم إلى قول أنس أنه أقام بقباء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة كان لاثنين وعشرين منه ، لكن الكلبى جزم بأنه دخلها لاثنتى عشرة خلت منه ؛ فعلى قوله تكون إقامته بقباء أربع ليال فقط وبه جزم ابن حبان فإنه قال : أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس ، يعنى وخرج يوم الجمعة فكأنه لم يعتد بيوم الخروج وكذا قال موسى بن عقبة إنه أقام فيهم ثلاث ليال فكأنه لم يعتد بيوم الخروج ولا الدخول .

وعن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوماً ، حكاه الزبير بن بكار . وفى مرسل عروة بن الزبير ما يقرب منه كما يذكر عقب هذا والأكثر أنه قدم نهاراً ، ووقع فى رواية مسلم ليلاً ، ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل فدخل نهاراً ... إلى أن قال « قوله فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة » فى حديث أنس الآتى فى الباب الذى يليه أنه قام فيهم أربع عشرة ليلة وقد ذكرت قبله ما يخالفه ، والله أعلم .

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : أقام فيهم ثلاثاً « قال : وروى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنتين وعشرين ليلة ، وقال ابن إسحاق « أقام فيهم خمساً » وبنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك .

قلت : ليس أنس من بنى عمرو بن عوف فإنهم من الأوس وأنس من الخزرج ، وقد جزم بما ذكرته فهو أولى بالقبول من غيره(١) .

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ٩٨ فما بعدها .

## دخول الرسول ﷺ المدينة المنورة :

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدة التي مكثها بقباء وأراد أن يدخل المدينة المنورة أرسل إلى الأنصار ، فجاءوا إلى نبي الله ﷺ « وهم متقلدون سلاحهم[١] « فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين ؛ فركب نبي الله ﷺ وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح »[٢].

## استقبال أهل المدينة لرسول الله ﷺ :

**وعند وصوله ﷺ إلى المدينة شاع فيها مجيئه . فأخذ أهل المدينة يقولون : « جاء نبي الله ، جاء نبي الله ﷺ[٣].**

فكان بحق يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله ، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم فى يوم عيد ، ولقد كان حقاً يوم عيد ، لأنه اليوم الذى انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق فى مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة المنورة ، ومنها إلى سائر بقاع الأرض .

ولقد أحس أهل المدينة المنورة بالفضل الذى حباهم الله به ، وبالشرف الذى اختصهم به أيضاً ، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله وصحابته المهاجرين ، ثم لنصرة الإسلام كما أصبحت موطناً للنظام الإسلامى العام التفصيلى بكل مقوماته ، كما أنها ستكون المكان الذى يأرز إليه الإسلام فى آخرالزمان .

من أجل ذلك خرج أهلها يهللون ويصيحون فى فرح وابتهاج ، يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله .

روى الإمام مسلم بسنده قال : « عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون يا رسول الله ، يا محمد يا رسول الله »[٤] .

---

(١) ما بين العلامتين صحيح البخارى ج ٥ ص ٨٦ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى وأصحابه .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق . باب فى حديث الهجرة ، ويقال له حديث الرحل بالحاء .

وبعد هذا الاستقبال الرائع الذى لم يُرَ مثله استقبال فى تاريخ البشرية ، سار رسول الله ﷺ حتى نزل جانب دار أبى أيوب . روى البخارى بسنده عن عائشة « رضوان الله عليها » فى حديث الهجرة الطويل وفيه « فأقبل يسير[1] حتى نزل جانب دار أبى أيوب فإنه ليحدث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف لهم فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها ؛ فجاءوهى معه ، فسمع من نبى الله ﷺ ثم رجع إلى أهله فقال نبى الله ﷺ أى بيوت أهلنا أقرب ، فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى وهذا بابى ، قال فانطلق فهيء لنا مقيلاً »[2] ، ثم نزل رسول الله ﷺ على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه .

وبهذا تكون قد تمت هجرته ﷺ وهجرة أصحابه « رضوان الله عليهم » .

ولكن الهجرة لم تنته . الهجرة بأهدافها وغاياتها بدأت بعد وصول رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة .

وبدأت معها رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات ، فتغلب عليها رسول الله ﷺ للوصول إلى المستقبل العزيز للأمة وللدولة .

## عبر مستخلصة :

**أولاً** : لو نظرنا إلى الأنصار حينما كانوا يدعون إلى الإسلام فى المدينة بعد مبايعتهم للرسول ﷺ . وجدناهم يدعون إلى الله بإخلاص وصدق مدركين لأهدافهم وغاياتهم ، حاسبين لكل خطوة يخطونها فى سبيل الدعوة حسابها ، يتعاملون مع كل من يدعونهم على قدر عقولهم ، وهم فى كل ذلك ملتزمون بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[3]فقد كانوا يدعون إلى سبيل الله وحده ، ملتزمين بالحكمة فى دعوتهم ، فينظرون فى أحوال المخاطبين وظروفهم ، وينوعون فى الطرق التى يستخدمونها . وذلك على حسب مقتضياتها ، فلم تستبد بهم الحماسة

---

(١) أى رسول الله ﷺ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٣) سورة النحل آية ١٢٥ .

والاندفاع والغيرة فيتجاوزون الحكمة فى هذا كله وفى سواه . وملتزمين كذلك بالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لأنهم تعلموا من الإسلام أن الرفق فى الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة . كما كانوا يجادلون بالحسنى أيضاً ، فلم يتحاملوا على مخالفيهم بل كانوا يحاولون إقناعهم للوصول إلى الحق .

وبذلك استطاعوا أن ينشروا الإسلام فى المدينة ، وكانوا ممن ينطبق عليهم قول الحق تبارك وتعالى ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾(١) .

**ثانياً** : رأينا من أسباب هجرة المصطفى ﷺ شدة إيذاء المشركين له ولأصحابه ؛ فكان لزاماً عليه ﷺ أن يهاجر من هذه الأرض المحارب فيها هو وأصحابه إلى أرض أخرى يستطيع أن يدعو فيها إلى الله ويجهر بإقامة الشعائر الدينية فى حرية تامة ، دون أية قيود أو اعتداء من أحد . وهذا يدلنا على أن الهجرة واجبة من دار الحرب إلى دار الإسلام . روى القرطبى عن ابن العربى بنصه « الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، كانت فرضاً فى أيام النبى ﷺ » ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتى انقطعت بالفتح هى القصد إلى النبى ﷺ حيث كان ، فإن بقى فى دار الحرب يمضى ، ويختلف فى حاله(٢) .

وكما أنه يجب على المسلم أن يهاجر من دارا لحرب ، كذلك يجب عليه أيضاً أن يهاجر من أى مكان لا يستطيع أن يقيم فيه الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من الأحكام الإسلامية الظاهرة ، والذى يدلنا على هذا الحكم قول الله « تبارك وتعالى » ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً** ﴾(٣).

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢٣ .

(٢) تفسير القرطبى « سورة النساء » ج ٣ ص ١٩١٩ ، ١٩٢٠ .

(٣) سورة النساء ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

**ثالثاً** : حين ييئس المبطلون من وقف دعوة الحق والإصلاح ، وحين يفلت المؤمنون من أيديهم ويصبحون فى منجى من عدوانهم ، يلجئون آخر الأمر إلى قتل الداعية المصلح ، ظناً منهم إن قتلوه تخلصوا منه وقضوا على دعوته ، وهذا هو تفكير الأشرار أعداء الإصلاح فى كل عصر(١) . ألم يرد فرعون قتل موسى « عليه السلام » ﴿**وقال فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ . وَقَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾(٢) وألم يقتل بنو إسرائيل أنبياءهم قال تعالى متحدثاً عن جرائمهم : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ** ﴾(٤).

ثم ألم يقتل أصحاب سورة يس الرجل المؤمن الذى دعاهم إلى اتباع المرسلين وعبادة الله وحده لا شريك له ، وترك عبادة غيره من المخلوقات قال تعالى :

﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يسعى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّى إِذاً لَّفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ . يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾(٥).

ولهذا همت قريش بقتل النبى « عليه الصلاة والسلام » فقد دبرت مؤامرة للتخلص منه ظناً منها أنها بذلك تكون قد قضت على الدعوة ، ولكن

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعى ص ٨٠ وما بعدها .
(٢) سورة غافر ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة البقرة جزء من الآية رقم ٦١ .
(٤) سورة النساء جزء من الآية ١٥٥ .
(٥) سورة يس الآيات من ٢٠ : ٣٠ .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(١)فالله « سبحانه وتعالى » كان دائماً لهم بالمرصاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾(٢) فما كانوا يحاولون فعله ضد الرسول والدعوة الإسلامة ، كان الله « سبحانه وتعالى » كاشفاً له ومفسداً لكل خططهم فيه ، لأنها دعوة الله فهو الذى أرسل الرسول لهداية الخلق فلا بد أن يحميه ويدافع عنه حتى يستطيع الرسول أن يبلغ دعوته للناس .

**رابعاً** : بعد أن رسمت قريش خطة القضاء على الرسول ﷺ وذلك فى الاجتماع الذى عقد بدار الندوة ، أوحى الله « سبحانه وتعالى » إلى رسوله بما دبروا له من كيد وأذن له فى الهجرة إلى المدينة ، ولم يكن أمر الهجرة أو التفكير فيها وليد الساعة ، وإنما كان هذا الأمر معروفاً للنبى ﷺ منذ بدء الدعوة ، وذلك عندما قال له ورقة « ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال له النبى ﷺ أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلّا عودى ، ولئن أدركت يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً »(٣) ، ومن هنا وطن النبى نفسه على الهجرة باعتبارها أمراً لا بد منه عندما يأذن الله له به .

كما أن الله « سبحانه وتعالى » أطلع نبيه الكريم قبل هجرته وهجرة أصحابه على الأرض التى سوف يهاجرون إليها وذلك فى المنام . ففى صحيح البخارى بسنده عن أبى موسى عن رسول الله ﷺ قال : « رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى إلى أنها اليمامة ، أو هَجَر(٤) ، فإذا هى المدينة يثرب »(٥) .

**خامساً** : فى تخطيط الرسول ﷺ للهجرة النبوية المباركة دليل واضح على أن التخطيط أمر ضرورى لمزاولة أى نشاط بشرى مهما يكن نوعه ، يستوى فى ذلك أن يكون القائم به فرداً أو جماعة وأن يستهدف شأناً من شئون السلم أو فى شئون الحرب ، وإذا كان التخطيط ــ اصطلاحاً ــ من مستحدثات العصر فإنه

(١) الأنفال آية رقم : ٣٠ .
(٢) سورة الفجر رقم ١٤ .
(٣) صحيح البخارى كتاب بدء الوحى إلى الرسول .
(٤) هجر بفتح الهاء والجيم : بلد معروف من البحرين وهى من مساكن عبد القيس ، وقد سبقوا غيرهم من القرى إلى الإسلام ــ فتح البارى ج ١٥ ص ٧٩ ، ٨٠ .
(٥) صحيح البخارى ج ٥ ص ٧١ كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى وأصحابه للمدينة .

ـــ معنى يضرب بجذوره فى أعماق القدم ، فقد اقترن بحياة الفرد وحياة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض ، فقد شاء الله « سبحانه وتعالى » أن يزوده بهذه القدرة المستمدة من العقل لحفظ الجنس البشرى حتى تستمر الحياة عبر مراحل تطورها المتعاقبة ، وكل امرىء خلقه الله فى هذه الحياة يباشر التخطيط تلقائياً فى جميع خطواته وفى مختلف تصرفاته ، دون أن يدرى المدلول العلمى لما يقوم به . فالصانع والزارع والعامل كل منهم يخطط ليومه وغده ، إذ يحدد مطالبه والتزاماته ويحدد قدراته على الوفاء بها مستعيناً فى ذلك بحصيلة تجاربه السابقة ومقدراً للظروف الطارئة المحتملة ، وهكذا فالتخطيط لا بد وأن يكون الإنسان مستخدماً له فى سائر شئون حياته لكى يستطيع أن يصل إلى أهدافه المرجوة . من أجل ذلك أعنى كون التخطيط من الفطرة التى فطر الله الناس عليها استخدم رسول الله ﷺ التخطيط فى كل مراحل دعوته إيماناً منه بأن التخطيط أساس فى إنجاح أى عمل من الأعمال ، ولا بد منه للبلوغ إلى المقصود وأنه ركيزة أساسية يقوم عليها الدين ، ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به ، بل وجعله نظاماً لحياة المسلمين لأنه ضرورة لا غنى عنها .

والحث على التخطيط أمر صريح نص عليه قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(١) وبهذا الأمر يدخل التخطيط فى نطاق التكليف الموجه إلى الكافة(٢) .

ومن أوضح صور التخطيط فى القرآن الكريم موقف يوسف « عليه السلام » من رؤية الملك حيث لم يكتف بتأويلها ، وإنما وضع الخطة لمواجهة الأحداث التى تكشف عنها .

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾(٣) فقد

(١) سورة الأنفال آية رقم ٦٠ .

(٢) انظر كتاب على طريق الهجرة للأستاذ حسن فتح الباب ص ١٠٣ : ١٠٦ بتصرف سلسلة مجمع البحوث الإسلامية ، السنة الثالثة . العدد الثامن والعشرون .

(٣) سورة يوسف آيات رقم ٤٧ : ٤٩ .

وضع خطة تخزين الغلال بتركها فى السنابل حفاظاً عليها من التلف لمواجهة السنوات العجاف وهذا يؤكد موقف الإسلام من التخطيط ، وأنه أمر ينبغى الالتزام به .

وهذا لا ينافى التوكل على الله والإيمان بالقدر .

**سادساً** : من حكمة الرسول ﷺ البالغة أنه اتبع فى تنفيذ خطته التكتم الشديد ، وذلك لأن عدوه محيط به من كل جانب ، يرصد له جميع حركاته ، ولا تغفل عنه عينه ، ولا نسبة بينهما إذا أخذنا بقانون الأسباب التى هى سنة الله فى كونه ، والتى أمرنا فى غير موضع من الكتاب والسنة أن نأخذ بها ولا نغفلها ما أمكن ، نقول لا نسبة بينهما إذا أخذنا بهذا القانون فى العدد والقوة ؛ فالرسول ليس معه إلّا أبو بكر وعلى وبعض ضعفاء المسلمين ، فالقوة غير متكافئة بين الجانبين ، فكان لا بد من اتباع السرية التامة فى وضع تنفيذ الخطة التى سوف يهاجر بها المصطفى ﷺ ، والتزاماً بهذا المنهج أخفى النبى ﷺ عزمه على الهجرة عن أصحابه جميعاً ما عدا أبا بكر وعلى بن أبى طالب ، بل حتى هذين لم يحطهما النبى ﷺ علماً بالأمر إلّا قبل التنفيذ مباشرة . وفى هذا الأسلوب الذى اتبعه الرسول ﷺ تعليم للمسلمين فى كل عصر من العصور أن يستعملوا السرية التامة فى كل الأمور المتعلقة بمصيرهم ؛ لكى يسلموا من أعدائهم الذين يقفون لهم دائماً بالمرصاد ، ويتربصون بهم الدوائر .

**سابعاً** : فى اختيار الرسول ﷺ لأبى بكر الصديق لمرافقته فى رحلته الكبرى دليل على ما لأبى بكر « رضى الله عنه » من المنزلة الرفيعة فى الإسلام لتاريخه الطويل الحافل بنصرته للإسلام منذ أول يوم دعاه الرسول ﷺ إليه ؛ فقد كان أول رجل صدق به دون أى تردد ، ثم بعد إسلامه أخذ يدعو إلى الإسلام واعتنقه بسبب دعوته له رجال لهم مكانتهم العظيمة وشهرتهم الواسعة فى القوم وقدمهم الصادقة فى مؤازرة الإسلام ، منهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص وغيرهم . كما كان أول مصدق أيضاً لرسول الله ﷺ حين أبلغ بمعجزة الإسراء والمعراج فسمى يومها بالصديق . من أجل ذلك وغيره كان رضوان الله عليه عالى المنزلة ، كما يحدث البخارى عن عبد الله بن عمر « قال كنا نخير بين الناس فى زمان رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم

عمر ثم عثمان « رضى الله عنهم »(١) .

ولرفعة مكانته فى الإسلام كذلك قال رسول الله ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا(٢) ولكن أخى وصاحبى »(٣) . ولقد كان « رضى الله عنه » أقرب أصحاب الرسول ﷺ إليه ، وكان على مستوى هذه الميزة التى أكرمه الله بها ، فقد كان مثال الصادق ، والمضحى بروحه وبكل ما يملك من أجل دعوة الإسلام ورسول الإسلام وقد رأينا كيف منع رسول الله ﷺ من دخول الغار إلَّا بعد أن يدخله هو ليستبرئه من أى أذى يمكن أن يكون فيه . وهكذا لم يبخل على الإسلام بنفسه ولا بماله أيضاً ؛ فقد أنفق الكثير والكثير على الدعوة الإسلامية . يقول ﷺ فى ذلك « ما لأحد عندنا يد إلَّا وقد كافأناه ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن صاحبكم خليل الله »(٤).

**ثامناً** : إن الجندى الصادق المخلص لدعوة الإصلاح ، يفدى قائده بحياته ، ففى سلامة قائده سلامة للدعوة ، وفى هلاكه خذلانها ووهنها ، فما فعله على « رضى الله عنه » ليلة الهجرة من بياته على فراش الرسول ﷺ تضحية بحياته فى سبيل الإبقاء على حياة رسول الله ﷺ ، إذ كان من المحتمل أن تهوى سيوف فتيان قريش على رأس على « رضى الله عنه » انتقاماً منه ؛ لأنَّه سهل لرسول الله ﷺ النجاة ، ولكن علياً « رضى الله » لم يبال بذلك ، فحسبه أن يسلم رسول الله ﷺ نبى الأمة وقائد الدعوة(٥) .

**تاسعاً** : فى إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله ﷺ مع محاربتهم له

---

(١) البخارى ج ٥ ص ٥ كتاب بدء الخلق باب مناقب المهاجرين وفضلهم . فضل أبى بكر .

(٢) الخلة الصداقة والمودة . ويقال الخلة أرفع رتبة من الصداقة وهو الذى يشعر به حديث الباب . فتح البارى ج ١٤ ص ١٥٣ .

(٣) البخارى ج ٥ ص ٥٠ كتاب بدء الخلق مناقب المهاجرين هجرة أبى بكر .

(٤) سنن الترمذى ج ٥ ص ٦٠٩ كتاب المناقب باب مناقب أبى بكر الصديق . قال أبو عيسى : هذا الحديث ، وهو كما قال ، فإنه حسن بشواهده ، وقد ذكره الحافظ فى الفتح وسكت عليه،جامع الأصول ج ٨ / ٥٨٥ .

(٥) السيرة النبوية دروس وعبر ، للدكتور مصطفى السباعى ص ٨١ .

وتصميمهم عل قتله دليل باهر على تناقضهم العجيب الذى كانوا واقعين فيه ، ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر أو مجنون أو كذاب لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلَّا عنده !... وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه ، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاء به ، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم(١) .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ** ﴾(٢) ، وفى أمر الرسول لسيدنا على « رضى الله عنه » بتأدية هذه الأمانات لأصحابها فى مكة ــ رغم هذه الظروف الشديدة التى كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتجه التفكير إلَّا إلى إنجاح خطة هجرته فقط ، أقول رغم ذلك فإن الرسول ﷺ ما كان لينسى أو لينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها ، حتى ولو كان فى أحلك الظروف التى تنسى الإنسان نفسه فضلاً عن غيره .

**عاشراً** : عندما عرض أبو بكر على رسول الله ﷺ راحلتيه لكى يختار الرسول ﷺ واحدة منهما ليخرج مهاجراً عليها ، لم يقبل الرسول ﷺ أخذ الراحلة إلَّا بثمنها رغم أن أبا بكر « رضى الله عنه » أنفق على الرسول وعلى الدعوة من ماله ما هو أكثر من هذا حسبما سمعت من الحديث الآنف ، وحسبما نطق حديث البخارى عن هشام بن عمار قال : حدثنا صدقة بن خالد حدثنا زيد بن واقد عن يسر بن عبيد الله عن عائذ الله أبى إدريس عن أبى الدرداء « رضى الله عنه » أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله بعثنى إليكم ، فقلتم كذبت وقال أبو بكر : صدقت ، وواسانى بنفسه وماله »(٣) وقال أيضاً : « إن من آمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر »(٤) وغير ذلك كثير .

وقد التمس علماؤنا « رضوان الله عليهم » وجهاً لحكمة ذلك فقالوا : إن

---

(١) فقه السيرة للبوطى ص ١٤٦ بتصرف .
(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٣٣ .
(٣) البخارى كتاب بدء الخلق باب مناقب المهاجرين وفضلهم .
(٤) « السابق » .

رسول الله ﷺ إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه ﷺ فى استكماله فضل الهجرة إلى الله تعالى ، وأن تكون على أتم الأحوال »[١].

**حادى عشر** : ومن بنود خطته ﷺ أنه استعان بواحد من ذوى الخبرة بمخاطر الطريق ومعاطبه ، على الرغم من أنه كان على دين قومه ، وهو عبد الله بن أريقط .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد ، أن ذلك الصنيع من رسول الله ﷺ معدود من الاستثناءات للقواعد ، فقد أثر عنه ﷺ فى مواقف أخرى من تاريخ دعوته رفض الاستعانة بالمشركين[٢] كما أن الله « سبحانه وتعالى » حذرنا فى القرآن الكريم من الركون إلى المشركين بل حذرنا أيضاً من الركون إلى أهل الكتاب قال تعالى :

**﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[٣] .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة :

« يقول الله « تبارك وتعالى » فى هذه الآية الكريمة ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أى يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أى يسعون فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى : **﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾** أى من غيركم من أهل الأديان وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى والنسائى وغيرهما من حديث جماعة منهم يونس ويحيى بن سعيد وموسى بن عقبة وابن أبى عتيق عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « وما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ٨٩ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٩ ، سبل الهدى والرشاد . فى سيرة خير العباد . للشيخ محمد بن يوسف الصالحى الشامى ج ٣ ص ٣٦٠ .

(٢) فصول من السيرة النبوية للأستاذ الدكتور عبد المنعم سيد حسن ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

إلّا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » وقد رواه الأوزاعى ومعاوية بن سلام عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً بنحوه ، فيحتمل أنه عند الزهرى عن أبى سلمة عنهما ، وأخرجه النسائى عن الزهرى أيضاً ، وعلقه البخارى فى صحيحه فقال : وقال عبيد الله بن أبى جعفر عن صفوان بن سليم عن أبى سلمة عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعاً فذكره ، فيحتمل أنه عند أبى سلمة عن ثلاثة من الصحابة والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو أيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى ابن يونس عن أبى حيان التيمى عن أبى الزنباع عن ابن أبى الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب « رضى الله عنه » إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً فقال : قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة التى فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ** ﴾ وقال الحافظ : أبو يعلى حدثنا إسحاق بن إسرائيل حدثنا هشيم حدثنا العوام عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنساً فإذا حدثهم بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن يعنى البصرى فيفسره لهم قال : فحدث ذات يوم عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربياً » فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنساً حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم عربياً » فقال الحسن : أما قوله « لاتنقشوا فى خواتيمكم عربياً » محمد ﷺ ، وأما قوله « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول لا تستشيروا المشركين فى أموركم . ثم قال الحسن . تصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ** ﴾ هكذا رواه الحافظ أبو يعلى « رحمه الله » ، وقد رواه النسائى عن مجاهد بن موسى عن هشيم ، ورواه الإمام أحمد عن هشيم بإسناده ، مثله من ذكر تفسير الحسن البصرى ، وهذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لا تنقشوا فى خواتيمكم عربياً » أى بخط عربى لئلا يشابه نقش خاتم النبى ﷺ فإنه كان نقشه محمد رسول الله ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه وأما الاستضاءة

بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ولهذا روى أبو داود « لا تتراءى نارهما » وفى الحديث الآخر « من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله » فحمل الحديث على ما قاله الحسن « رحمه الله » والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ أى قد لاح على صفحات وجوههم . وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾(١) .

وإذاً فكيف جاز منه ﷺ فى هذه الحال أن يختار هذا المشرك ليدله وصاحبه على الطريق ؟ .

يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد حسن رداً على هذا التساؤل فى كتابه فصول من السيرة النبوية وإذا ساغ لى أن أجتهد رأيى فى هذه المسألة بادرت إلى القول بأن رسول الله ﷺ حينما اختار عبد الله بن أريقط ليدله وصاحبه على الطريق صدر فى هذا الاختيار عن إحدى اثنتين :

إما عن الوحى عن طريق الإلهام أو بواسطة جبريل . وإما عن ضمانات توثق بها رسول الله ﷺ من طوية ابن أريقط وتحرز بها من مغبة إشراكه . ثم يقول : ومهما يكن من أمر اختيار الرسول الثاقب الرأى لهذا المشرك فإن فى استمرار ابن أريقط على كتمان سر هجرة الرسول وصاحبه حتى بلغا مأمنهما لتأييداً من الله أى تأييد(٢) . ومع ذلك فإن مثل هذا الأمر أعنى الاستعانة بعدو الدين يجب أن يكون مقصوراً على حد الضرورة الملجئة إلجاءً بحيث لا يجد المرء مندوحة عن هذه الضرورة بحال من الأحوال ، وبحيث يلزم مع ذلك أقصى غايات الحذر والتوثق لنفسه ولخطته كما فعل رسول الله ﷺ .

**ثانى عشر** : فى موقف عبد الله بن أبى بكر الذى قام به فى نشاط ذاهباً آيباً بين الغار ومكة ، يتحسس أخبار المشركين فى مكة ، وما يرتبونه ضد رسول الله

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٨ وما بعدها .

(٢) فصول من السيرة النبوية للأستاذ الدكتور / عبد المنعم السيد حسن ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

ﷺ ثم ينقلها لرسول الله ﷺ وأبيه ، وكذلك فى قيام عامر بن فهيرة : ذلك الراعى البسيط بعملية الإمداد والتموين للرسول ﷺ وصاحبه أثناء مكوثهما فى الغار ، ثم قيامه بتبديد آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر بأغنامه كي لا يتفرسها القوم .
أقول فى كل ذلك دليل على أثر الشباب فى نجاح الدعوات ، فهم عماد كل دعوة إصلاحية ، وباندفاعهم للتضحية والفداء ، تتقدم الدعوات سريعاً نحو النصر والغلبة ، ولعل أوضح مثال على ذلك نراه فى شباب المسلمين الأولين . فكثير من الصحابة كانوا شباباً حملوا أعباء الدعوة الإسلامية على كواهلهم ، وتحملوا فى سبيلها أصنافاً شتى من العذاب ، وضحوا فى سبيلها بكل غال ، وهانت الحياة عندهم من أجلها ، فاستطاعوا بذلك أن يبلغوا الدعوة إلى الناس خارج الجزيرة حتى وصلت إلى كل بقاع العالم ، وهكذا فللشباب المسلم طاقته الجبارة إذا استخدمت فى محلها استطاع المسلمون أن يقفوا أمام جميع التحديات التى تواجههم فى عالم اليوم وذللوها ، بل قضوا عليها أيضاً .

**ثالث عشر** : لماذا خرج الرسول ﷺ مستخفياً بجنح الليل مع ثقته فى كفالة الله له وأنه مانعه من أن يمسه سوء ، وحائل بين المؤتمرين به وبين ما يشتهون من مكرهم به وجاعل كلمة الذين كفروا السفلى ؟ وللإجابة عن هذا التساؤل يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم السيد حسن فى كتابه فصول من السيرة النبوية :

« إن الله « تبارك وتعالى » أجرى على رسوله ﷺ الواقع المعتاد المألوف صدوره عند عامة البشر فيما أوحاه إليه ، ليحبط كيد الكافرين ، لما تأكد فى كثير من آى الذكر الحكيم ، من النص على مماثلته ﷺ لمن أرسل إليهم فى السمات العامة للبشرية ، قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾(1) .

ومما يؤلف من البشر فعله أن يستخفى الخصم من خصمه فيما يعد من الخطط للنجاة منه أو الكيد له ، تمكيناً للحسرة من نفس العدو ، حين يفجؤه إفلات عدوه منه ، بعد أن يكون قد أعد العدة للظفر به ، ووقر فى ذهنه أن خصمه لن يمتنع عليه ، كما أن فى هجرته ﷺ وجهاً من وجوه الحرب والمضادة لمن أخرجوه ، فهى على أيسر التقديرات حرب باردة على نحو ما يقال فى العصر الحديث ، والحرب بكل أشكالها عبر أحقاب التاريخ قائمة على الخدعة ، ومغافلة

(1) سورة الكهف جزء من الآية رقم ١١٠ .

العدو ، ومخالسته ومداورته .

على أن الواقع يشهد بأن خروجه ﷺ على الهيئة التى خرج عليها كان أَمَرَّ فى حلوق قومه وأنكي مما لو استعلن ﷺ بمغادرة مكة ؛ فقد استشاطوا غضباً وفترت قلوبهم غيظاً حينما أفاقوا من سباتهم الذى ضربه الله على آذانهم ليجدوا من تربصوا به قد أفلت من أيديهم على روية ومهل . وناهيك بمتسلل يحسو التراب على رءوسهم واحداً واحداً لا يخطىء منهم أحداً . إنه فى واقع أمره لا يعد مع صنيعه هذا تسللاً إلّا على ضرب من التجوز .

فإذا قارنا هذا بالحالة المقابلة التى نتصوره ﷺ عليها فيما لو خرج من بينهم جهاراً تحت سمعهم وبصرهم لكانت غاية ما يتوقع من القوم إحدى اثنتين .

إما أن يحولوا بينه وبين وجهته ، وإما أن يدعوه ماضياً لوجهه .

فإن كانت الأولى فلن تضيف جديداً إلى موقفهم من الرسول والرسالة والأتباع بل إنها ستزيدهم فى أكبر الظن إمعاناً فى البطش بالرسول والمسلمين ، وربما نبهتهم إلى تخطيط مضاد للحلف الجديد الذى أبرمه رسول الله ﷺ مع الأنصار من أهل المدينة وحملتهم على الجد فى إفساد ما تم بين الرسول وأتباعه المحدثين وإن كانت الثانية ــ عد ذلك تجملاً منهم أن فسحوا الطريق له ﷺ فى مخرجه دون أن يعوقوه عن متجهه ، وكان ذلك فى الوقت نفسه أحد الأمور التى بيتوها له ﷺ بدار الندوة ، إذ كان بينها أن يخرجوه من ديارهم على سبيل النفى أو الطرد .

فإذا خرج مستعلناً بخروجه حقق لهم وجهاً مما كانوا يبتغون ، وأراحهم من كرب الغيظ الذى فتك بحشاشة نفوسهم ؛ وتمكن من سويداء أفئدتهم حين خرج عليهم ﷺ وهم فى سباتهم غارقون .

على أن فيما باشره ﷺ من خروجه على ما وصف : درساً باقياً على الزمن لمن أراد التربص بعدوه ، فلم تكن هذه الأحداث لتقع دون أن تجد العبرة منها طريقها إلى قلوب العالمين .

يضاف إلى ما قدمناه أن فيما تم له ﷺ من مغافلة قومه حلقه من حلقات التأييد الموصول الذى ثبت الله به فؤاد رسوله ومن تابعوه ، ففى خروجه ﷺ

والقوم متربصون به ساهرون يترقبون مطلع الفجر ليجهزوا عليه وعلى دعوته فيما سولت لهم نفوسهم ، أقول : ففى خروجه هذا والقوم على هذه الهيئة واحدة من خوارق العادات التى أمد الله رسوله بها تصديقاً له فى دعوى الرسالة[1] .

ولكن قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة سيدنا عمر « رضى الله عنه » وهجرة النبى ﷺ ، ويتساءل : لماذا هاجر عمر بن الخطاب علانية متحدياً المشركين ؟ على حين هاجر رسول الله مستخفياً محتاطاً لنفسه ؟ أيكون سيدنا عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » أشد جرأة من النبى « عليه الصلاة والسلام » ؟ وللجواب عن ذلك يقول الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى فقه السيرة : « إن سيدنا عمر بن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله ﷺ يعتبر تصرفه تصرفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه ، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى .

أما رسول الله ﷺ فهو مشرع ، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا ، ولذلك كانت سنته هى المصدر الثانى من مصادر التشريع مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره . فلو أنه فعل كما فعل عمر ، لحسب الناس أن هذا هو الواجب !.. وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر ، والتخفى عند الخوف . مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها ، وإن كان الواقع الذى لا شك فيه أن ذلك بتسبيب الله تعالى وإرادته .

لأجل ذلك ، استعمل الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التى يَهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل ، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل التى يعتد بها إلّا واستعملها ، فترك على بن أبى طالب ينام فى فراشه ، واستعان بأحدالمشركين ــ بعد أن أمنه ــ ليدله على الطرق الفرعية التى قد لا تخطر على بال الأعداء ، وأقام فى الغار ثلاثة أيام متخفياً ، إلى آخر ما عباه من الاحتياطات المادية التى قد يفكر فيها العقل ، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله « عز وجل » لا ينافى استعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله « عز وجل » أن تكون أسباباً .

---

(١) فصول من السيرة النبوية . للدكتور عبد المنعم السيد حسن ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

وليس قيامه بذلك بسبب خوف فى نفسه ، أو شك فى إمكان وقوعه فى قبضة المشركين قبل وصوله المدينة . والدليل على ذلك أنه « عليه الصلاة والسلام » بعد ما استنفد الأسباب المادية كلها ، وتحلق المشركون بالغار الذى يختبىء فيه رسول الله ﷺ وصاحبه بحيث لو نظر أحدهم عند قدمه لأبصر الرسول ﷺ استبد الخوف بقلب أبى بكر « رضى الله عنه » على حين كان يطمئنه « عليه الصلاة والسلام » قائلاً : يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ولقد كان من مقتضى اعتماده على كل تلك الاحتياطات أن يشعر بشىء من الخوف والجزع فى تلك الحال .

لقد كان كل ما فعله من تلك الاحتياطات إذن وظيفة تشريعية قام بها ، فلما انتهى من أدائها ، عاد قلبه مرتبطاً بالله « عز وجل » معتمداً على حمايته وتوفيقه ، ليعلم المسلمون أن الاعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون إلّا على الله « عز وجل » ، ولكن لا ينافى ذلك احترام الأسباب التى جعلها الله فى هذا الكون أسباباً .

ومن أبرز الأدلة على هذا الذى نقوله أيضاً ، حالته ﷺ عندما لحق به سراقة يريد قتله وأصبح على مقربة منه . لقد كان من مقتضى كل تلك الاحتياطات الهائلة التى قام بها ، أن يشعر بشىء من الخوف من هذا الذى يَجِدُّ فى اللحاق به بل كان مستغرقاً فى قراءته ومناجاته مع ربه ؛ لأنه يعلم أن الله الذى أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم كما بين فى كتابه المبين(١) .

وكما يقال فى الاستخفاء فى الخروج فقل مثله فى الاختفاء فى غار ثور ثلاثة أيام حتى ينقطع الطلب .

**رابع عشر** : فى نسج العنكبوت على فم الغار الذى اختبأ فيه الرسول وصاحبه أبو بكر ، أثر بالغ فى رد الطلب عن الرسول ﷺ وصاحبه ، فرغم أنهم كانوا على بعد خطوات من الرسول وصحبه ولو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما كما قال سيدنا أبو بكر إلّا أن عناية الله وحفظه صرفتهم ، وأعمت أبصارهم ، وفى هذا مثل من أمثلة العناية الإلهية برسله ودعاته وأحبابه ، فما كان فضل الله تعالى

---

(١) فقه السيرة للبوطى ص ١٤٥ ، ١٤٦

ورحمته بعباده ليسمح بوقوع الرسول فى يد المشركين ، فيقضى بذلك على رسول الله ﷺ وعلى دعوته ، وهو الذى أرسله رحمة للعالمين ، كما أن فى هذه المعجزة أيضاً دليلا على أن الله « سبحانه وتعالى » يقف بجوار دعاته المخلصين فى وقت الشدة وينقذهم من المآزق الحرجة ، ويعمى عنهم فى كثير من الأحيان أبصار المتربصين لهم بالشر والغدر ، وليس فى نجاة الرسول وصحبه بعد أن أحاط بهما المشركون فى « غار ثور » إلّا تصديق لقول الحق « تبارك وتعالى » ﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾(١) ولقوله أيضاً : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾(٢) .

**خامس عشر** : فى خوف أبى بكر وهو فى الغار من أن يراهما المشركون مثل لما ينبغى أن يكون عليه جندى الدعوة الصادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته . فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذى يخشى على نفسه من الموت ، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ فى هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ فى قبضة المشركين . وفى جواب الرسول ﷺ لأبى بكر تطمين له على قلبه « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » الثقة بالله والاطمئنان إلى نصره ، والاتكال عليه عند الشدائد وهو دليل واضح على صدق الرسول ﷺ فى دعوى النبوة ، فهو فى أشد المآزق حرجاً ، ومع ذلك تبدو عليه أمارات الاطمئنان إلى أن الله الذى بعثه هدىً ورحمة للناس لن يتخلى عنه فى تلك الساعات ، فهل ترى مثل هذا الاطمئنان يصدر عن مدع للنبوة ، منتحل صفة الرسالة ؟ وفى مثل هذه الحالات يبدو الفرق واضحاً بين دعاة الإصلاح وبين المدعين له والمنتحلين لاسمه ، أولئك تفيض قلوبهم دائماً وأبداً بالرضا عن الله ، والثقة بنصره ، وهؤلاء يتهاوون عند المخاوف وينهارون عند الشدائد ثم لا تجد لهم من الله ولياً ولا نصيراً(٣).

---

(١) سورة غافر ٥١ .

(٢) سورة الحج ٣٨ .

(٣) السيرة النبوية دروس وعبر . للدكتور مصطفى السباعى ص ٨٦ ، ٨٧ .



# الفصـــل الثالث

## صفات المهاجرين كما تحدث عنها القرآن الكريم

لما كانت الهجرة من الأحداث العالمية الكبرى التى أراد الله لها أن تكون متحولاً لعالم جديد . عالم يقدر المثل العليا ويضحى فى سبيلها .

وشاء الله أن تكون هذه الصفوة المختارة من أصحاب النبى ﷺ خير أمة أخرجت للناس ، كما اقتضت حكمة المولى « سبحانه وتعالى » أن يمحصهم ويختبرهم ليميز الخبيث من الطيب . كما اقتضت حكمة المولى « سبحانه وتعالى » أن يجعل طريق الإيمان محفوفاً بالصعوبات لبناء هؤلاء العظماء من أصحاب النبى ﷺ ، ولقد علم أولئك الأبطال أنهم سيستهدفون لإيذاء كثير فقد سمعوا قول ربهم : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾[١] وسمعوا : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[٢] .

ثم سمعوا قول نبيهم لابن الأرت : « لقد كان مِنْ قَبْلَكُم يمشط بِمِشَاط الحديد ما دون عظامه من لحم ، أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مَفْرِق رأسه ، فَيُشَق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليُتِمّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلّا الله ـــ زاد بيان ـــ والذئب على غنمه »[٣] .

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢) سورة الأنعام ٣٤ .

(٣) صحيح البخارى كتاب بدء الوحى إلى الرسول ﷺ

كما أن النبى ﷺ عرف منذ اليوم الأول لرسالته أنه سيواجه كثيراً من العقبات والصعوبات ، وأنه سيهاجر من مكة ؛ فلقد سمع من ورقة بن نوفل : « ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال : أومخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت نبى بمثل ما جئت به إلّا أوذى »[1].

ولو أن دعوات الأنبياء اقترنت بمنفعة شخصية لمن يؤمن بدعوتهم لتكالب على الاستجابة لهم الغثاء الكثير الذى لا خير فيه ، ولترفع كبار النفوس عن الزحام والمصارعة على انتزاع تلك المنافع ..

إن بعض المؤلفين فى أيامنا هذه يحاولون أن يجعلوا الإسلام صورة من الثورات التى تحدث نتيجة لصراع بين طوائف المجتمع . فيتخذون من إسلام بلال وغيره من المستضعفين صورة لطائفة تشرئب لنيل الحرية .

والله يعلم أن هؤلاء لم يفكروا حين بادروا إلى الإسلام بشىء من ذلك . وإلّا فقد كان سادتهم مستعدين لإعطائهم ما يريدون لو علموا أن ذلك سيجعلهم يرتدون عن إسلامهم . ولما كنا نحن المسلمين اليوم ننظر فى مستقبلنا فلا نرى إلّا الظلام واليأس ، فإذا رجعنا النظر إلى ماضى الإسلام والمسلمين المشرق بسبب تمسكهم بكتاب ربهم وبسنة نبيهم اعتقدنا اعتقاداً جازماً أنه لن يصلح حال هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها . ومن هنا كان من ألزم الواجبات علينا الآن أن نكشف عن مظاهر العظمة الإنسانية فى هذا الجيل الفذ . إذ ما أحوجنا إلى ذلك اليوم حيث لا أمل إلّا فى الاقتداء بهؤلاء .

لذا فسوف نحاول إبراز مظاهر العظمة فيهم من خلال التعرف على بعض صفاتهم وأخلاقهم مستعينين بالله .

فنجد أن أول ما يلفت نظرنا من تلك الصفات هى صفة :

**الإخلاص** : التى هى أول صفة تقترن بالإيمان الحق .

ولكن ما مفهوم هذه الصفة الكريمة : يقول صاحب كتاب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين والإخلاص بكسر الهمزة مصدر أخلص ، قال الراغب فى

---

(١) السابق كتاب بدء الخلق باب ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة .

مفرداته : الإخلاص التعرى عما دون الله تعالى أ . هـ ، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى : الإخلاص إفراد الحق « سبحانه وتعالى » فى الطاعات بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق واكتساب محمدة عند الناس ؛ أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى . قال ويصح أو يصلح أن يقال : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين « وإحضار النية فى جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة » أى الظاهرة (و) الأعمال والأقوال والأحوال « الخفية » ؛ والنية واجبة أول كل فعل شرعى لتوقف صحته عليها »(١) .

ولأهمية صفة الإخلاص أمرنا الله « تبارك وتعالى » فى قرآنه الكريم بالالتزام بها فى عبادتنا له . قال تعالى : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾(٢) .

كما أخبرنا النبى ﷺ أن الإخلاص شرط لقبول الأعمال . قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »(٣) ومع كون هذه الصفة من صفات القلوب التى لا ترى فقد تجلت واضحة فى سلوك أولئك المهاجرين الذين تركوا وطنهم وأهليهم وأموالهم وخرجوا إلى غربة لا يعلم إلّا الله مداها وطريق حافل بالأخطار والصعوبات ، وقد كان يمكنهم أن يعيشوا أفضل حياة دنيوية لو استجابوا لما دعاهم إليه قومهم ، لكن إخلاصهم فى معتقداتهم وسمو نفوسهم وأرواحهم وسيطرة إيمانهم الكامل عليهم — كل ذلك جعلهم يهجرون كل المتع الزائلة والمظاهر الخادعة والرغبات الشيطانية ، ويتوجهون بنفوس صافية وأرواح طاهرة مخلصة إلى ربهم وما يأمرهم به ، ثم إلى نبيهم وما يدعوهم إليه مبتغين فى كل ذلك الفضل والرضوان من الله « سبحانه وتعالى » وحده . قال تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ**

---

(١) انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . للشيخ محمد بن علان الصديق الشافعى الأشعرى المكى ج ١ ص ٣٤ .

(٢) سورة البينة الآية رقم ٥ .

(٣) صحيح البخارى كتاب بدء الوحى ، كتاب الإيمان باب ماجاء إن الأعمال بالنية ، كتاب بدء الخلق باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه للمدينة .

الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا ﴾(١) .

وثانى هذه الصفات **نصر الإسلام ودعوته :**

ومن منطلق حقيقة الإخلاص تنشأ المواقف الرائعة لأولئك المهاجرين الذين أرادوا منها نصرة الإسلام ودعوته ؛ فقد وصفهم القرآن الكريم بذلك . قال تعالى : ﴿ **وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾(٢) « ولعل من أعظم نماذج المهاجرين الذى تتجلى فيـه نصرة الله ورسوله هذا النموذج الرائع المتمثل فى أبى بكر الصديق حتى استحق بجدارة أن يقول فيه رسول الله ﷺ :

« ما لأحد عندنا يد إلّا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن صاحبكم خليل الله »(٣) .

ولعل القارىء الكريم على ذكر من دوره البارز فى إنجاح هجرته ﷺ وخروجه من مكة إلى المدينة سالماً معافى ، حيث جند ابنه عبد الله لتتبع الأخبار فى قريش ــ وقت اختباء الرسول وصاحبه فى الغار ــ وإخبار الرسول والصديق بها كما جند راعى غنمه ، عامر بن فهيرة للقيام بعملية الإمداد والتموين لهما فى الغار ، وإزالة آثار أقدام عبد الله أيضاً لكى لا تدل القوم على مكان اختباء الرسول والصديق .

ثم لم يزل الصديق « رضى الله عنه » على هذا النحو الفذ العبقرى المتفانى فى نصر الله ورسوله إلى آخر يوم فى دهره .

وما إتيانه بماله كله يوم أن خرج مهاجَراً مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة كما أخبرتنا بذلك أسماء بنت أبى بكر حيث قالت « لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه احتمل أبو بكر معه ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب

---

(١ ، ٢) سورة الحشر آية رقم ٨ .

(٣) سنن الترمذى كتاب المناقب باب مناقب أبى بكر ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

بصره . فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه قالت : قلت : كلا يا أبت قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً فجعلتها فى كوة فى البيت كان أبى يجعل فيها ماله ثم جعلت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت ضع يا أبت يدك على هذا المال ! قالت : فوضع يده عليه ، فقال لا بأس إن كان ترك لكم هذا لقد أحسن وفى هذا لكم بلاغ . قالت : ولا والله ما ترك لنا شيئاًولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك »[١] . أقول ما ذلك بمجهول ولا منكور . وكذلك إتيانه بكل ما عنده من المال ووضعه بين يدى النبى ﷺ عند تجهيز جيش العسرة لغزوة تبوك ليس بمجهول أو مما يمكن أن يكون لمثله نظير ، وما جوابه على النبى ﷺ وقد سأله « ما أبقيت لأهلك » يقول رضى الله عنه « أبقيت لهم الله ورسوله حتى قال عمر — ومنزلة الفاروق فى الإسلام مذكورة مشهورة —لا أسبقه إلى شىء أبداً »[٢] أقول ما ذلك كله بمجهول ولا منكور كذلك .

كذلك نرى من النماذج البارزة الروعة المتألقة العبقرية فى هذا المجال عمرَ الفاروق « رضى الله عنه » ذلك الذى أعز الله الإسلام به وصدق فيه دعوة نبيه « اللهم أعزالإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب ، فبنى عليه الإسلام وهدم به الأوثان »[٣] .

كذلك جهره بالإسلام بمجرد أن اعتنقه بل كان أول من جهر به يقول ابن عباس « رضى الله عنه » ، أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب »[٤] كما أنه لم يدع مجلساً من المجالس التى جلسها فى كفر إلّا وأعلن فيه الإسلام . فعن ابن عمر أنه أتى النبى ﷺ فقال : « يا رسول الله إنى لا أدع مجلساً جلسته فى الكفر إلّا أعلنت فيه الإسلام . فأتى المسجد وفيه بطون قريش متحلقة فجعل يعلن الإسلام ويشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله فثار المشركون فجعلوا

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبرانى ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق . وقد صرح بالسماع مجمع الزوائد ج ٦ ص ٥٩ .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب المناقب باب مناقب عمر بن الخطاب ، وقال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بنحوه باختصار . وقال : أيد الإسلام . ورجال الكبير رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد ، وهو موثوق مجمع الزوائد ج ٩ ص ٦٣ .

(٤) رواه الطبرانى وإسناده حسن السابق .

يضربونه ويضربهم فلما تكاثروا عليه خلصه رجل ، فقلت لعمر من الرجل الذى خلصك من المشركين قال ذاك العاص بن وائل السهمى »(١) . وكذلك لما طلب من رسول الله ﷺ يوم بدر ألا تأخذه فى المشركين لومة لائم حين استشار الرسول أصحابه فى أمر أسرى المشركين .

روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب فى حديث غزوة بدر الطويل قول عمر فى هذا الحديث « فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يانبى الله هم بنوا العم والعشيرة ؛ أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله : ما ترى يابن الخطاب ؟ قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكنى من فلان « نسيباً لعمر » فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان . قلت يا رسول الله أخبرنى : من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة « شجرة قريبة من نبى الله ﷺ » وأنزل الله عز وجل : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ وقوله : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً** ﴾(٢)

ومن النماذج البارزة الروعة أيضاً سيدنا على بن أبى طالب « رضى الله عنه » الذى ضحى بنفسه ونام فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ؛ لكى يمكنه « عليه الصلاة والسلام » من الخروج من مكة إلى المدينة سالما دون أن يلحقه أى أذى من المشركين .

والذى كان من أوائل المبارزين فى قتال المشركين يوم بدر .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات « السابق ص ٦٥ » .

(٢) رواه الإمام مسلم كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم .

وكذلك من هذه النماذج الفذة التى فاقت الوصف سيدنا عثمان « رضى الله عنه » الذى ضحى كثيراً من أجل نصرة الإسلام ورسوله ، وما موقفه يوم الحديبية حينما استجاب لطلب رسول الله ﷺ منه حين أمره الرسول أن يذهب لمكة إلَّا صورة من صور التضحية بالنفس ، رغم أنه كان من الجائز أن يقتل رضوان الله عليه(١) .

وأيضاً إتيانه بالمال الكثير فى تجهيز جيش العسرة فى تبوك .

روى الترمذى عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار . قال الحسن بن رافع وكان فى موضع آخر من كتاب فى كمه حين تجهز جيش العسرة : فينثرها فى حجره ويقول : ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم . مرتين »(٢) وعن ثُمَامَة بن حَزْنِ القشيرى قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ، فقال : ائتونى بصاحبيكم اللذين ألَّباكم على . قال : فجىء بهما فكأنهما جملان أو كأنهما حماران . قال : فأشرف عليهم عثمان فقال : أنشدكم بالله والإسلام : هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ؟ فقال من يشترى بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى : فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها حتى أشرب من ماء البحر . قالوا : اللهم نعم . قال : أنشدكم بالله وبالإسلام : هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله ﷺ : من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين . قالوا : اللهم نعم ، قال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا : اللهم نعم . ثم قال : أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير مكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض ، قال : فركضه برجله وقال : اسكن ثبير فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : الله أكبر ، شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد ثلاثاً »(٣) .

(١) انظر الترمذى كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان .

(٢) الترمذى كتاب المناقب باب مناقب عثمان بن عفان ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٣) المرجع السابق وقال عنده أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد روي من غير وجه عثمان .

وإذا ذكرت نصرة المهاجرين للإسلام فما ينبغى أن نغفل موقف مصعب بن عمير سفير النبى ﷺ إلى المدينة داعياً إلى الإسلام ، وكيف نجح فى مهمته حتى دخل الإسلام كل بيوت المدينة لجمال عرضه وقوة حجته وحسن حديثه ولباقته فكان خير من يقوم بهذا .

وثالث هذه الصفات **الصدق** :

وليست هذه الصفة بمعزل عن الإخلاص بل هى عنوانه وترجمانه وصورته الظاهرة فى سلوك أصحابه ؛ فالإخلاص معنى فى القلب لا يدركه إلّا مقلب القلوب الذى يعلم السر وأخفى ، والصدق يكون فى القول وفى العمل وقبل ذلك فى الاعتقاد ، وهذا الأخير هو الإخلاص الذى تكشف عنه المواقف وتمحصه الشدائد والمحن . ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾(١) .

وإذا بحثنا عن موقف أولئك المهاجرين وجدناهم واجهوا أقصى المصاعب وتحملوا كل ألوان الإيذاء صابرين محتسبين ، بل سعداء بما أصابهم فى سبيل ربهم .

وما ذلك إلّا لأنهم قد صدقوا فى إيمانهم فأخلصوا لله « سبحانه وتعالى » فى أعمالهم ، من أجل ذلك استحقوا أن يسميهم الله بالصادقين . قال تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾(٢) وهناك مواقف كثيرة تكاد لا تحصى يظهر لنا فيها توطن هذه الصفة فى نفوسهم .

والصدق فى الإسلام من أهم الصفات التى يجب أن يلتزم بها المؤمن « فهو يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً »(٣) وما أحوجنا فى عصرنا إلى المؤمن الصادق فى وقت فشا فيه الكذب ، وانتشر النفاق وافتقدت الثقة فتمزق المسلمون شر ممزق وأصبحوا كغثاء السيل ، وصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم أكثر مما يفعله بهم عدوهم .

---

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٤٢ .

(٢) سورة الحشر الآية رقم ٨ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الأدب باب قول الله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وما ينهى عن الكذب .

رابع هذه الصفات : **التضحية :**

والحديث عن الصدق المنبثق من الإخلاص فى الإيمان يقتضينا التماس آثاره فى مواقف التضحية الغالية ، والتى تحدث عنها القرآن الكريم فى غير موضع . قال تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي** ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً** ﴾(٤) فقد ضحى المهاجرون بكل شيء من أجل إعلاء كلمة الإسلام ونصرة دين الله ، سواء فى خروجهم من ديارهم وتركهم لكل ما يملكون خلفهم أو لمحاربتهم أعداء الله فى الغزوات التى وقعت بين المسلمين وأعداء الإسلام ، فقد كانوا يضربون المثل فى التضحية فى سبيل الله . من أجل ذلك فهم من أول المقصودين بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾(٥) .

خامس هذه الصفات : **الصبر :**

وحقيقة الصبر كما يقول الراغب فى المفردات :

« الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه ، فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه فإن كان حبس النفس لمصيبة سمى صبراً لا غير ويضاده الجزع ، وإن كان فى محاربة سمى شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان من نائبة مضجرة سمى رحب الصدر ويضاده الضجر ، وإن كان فى إمساك الكلام سمى كتماناً ويضاده الهذر وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً ونبه عليه بقوله تعالى : ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ**(٦) ﴾

(١) سورة آل عمران الآية رقم ١٩٥ .
(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٠ .
(٣) سورة الحج جزء من الآية رقم ٤٠ .
(٤) سورة الحشر جزء من الآية رقم ٨ .
(٥) سورة التوبة جزء من الآية ١١١ .
(٦) سورة البقرة جزء من الآية رقم ١٧٧ .

﴿ والصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾(١) ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾(٣) « أى احبسوا أنفسكم على العبادة وجاهدوا أهواءكم »(٤)

وقد تجلت فضيلة الصبر بكل معانيها السابقة فى سلوك المهاجرين ومواقفهم من الهجرة ، حيث احتملوا ما تعجز عنه طاقات البشر إلَّا من اختصهم الله بالتأييد وتقوية العزائم . قال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٦) .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٧) .

## جزاء المهاجرين

المهاجرون هم أول من آمنوا بهذا الدين الإسلامى ، وكافحوا كفاحاً مريراً من أجله ، وجادوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل تبليغه إلى الناس ، وإعلاء كلمته . وضربوا فى ذلك أروع الأمثلة فى الفداء والجهاد .

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ ، ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية فى مكة من وأد الدعوة ، وهى فى مستهل حياتها ، لقد استمسكوا بما أوحى

(١) سورة الحج جزء من الآية ٣٥ .
(٢) سورة الأحزاب جزء من الآية ٣٥ .
(٣) سورة آل عمران جزء من الآية ٢٠٠ .
(٤) المفردات للراغب الأصفهانى ص ٢٧٣ وما بعدها .
(٥) سورة الشورى الآية ٤٣ .
(٦) سورة النحل الآيتان ٤١ ، ٤٢ .
(٧) سورة النحل الآية ١١٠ .

إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلَّا اعتصاماً بما اهتدوا إليه وآمنوا به .

فلما أسرفت الجاهلية فى عسفها واضطهادها وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصابرين بالهجرة من مكة خرجوا من ديارهم وأموالهم ، ويمموا صوب المدينة ليس رهبة من الكفر ولا رغبة فى الدنيا ، ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ويبتغون فضلاً منه ورضواناً .

لذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل فى الدنيا ، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم .

وهذه بعض النعم التى أعدها الله « سبحانه وتعالى » للمهاجرين فى الدنيا والآخرة .

## ١ ـــ سعة رزق الله لهم فى الدنيا :

إن المنهج الربانى القرآنى عالج مخاوف النفس المتنوعة ، وهى تواجه مخاطر الهجرة فى مثل الظروف التى كانت قائمة عند هجرة الصحابة « رضوان الله عليهم » من مكة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، والتى قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف فى بعض الأحيان ، وقد عالج هذه النفس فى وضوح وفصاحة فلم يكتم عنها شيئاً من المخاوف ، ولم يدار عنها شيئاً من الأخطار ، بما فى ذلك خطر الموت ، ولكنه سكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله « سبحانه وتعالى » . فهو يحدد الهجرة بأنها فى سبيل الله وهذه الهجرة المعتبرة فى الإسلام فليست هجرة للثراء أو هجرة للنجاة من المتاعب أو هجرة للذائذ والشهوات ، أو هجرة لأى عرض من أعراض الحياة ومن يهاجر هذه الهجرة فى سبيل الله ـــ يجد فى الأرض فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق وللحياة ، وسيجد الله فى كل مكان يذهب إليه(١) . يسكنه وغيره من المهاجرين مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم الله خيراً منها فى الدنيا فيمكن لهم فى البلاد ، ويصيرهم أمراء

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٢ ص ٧٤٥ .

وحكاماً ، ويجعلهم للمتقين إماماً(١) . قال تعالى متحدثاً عن ذلك فى القرآن الكريم :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾(٣) .

## ٢ ــ مغفرة ذنوبهم والعفو عن أخطائهم :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) . وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ﴾(٥) وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(٦) .

هذه هى صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقى لهذا الدين ، وهذه هى الصورة الحقيقية التى يتمثل فيها الإيمان ، وإنه لا يوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ، ولا بمجرد اعتناقها ، ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها .. إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل فى وجود فعلىٍّ إلَّا إذا تمثل فى تجمع حركى . أما وجوده فى صورة عقيدة فهو وجود حكمى لا يصح « حقاً » إلَّا حين يتمثل فى تلك الثورة الحركية الواقعية وهؤلاء المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم ورحمة من الله سبحانه وتعالى »(٧) .

---

(١) تفسير المراغى ج ١٤ ص ٨٥ بتصرف .

(٢) سورة النساء الآية رقم ١٠٠ .

(٣) سورة النحل الآية رقم ٤١ .

(٤) سورة النحل الآية رقم ١١٠ .

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٩٥ .

(٦) سورة الأنفال الآية رقم ٧٤ .

(٧) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٥٦٠ بتصرف .

### ٣ ــ ارتفاع منزلتهم وسمو درجتهم عند ربهم :

فالذين نالوا فضل الإسلام والهجرة والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال لهم أعظم الدرجات عند الله . قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾(١) .

يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة :

« إن الموصوفين بهذه الصفات الأربعة فى غاية الجلالة والرفعة ؛ لأن الإنسان ليس له إلَّا مجموع أمور ثلاثة : الروح ، والبدن ، والمال . أما الروح فلما زال عنه الكفر وحصل فيه الإيمان ، فقد وصل إلى مراتب السعادات اللائقة بها . وأما البدن والمال فبسبب الهجرة وقعا فى النقصان وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا معرضين للهلاك والبطلان . ولا شك أن كلاً من النفس والمال محبوب للإنسان . والإنسان لا يعرض عن محبوبه إلَّا للفوز بمحبوب أكمل من الأول ، فلولا أن طلب الرضوان أتم عندهم من النفس والمال ، وإلَّا لما رجحوا جانب الآخرة على جانب النفس والمال ولما رضوا بإهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله تعالى .

فثبت أن عند حصول الصفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى آخر درجات البشرية وأول مراتب درجات الملائكة ، وهم بذلك يكونون أفضل من كل من سواهم من البشر على الإطلاق ؛ لأنه لا يعقل حصول سعادة وفضيلة للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصفات(٢) .

### ٤ ــ استحقاقهم الجنة والخلود فيها :

فالله سبحانه وتعالى وعد هؤلاء المهاجرين من الطغيان إلى أرض أخرى يستطيعون فيها بث دعوة ربهم ويأخذون منها منطلقاً ينطلقون منه إلى كل أرجاء الدنيا وعدهم برضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم ــ لا يزول على عِظَمِهِ وكماله ــ لا يقدر قدره إلَّا الله ، تفضل به عليهم ومنحه لهم بسبب إيمانهم الكامل الباعث على هجرتهم

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ٢٠ .

(٢) الفخر الرازى ج ١٦ ص ١٣ وما بعدها بتصرف .

لوطنهم ومفارقتهم لأهلهم ولمساكنهم ، وعلى إنفاقهم المال الذى هو أحب شيء إلى النفس وعلى بذلهم لأنفسهم التى هى أعز شيء على الإنسان .

فما أجدرهم أن يبشرهم ربهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحى وجسمانى ، فالأول الرحمة والرضوان وهو نهاية الإحسان ، وهو أعم النعيم وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾(١) .

والثانى : هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وهذا فوز ما بعده فوز(٢) .

يقول سبحانه وتعالى فى كل ما تقدم :

﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(٤) .

* * *

---

(١) سورة التوبة الآية رقم ٧٢ .
(٢) تفسير المراغى ج ١٠ ص ٧٨ وما بعدها بتصرف .
(٣) سورة التوبة الآية رقم ٢٠ : ٢٢ .
(٤) سورة التوبة الآية رقم ١٠٠ .

# الفصل الرابع

## أهم النتائج المترتبة على الهجرة

### يوم له ما بعده

مستعيناً بالله أحاول أن أتأمل فى الهجرة وما كان لها من آثار كبار فى تغيير مسار التاريخ كله حتى عصرنا وما بعد عصرنا .

وأقرر ابتداء أنى لم أتهيب الإقدام على الكتابة فى أى مجال قدر تهيبى فى هذا الموقف ، إذ أشعر بالعجز الكامل عن الإحاطة بهذه الآثار ، ثم أشعر كذلك بالعجز الكامل عن تصوير القليل الذى أعرفه . فالحقيقة فوق ما أطيق وفوق ما يطيق كل كاتب ، وما أدركه فوق القدرة على التعبير عنه .

وإنى وشعورى بالإشفاق من الإقدام على هذا العمل أجد أن أضواء الإيمان وأريج المواقف وشموخ الرجال وسمو المبادىء والإنسانيات العليا تشدنى إليها ؟ فألتفت نحوها فى إكبار ما وراءه أكبار ... وأوازن بين رجال ورجال فأرى الفرق كبيراً بين العمالقة والأقزام ، ووسط الانبهار بعظمة الرجال وبطولات الأبطال أشعر بأن طريقنا اليوم للخلاص من الذلة والهوان الذى صرنا إليه حتى تحقق فينا قول نبينا ﷺ وأنتم يومئذ كثير . ولكن يلقى فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال »[1] وقد تداعت علينا الأمم ، فصرنا طعمة لكل طاعم ونهبة لكل ناهب . أقول ليس أمامنا إلّا طريق واضح وهو العودة إلى تراثنا الخصب . هذا التراث الذى أخرج للعالم خير أمة أخرجت للناس ، وكانت الهجرة مجالاً لإظهار هذه الإنسانيات المناضلة

---

(١) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط بنحوه ، وإسناد أحمد جيد « مجمع الزوائد » ج ٧ ص ٢٨٧ .

التى سعد بها الكون .

وإلّا فأين فدائية ابن أبى طالب ؟ ــ وتضحية الصديق ؟ ــ والثقة فى نصر الله ؟ وإيثار الأنصار ؟ .

وقد هالنى ما تركه هذا الحادث من آثار لا تزال تمتد إلى الآن ، وسوف تظل إلى آخر الزمن ، فهذا يوم له ما بعده حتى تقوم الساعة .

فكل مظاهر الحضارة التى تعيشها الإنسانية كلها إنما تدين بوجودها لهذا اليوم الذى كان فارقاً بين عهدين ؛ فحمل اللواء تسير وراءه كل كتائب الحق والخير يحملون النور ليزيلوا غياهب الظلمات .

ولقد أدركت أن صعوبة البحث فى أمر له كل هذه المآثر أشق من محاولة البحث عن شىء ليس له كثير من الآثار . فالحيرة فى الاختيار بين المواقف وترتيب النتائج وإبراز أهمها والتعرف على ترتيبها أمر غير ممكن . ذلك لأن عظمة ما تلاها وسرعةالتطور وتفاعل المواقف بعضها مع بعض ، وما يترتب عليها من مواقف ليست أقل منها أثراً لتتفاعل هى الأخرى بحيث يجد الإنسان نفسه وقد عقدت لسانه الدهشة وعقل فكره الانبهار . ولكنى أستعين بالله فى أن أدلى بدلوى فى هذا الميدان وهو دلو صغير إذا قورن بغيره من الدلاء ، وأبدأ حديثى بالأسس التى وضعها النبى ﷺ لبناء أول مجتمع مسلم أخبر عنه ربنا سبحانه وتعالى ــ بأنه ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ .

## الدعائم التى أقامها الرسول لبناء المجتمع الإسلامى

لقد كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، تعنى نشأة أول دار إسلام إذ ذاك على وجه الأرض ، وقد كان ذلك إيذاناً بظهور الدولة الإسلامية بإشراف الرسول ﷺ المنشىء الأول لها .

ولذا فقد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ ، أن أقام الأسس المهمة لهذه الدولة(١) ، ولقد كانت هذه الأسس ممثلة فى هذه الأعمال الثلاثة التالية :

---

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٥١ .

**أولاً** : صلة الأمة بالله ، وذلك عن طريق بناء المسجد النبوى الشريف .

**ثانياً** : صلة الأمة بعضها ببعض وتتمثل فى المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة .

**ثالثاً** : صلة الأمة بالأجانب عنها ، ممن لا يدينون بدينها ، وذلك بكتابة وثيقة « دستور » حدد نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وأوضحت علاقتهم بغيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة .

## « الدعامة الأولى »

وهى الاهتمام بالجانب الروحى ، وذلك عن طريق بناء المسجد النبوى الشريف .

وأول عمل قام به رسول الله ﷺ بالمدينة هو بناء المسجد ، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التى طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التى تربط المرء برب العالمين ، وتنقى القلب من أدران الأرض ، وأدناس الحياة الدنيا(١) .

وقد بنى رسول الله ﷺ مسجده فى المدينة بالمكان الذى بركت ناقته فيه .

روى البخارى بسنده أن رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلته ؛ « فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً(٢) للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين فى حجر سعد بن زرارة(٣) . فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته « هذا إن شاء الله المنزل » ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا : لا بل نهبه لك يا

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ، ص ١٩١ .

(٢) مِرْبَد بكسر الميم وسكون الراء وفتح الموحدة هو الموضع الذى يجفف فيه التمر ، وقال الأصمعى : المربد كل شىء حبست فيه الإبل أو الغنم ، وبه سمى مربد البصرة ؛ لأنه موضع سوق الإبل ، مِرْبَد من ربد المكان إذا أقام فيه وربده إذ حبسه » النهاية ج ٢ ص ٥٨ .

(٣) وفى رواية أسعد بن زرارة وهو الوجه ، وكان أسعد من السابقين إلى الإسلام من الأنصار ويكنى أبا أمامة ، فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٠١ .

رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً . وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبن فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن :

**هذا الحمال[1] لا حمال خيبر      هذا أبـــر[2] ربنـــا وأصبر**

**ويقـــول :**

**اللهم إن الأجر أجر الآخرة      فارحـم الأنصار والمهاجـرة**

فتمثل بشعر رجل من المسلمين[3] .

وفى رواية أخرى :

« أن رسول الله ﷺ دخل المدينة على راحلته وأبو بكر ردفه[4] وملأ بنى[5] النجار حوله حتى ألقى[6] بفناء[7] أبى أيوب[8] ، فكان يصلى حيث أدركته

---

(١) هذا الحمال بالمهملة المكسورة وتخفيف الميم أى هذا المحمول من اللبن « السابق » ج ١٥ ص ١١٦ .

(٢) هذا أبر عند الله أى أبقى ذخراً وأكثر ثواباً وأدوم منفعة وأشد طهارة من حمال خيبر التى يحمل منها التمر والزبيب ونحو ذلك ، ووقع فى بعض النسخ فى رواية المستعلى « هذا الجمال بفتح الجيم وقوله « أبر ربنا » أبر منصوبة على نزع الخافض وربنا منادى ، الفتح ، ج ١٥ ، ص ١٠٢ ، النهاية ٢ / ٢٦٠ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب هجرة النبى وأصحابه .

(٤) أبو بكر ردفه : كأن النبى ﷺ أردفه خلفه على راحلته تشريفاً له وتنويهاً بقدره ، وإلَّا فقد كان لأبى بكر ناقة هاجر عليها ، فتح البارى ، ج ٣ ص ٨٩ ، ويحتمل أن يكون على راحلة أخرى . قال الله ـــ تعالى ـــ فى سورة الأنفال آية ٩ ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أى يتلو بعضهم بعضاً . ورجح ابن التين الأول وقال : لا يصح الثانى لأنه يلزم منه أن يمشى أبو بكر بين يدى النبى ﷺ ، ثم قال صاحب الفتح تعقيباً على ذلك . قلت : إنما يلزم ذلك لو كان الخبر جاء بالعكس كأن يقول « والنبى ﷺ مرتدف خلف أبى بكر « فأما ولفظه » وهو مردف أبا بكر » فلا . انتهى فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٠٦ .

(٥) ملأ بنى النجار ، أى جماعتهم ، السابق ١٥ / ١٢٥ .

(٦) حتى ألقى . أى نزل . أو المراد ألقى رحله ، السابق .

(٧) بفناء . الفناء بكسر الفاء وبالمد : ما امتد من جوانب الدار ويجمع على أفنية : النهاية ٣ / ٢١٧ بتصرف .

(٨) أبو أيوب ، هو خالد بن زيد بن كليب الأنصارى من بنى مالك بن النجار الفتح ج ١٥ ص ١٢٥ .

الصلاة ويصلى فى مرابض الغنم ، ثم إنه أمر(١) ببناء المسجد فأرسل إلى ملإ بنى النجار فجاءوا فقال : يا بنى النجار ، ثامنونى(٢) بحائطكم(٣) هذا فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلّا إلى الله(٤) ، وكانت فيه(٥) قبور المشركين ، وكان فيه خرب(٦) ، وكان فيه نخل ، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل فقطع ، فصفوا النخل(٧) قبلة المسجد ، وجعلوا عضادتيه(٨) حجارة ، وجعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون(٩) ، ورسول الله ﷺ معهم ، يقولون :

**اللهم إنه لا خير إلّا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة(١٠)**

وقد ضاعف حماس الصحابة فى العمل رؤيتهم النبى ﷺ يجهد كأحدهم ، ويكره أن يتميز عليهم .

---

(١) أمر بالفتح على البناء للفاعل ، وقيل روى بالضم على البناء للمفعول ، الفتح ج ٣ ص ٨٩ .

(٢) ثامنونى بالمثلثة أذكروا لى ثمنه لأذكر لكم الثمن الذى أختاره ، قال ذلك على سبيل المساومة ، فكأنه قال ساومونى فى الثمن ، الفتح ج ٣ ص ٨٩ .

(٣) أى بستانكم ، وقد تقدم فى الحديث السابق أنه كان مربداً فلعله كان أولاً حائطاً ثم خرب فصار مربداً ، ويؤيده قوله : إنه كان فيه نخل وخرب ، وقيل كان بعضه بستاناً وبعضه مربداً ، وقد جاء أن الرسول ﷺ اشتراه منهما بعشرة دنانير ، وزاد الواقدى أن أبا بكر دفعها لهما عنه ، الفتح ج ١٥ ص ١٢٥ .

(٤) لا نطلب ثمنه إلّا إلى الله : أى لا نطلب الثمن لكن الأمر فيه إلى الله أو إلى بمعنى من ، الفتح ج ٣ ص ٨٩ .

(٥) كانت فيه ، أى فى المكان الذى بنى فيه المسجد ، السابق .

(٦) خرب : بكسر المعجمة وفتح الراء والموحدة وقيل بفتح أوله وكسر ثانيه قال الخطابى : أكثر الرواة بالفتح ثم الكسر ، وحدثناه الخيام بالكسر ثم الفتح ثم حكى احتمالات منها الخرب بضم أوله وسكون ثانيه ، قال : هى الخروق المستديرة فى الأرض ، والجرف بكسر الجيم وفتح الراء بعدها فاء ما تجرفه السيول وتأكله من الأرض ، والحدب بالمهملة وبالدال المهملة أيضاً المرتفع من الأرض ، قال : وهذا لائق بقوله فسويت لأنه إنما يسوى المكان المحدوب وكذا الذى جرفته السيول ، وأما الخرب فيبنى ويعمر دون أن يصلح ويسوى ، ثم قال صاحب الفتح : وما المانع من تسوية الخراب بأن يزال ما بقى منه ويسوى أرضه ، ولا ينبغى الالتفات إلى الاحتمالات مع توجيه الرواية الصحيحة ، فتح البارى ، ج ١٥ ص ١٢٥ .

(٧) صفوا النخل : أى موضع النخل . السابق .

(٨) عضادتيه : بكسر المهملة وتخفيف المعجمة تثنية عضادة ، وهى الخشبة التى على كتف الباب ، ولكل باب عضادتان ، وأعضاء كل شىء ما يشد جوانبه ، السابق .

(٩) يرتجزون : أى يقولون رجزاً وهو ضرب من الشعر على الصحيح . السابق .

(١٠) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب مقدم النبى وأصحابه للمدينة .

صفة مسجد الرسول فى العهد الأول :

بنى مسجد رسول الله ﷺ فى عهده باللبن ، وفرش بالرمال والحصباء ، وسقف بالجريد ، وجعلت أعمدته بالجذوع ، ولم يزد فيه شيء فى عهد أبى بكر ، ثم أضيف إليه إضافات طفيفة فى عهد سيدنا عمر ، أما فى عهد سيدنا عثمان فقد أضيف إليه إضافات كبيرة ، روى البخارى بسنده أن عبد الله بن عمر حدث نافعاً عن مسجد رسول الله ﷺ فقال له : « كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن(١)، وسقفه الجريد ، وعمده(٢) خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه(٣) فى عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عُمُدَه خشباً ، ثم غيره عثمان(٤) فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة(٥) والقَصَّة(٦)، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج(٧)،(٨).

ولنا هنا وقفة لا ينبغى أن يفوتنا مثلها فى مثل هذا الموطن العظيم : وهى :

إقبال الرسول ﷺ ، بمجرد وصوله إلى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامى راسخ متماسك ، يتألف من هؤلاء المسلمين الأنصار والمهاجرين الذين جمعتهم المدينة المنورة ، فكان أول خطوة قام بها فى سبيل هذا الأمر بناء المسجد .

ولا غرو ، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الإسلامى ، ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتمسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه ، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه .

---

(١) اللبن بفتح اللام وكسر الموحدة على الصحيح ـــ السابق .

(٢) عمدة : بفتح أوله وثانيه ويجوز ضمهما وكذا قوله خشب ـــ الفتح ج ٣ ص ١٠٨ .

(٣) أى زاد عمر فى بنيانه بجنس الآلات المذكورة ولم يغير شيئاً من هيئته إلّا توسيعه ، الفتح ج ٣ ص ١٠٨ .

(٤) ثم غيره عثمان أى من الوجهين التوسيع ، وتغيير الآلات ، المرجع السابق .

(٥) بالحجارة المنقوشة بدل اللبن ، الفتح ٣ / ١٠٨ .

(٦) القصة : بفتح القاف وتشديد الصاد والمهملة وهى الجِصّ بلغة أهل الحجاز وقال الخطابى : تشبه الجص وليست به ، السابق .

(٧) وسقفه بالساج : الساج نوع من الخشب معروف ويؤتى به من الهند ، الفتح ج ٣ ص ١٠٨ .

(٨) صحيح البخارى ، ج ١ ص ١٢١ ، كتاب الصلاة باب بنيان المسجد .

ففى المسجد تتم آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين التى يحرص الإسلام على شيوعها بينهم ، فما لم يتلاق المسلمون دائماً ، على مرات متعددة فى بيت من بيوت الله ، وقد تساقطت من بينهم فوارق الجاه والمال والاعتبار ؛ لا يمكن لروح التآلف والتآخى أن تؤلف بينهم .

كما أن من نظام الإسلام وآدابه ، أن تشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين فى مختلف شئونهم وأحوالهم ، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاً واحداً بين يدى الله « عز وجل » ، وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية ، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله ، ومهما ينصرف كل مسلم إلى بيته يعبد الله ويركع له ويسجد دون وجود ظاهرة الاشتراك والاجتماع فى العبادة ، فإن معنى العدالة والمساواة لن يتغلب فى المجتمع على معانى الأثرة والتعالى والأنانية .

وإن من نظام الإسلام وآدابه كذلك ، أن ينصهر أشتات المسلمين فى بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذى هو حكمه وشرعه ، ولكن ما لم تقم فى أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم ، فإن وحدتهم تتحول إلى شتات ، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء(1) .

ومن فوائد المساجد كذلك أنها مركز لانطلاق جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله وهذا ما أثبته التاريخ ، بل إن منها انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم ، وفيها ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت ، وهل كان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وخالد ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامى إلّا تلامذة المدرسة المحمدية التى كان مقرها المسجدالنبوى ؟ وميزة أخرى للمساجد فى الإسلام وهىأنها تنبعث منها كلمة الحق مدوية مجلجلة على ألسنة العلماء فى إنكار منكر أو أمر بمعروف أو دعوة إلى خير ، أو حفاظ من غفلة ، أو دعوة إلى تجمع ، أو احتجاج على ظالم أو تحذير لطاغية ، ولقد شهدنا فى العصور السالفة كيف كانت المساجد مراكز الانطلاق للحركات الوطنية ضد المستعمرين الفرنسيين والإنجليز ، يلجأ إليها زعماء الجهاد

(1) فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطى ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ضد الاستعمار وضد الصهيونية ، وإذا كنا نرى تعطيلها اليوم عن قيامها بوظيفتها الكبرى ، فما ذلك إلّا ذنب بعض الخطباء من الموظفين أو الجاهلين الغافلين ، ويوم يعتلى منابرها ويؤم محاريبها دعاة أشداء فى الحق ، علماء بالشريعة ، يعود للمسجد فى مجتمعنا الإسلامى ، مكان الصدارة فى مؤسساتنا الاجتماعية ، ويعود المسجد ليعمل عمله فى تربية الرجال ، وإخراج الأبطال ، وإصلاح الفساد ، ومحاربة المنكر ، وبناء المجتمع على أساس من تقوى الله ورضوانه(١) .

## « المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار »

أماعن صلة الأمة بعضها ببعض فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء الذى تذوب فيه عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلّا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلّا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج فى هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال(٢) .

والسبب الذى أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده نَشَّأهم دينهم الذى اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا ، وعلمهم الإيمان والعمل جميعاً فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التى لا تتجاوز أطراف الألسنة . وكانوا على النحو الذى حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٣) .

---

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعى ، ص ٩١ وما بعدها .
(٢) فقه السيرة للغزالى ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ بتصرف .
(٣) سورة النور آية رقم ٥١ .

وبذلك الذى درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة التى شد الله بها أزر دينه ورسوله حتى آتت ثمارها فى كل أطوار الدعوة طوال حياته ﷺ ، وامتد أثرها فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصديق « رضى الله عنه » دون أن تطوع للأنصار أنفسهم أن يحدثوا صدعاً فى شمل الأمة مستجيبين فى ذلك لشهوات السلطة وغريزة السيطرة . لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من الإعجاز السياسى .

الذى اتبعه رسول الله ﷺ فى تأصيل المودة وتمكينها فى مشاعر المهاجرين والأنصار ، الذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء ، بل وكانوا يتسابقون فى تنفيذ بنوده(١) .

ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيراً من حديث الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٢) .

وقد قامت هذه الأخوة على أسس مادية أيضاً ، وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض هذه الظواهر المادية . وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة إلى موقعة بدر الكبرى ، حيث نزل فى أعقابها قوله تعالى : ﴿ **وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾(٣) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطع أثرالمؤاخاة الإسلامية فى الميراث ، ورجع كل إنسان فى ذلك إلى نسبه وذوى رحمه ، وأصبح المؤمنون كلهم إخوة .

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرالأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم ، فلما نزلت : ﴿ **ولِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ** ﴾ نسخت ثم قال : ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ**

---

(١) فصول من السيرة النبوية للدكتور عبد المنعم السيد حسن ، ص ٢٠٠ بتصرف .
(٢) سورة الحشر آية رقم ٩ .
(٣) سورة الأنفال الآية رقم ٧٥ .

أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له(١).

ومن اللافت للنظر أن المهاجرين ــ رضوان الله عليهم ــ لم يستغلوا حفاوة الأنصار بهم ليعيشوا كلاً عليهم ، بل أخذوا يسعون ويكدون فى سبيل العيش ، فاشتغل بعضهم بالتجارة فى أسواق المدينة ، واشتغل بعضهم بالزراعة فى أرض الأنصار .

ويظهر هذا واضحاً فيما رواه البخارى بسنده عن أنس « رضى الله عنه » قال : « قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق ، فربح شيئاً من أقْطٍ وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وَضَرٌ من صُفْرَةٍ . فقال النبى ﷺ : مَهْيَمْ يا عبد الرحمن . قال : يارسول الله تزوجت امرأة من الأنصار ، قال : فما سُقْتَ فيها ، فقال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبى ﷺ : أولم بشاة(٢).

وإعجاب المرء بسماحة « سعد » لا يعدله إعجاب إلّا إعجابه بنبل عبد الرحمن ، هذا الذى زاحم اليهود فى سوقهم ، وبزَّهم فى ميدانهم ، واستطاع ــ بعد أيام ــ أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، إن علو الهمة من خلائق الإيمان ، وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه ، وأكلوا به حتى أضاعوا كرامة الحق فى هذا العالم .

وكان رسول الله ﷺ الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة ، وفى هذه الأخوة السمحة جاء قوله ﷺ لو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذته ــ يعنى أبا بكر خليلاً ــ ولكن أخوة الإسلام أفضل »(٣).

وقد تبودلت الأخوة بين هؤلاء المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا بالإسلام فى نواحى حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخواناً ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض !! .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ، تفسير سورة النساء .
(٢) السابق ، كتاب بدء الخلق ، باب مناقب الأنصار .
(٣) السابق ، كتاب بدء الخلق ، باب مناقب المهاجرين .

## ما يستفاد من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

إن ما قام به الرسول ﷺ من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار له أهمية كبرى بالنسبة للدولة الإسلامية الأولى تظهر فيما يلى :

**أولاً** : إن أى دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلّا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخى والمحبة المتبادلة ، فكل جماعة لا تُؤَلِّفُ بينها آصرة المودة والتآخى الحقيقية ، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة فى الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

على أن التآخى أيضاً لا بد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها . فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى ، خرافة ووهم ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية . ومن أجل ذلك ، فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الإسلامية التى جاءهم بها من عند الله تعالى والتى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله تعالى ، دون الاعتبار لأى فارق إلّا فارق التقوى والعمل الصالح ، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتَّتتهم العقائد والأفكار المختلفة ؛ فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثَرَته وأهوائه(١) .

**ثانياً** : تطبيق هذه الأخوة فى الواقع العملى لحياة الصحابة « رضوان الله عليهم » إن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ تاريخى لم يكن مجرد شعار فى كلمة أجراها على ألسنتهم ، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين .

ولذلك جعل النبى ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسئولية تؤدى فيما بينهم على خير وجه ، وحسبنا دليلاً على ذلك ما قام به سعد بن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف ، إذ عرض على عبد الرحمن بن عوف أن يشركه فى بيته وأهله وماله فى قسمة متساوية .

---

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٥٦ وما بعدها .

ولكن عبد الرحمن بن عوف شكره وطلب منه أن يرشده على سوق المدينة ليشتغل فيها ، ولم يكن سعد ين الربيع منفرداً عن غيره من الأنصار فيما عرضه على أخيه كما قد يظن ، بل كان هذا شأن عامة الصحابة فى علاقتهم وتعاونهم بعضهم مع بعض ، خصوصاً بعد الهجرة وبعد أن آخى النبى ﷺ فيما بينهم .

ولذلك أيضاً جعل الله « سبحانه وتعالى » حق الميراث منوطاً بهذا التآخى ، دون حقوق محسوسة فى أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أن ما بين المسلمين من التآخى والتحاب ليس شعاراً وكلاماً مجردين ، وإنما هى حقيقة قائمة ذات نتائج اجتماعية محسوسة تكون أهم أسس نظام العدالة الاجتماعية .

أما حكمة نسخ التوارث على أساس هذه الأخوة ، فيما بعد ، فهى أن نظام الميراث الذى استقر أخيراً ، إنما هو نفسه قائم على أخوة الإسلام بين المتوارثين ، إذ لا توارث بين دينين مختلفين ، إلَّا أن الفترة الأولى من الهجرة وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة ، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم فى مكة ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار فى المدينة ، فكان ما أقامه الرسول ﷺ من التآخى بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسئولية . ولقد كان من مقتضى هذه المسئولية أن يكون هذا التآخى أقوى فى حقيقته وأثره من أخوة الرحم المجردة .

فلما استقر أمر المهاجرين فى المدينة وتمكن الإسلام فيها ، وغدت الروح الإسلامية هى وحدها العصب الطبيعى للمجتمع الجديد فى المدينة ، وأصبح المهاجرون ذوى أموال استغنوا عن معونة إخوانهم الأنصار المالية ؛ فأصبح من المناسب نسخ هذا الحكم إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك والتميع فى ظل الأخوة الإسلامية العامة وما يترتب عليها من المسئوليات المختلفة ، ولا ضير حينئذ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثراً زائداً على قرابة الإسلام وأخوته(١) .

**ثالثاً** : كما كان لهذه المؤاخاة آثار أخرى منها :

. عقد الألفة بين الضعيف والقوى ، وتمكن الصحبة بين المؤمنين ، وألّا يتعالى

---

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٥٧ وما بعدها .

مؤمن على مؤمن ، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك مؤاخاة حمزة الشريف النسيب مع زيد بن حارثة المولى الذى كان عبداً له ﷺ حتى من عليه بالعتق ، وتبناه إلى أن حرم الله التبنى حيث قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾(١) فكان من حكمة النبى ﷺ أن جعله أخاً لابن عبد المطلب .

مع ملاحظة هنا أن المؤاخاة هذه المرة ليست بين مهاجر وأنصارى بل بين مهاجرين للحكمة التى وصفنا .

**رابعاً : إن النبى ﷺ عندما عقد المؤاخاة كان يشرع للأمة من بعده هذا النظام الذى يجمع المسلمين ولم يكن حكماً لحادثة وواقعة فحسب ، ولا علاجاً مقصوراً بالتالى على ما بين المهاجرين والأنصار بل هو تأليف للمؤمنين ونظام متبع ، وربما تكون الحاجة إليه من بعد أشد وأكبر(٢) .**

فما أحوجنا نحن المسلمين فى عالمنا المعاصر إلى استيعاب هذا الدرس فى الأخوة الإسلامية التى افتقدناها بتأثير من الأثرة والشح فتمزقنا شر ممزق ، وسيطر علينا من كان بالأمس خاضعاً لنا وصار بأسنا شديداً بيننا فهُنَّا على أعدائنا ؛ وأصبحنا طعمة عاجزة تغرى كل معتد بالعدوان وتشجع كل طامع فى استلابنا ؛ ومن هانت عليه نفسه فهى على غيره أهون .

ولكن الأمل فى الله كبير والطريق إليه واضح المعالم : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾(٣)﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾(٤) .

## ثالثاً : صلة المسلمين بغيرهم

بعد أن اطمأن محمد ﷺ إلى وحدة المسلمين وذلك بالمؤاخاة بين مهاجريهم وأنصارهم ، قام بعمل آخر يدل على عظم واقتدار ، ذلك ما وصل به محمد ﷺ إلى تحقيق وحدة يثرب وإلى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٤ جزء من الآية رقم ٤ .
(٢) خاتم النبيين ، للشيخ أبو زهرة ، المجلد الثانى والثالث ، ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .
(٣) سورة فاطر جزء من الآية رقم ١٠ .
(٤) سورة الحج ٤٠ .

متين من الحرية والتحالف . هذا العمل السياسى العظيم هو عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد بينه وبينهم .

وهذه المعاهدة تعتبر بحق من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر التاريخ ، وهذا التطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبى أو رسول فيما نعلم .

وهاك نص المعاهدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبى الأمى بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وحل(١) معهم ، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رباعتهم(٢) يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى(٣) وهم يفدون(٤) عانيهم(٥) ، بالمعروف(٦)

---

(١) حل معهم : حَلَّ بالمكان يَحُلُّ حُلُولاً ومَحَلاً وحَلاً وحَلَلاً ، بفك التضعيف نادر ، وذلك نزول القوم بمَحَلَّةٍ ، وهو نقيض الارتحال ، وحَلَّهُ واحْتَلَّ به واحْتَلَّهُ : نزل به . الليث : الحَلُّ الحُلُولُ ، والنزول ، اللسان مادة حلل .

(٢) المهاجرين من قريش على رِبْعتهم : ربعتهم بكسر الراء وسكون الباء ورِبِعَاتِهِمْ ورَبَعَاتِهِمْ بفتح الباء وكسرها : أى حالة حسنة من استقامتهم وأمْرِهم الأوّل ، ولا يكون فى غير حسن الحال ، وقيل رِبَاعَتُهُمْ شأنهم ، وقال ثعلب : رَبَعَاتُهُمْ وَرَبَعَاتُهُمْ منازلُهُمْ ، وفى كتاب المهاجرين والأنصار الذى معنا هذا ـــ إنهم أمة واحدة على رِبَاعَتِهم أى على استقامتهم يريد أنهم على أمْرِهم الذى كانوا عليه ، ورَبَاعَةُ الرجل شأنه وحاله التى هو رابعٌ عليها ، أى ثابت مقيم ، الفراء : الناس على سكناتِهِمْ ونَزَلاتِهِمْ ورباعَتِهِمْ وَرَبَعَاتِهِمْ ، يعنى على استقامتهم ـــ السابق مادة رَبَعَ .

(٣) يَتَعَاقَلُون بينهم معاقلهم الأولى : أى يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها ، وهو تفاعل من العقل ، والمعاقل الديات جمع مَعْقُلَةٌ والمعاقِل : حيث تعقل الإبل ، ومعاقل الإبل حيث تعقل فيها ، السابق مادة عقل .

(٤) يفدون عانيهم : الفداء بالكسر والمد والفتح مع القصر فكاك الأسير . يقال فداه يفديه فداء وفِدى وفاداه يُفاديه مفاداة إذا أعطى فداءه وأنقذه ، وفدَّاه بنفسه وفداه إذا قال له جُعِلْتُ فداك ،والفِدْيَة والفداء وقيل المُفاداة أن تَفْتَكَّ الأسير بأسير مثله ـــ النهاية ٣ / ١٨٨ .

(٥) عانِيَهُمْ : العانى الأسير وكل من ذَلّ واستكان وخضع فقد عنا يَعْنُو وهو عانٍ والمرأة عانية جمعها عوان ، السابق ، ٣ / ١٣٥ وما بعدها .

(٦) المعروف : اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المُحَسَّنَاتِ والمُقَبَّحَات وهو من الصفات الغالية كما أنه بمعنى النصفةوحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس والمنكر ضد ذلك جميعه « اللسان مادة عرف » .

والقسط[١] بين المسلمين والمؤمنين ، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ثم ذكر هذا الشرط لكل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار منهم وهم بنو الحارث ابن الخزرج وبنو ساعدة ، وبنو جشم ، وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وبنو النبيت وبنو الأوس ، إلى أن قال : وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً[٢] بينهم أن يعطوا بالمعروف فى فداء وعقل[٣] ولا يُحَالف[٤] مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم[٥] أو إثم[٦] وعدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعهم ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا يُنْصر كافر على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة[٧] ،

---

(١) القسط : بالكسر العَدْل تقول منه « أقسط » الرجل فهو مُقْسِط ومنه قوله تعالى ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، مادة قسط ، طبع بالمطابع الأميرية . بمصر .

(٢) لا يتركون مُفْرحاً بينهم : يقال أَفْرَحَهُ الشىء والدَّيْنُ ، أثقله والمُفْرِح ، المثقل بالدين ، ويقال رجل مُفْرَح : محتاج مغلوب وقيل فقير لا مال له ، وفى الحديث الذى معنا ، ألا يتركوا مُفْرَحاً حتى يعينوه على ما كان من عَقْلٍ أو فداء ، قال ، والمفرح المفدوح وكذلك قال الأصمعى قال : هو الذى أثقله الدَّيْنُ ، يقول ، يُقْضَى عنه دَيْنُهُ من بيت المال ولا يترك مديناً ، اللسان مادة فرح .

(٣) العَقْلُ : الدية ، وعقل القتيل يعقله عقلاً : وداه ، وعقل عنه : أدَّى جنايَتَهُ وأصله أن القاتل كان إذا قتل قتيلاً جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أولياء المقتول أى شدها فى عُقُلِها ليُسلمها إليهم ويقبضوها منه فسميت الدية عقلاً بالمصدر ، يقال عَقَل البعير يَعْقِله عقلاً وجمْعُهَا عُقُول وكان أصل الدية الإبل ، ثم قُوِّمت بعد ذلك بالذهب والفضة والبقر والغنم وغيرها ، السابق ، مادة عقل والنهاية ٣ / ١١٧ .

(٤) يحالف : الحِلْف بالكسر ، العهد يكون بين القوم ، وقد حالفه أى عاهَدَهُ وتحالفوا أى تعاهدوا وأصل الحلف كما يقول ابن الأثير : المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، اللسان مادة حلف .

(٥) أو ابتَغى دسيعة ظلم : أى طلب دَفْعاً على سبيل الظلم ، فأضافه إليه وهى إضافة بمعنى من ، ويجوز أن يراد بالدسيعة العَطِيَّة أى ابتغى منهم أن يدفعوا إليه عطية على درجة ظُلمهم ، أى كونهم مظلومين ، أو أضافها إلى ظلمه لأنه سبب دفعهم لها ، النهاية ٢ / ٢٢ ، اللسان مادة دسع » .

(٦) الإثم : الذنب ، وقيل هوأن يعمل ما لا يحل له ، وفى التنزيل العزيز ﴿ والإثم والْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أى ما أثم فيه قال الفارسى : سماه بالمصدر كما جعل سيبويه به المظلمة اسم لما أخذ منك ، اللسان مادة أثم .

(٧) وإن ذمة الله واحدة : الذمة الأمان هاهنا ، ولهذا سُمّى المعاهد ذِمِّيًّا لأنه أعطى الأمان على ذِمَّةِ الجزْيَة التى تُؤْخَذ منه ، اللسان مادة ذمَم .

يجير(١)) عليهم أدناهم(٢)) وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض(٣)دون الناس(٤)وأنه من تبعنا من اليهود(٥) ، فإن له النصر(٦) المعروف والأسوة(٧) غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحد ولا يسالم مؤمن دون مؤمن(٨) فى قتال فى سبيل الله إلّا على سواء وعدل(٩) بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب

---

(١)) يُجيرُ : أى ينصر ويمنع عليهم أدناهم قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ أى لن يمنعنى من الله أحد ، والجار والمُجيرُ هو الذى يمنعك ويجيرك وفى الحديث يجير عليهم أدناهم ، أى إذا أجار واحد من المسلمين حراً أو عبداً أو امرأة واحداً أو جماعة من الكفار وخَفَرَهم وأمنهم جاز ذلك على جميع المسلمين لا ينقضى عليه جواره وأمانه ، اللسان مادة جَوَرَ » .

(٢)) أدناهم : الأدنى السَّفَلُ أبو زيد والدَّنِيُّ الخسيس ، بغير هَمْزٍ ومنه قوله تعالى ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ أى الذى هو أخس ، اللسان مادة دنا « ومعنى يجير عليهم أدناهم أى إذا أجار واحدٌ من المسلمين حرًّا أو عبداً أو أمة واحداً أو جماعة من الكفار وخفرهم وأَمَّنهم جاز ذلك على جميع المسلمين لا يُنْقَضُ عليه جِوَارُه وأمانُه » النهاية ١ / ١٨٦ » .

(٣) وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض ، المولى بمعنى الحليف وهو من انضم إليك فَعَزَّ بعزتك وامتنع بِمَنْعَتِكَ ، والمولى أيضاً بمعنى الناصر والمحب قال ﷺ « اللهم والِ من والاه » أى أحبب من أحبه وانصر من نصره ، « اللسان مادة ولى » .

(٤) دون الناس : أى غير الناس ، المفردات ص ١٧٦ .

(٥) وأنه من تبعنا من اليهود : بعه من باب طَرِبَ وسَلِمَ إذا مشى خلفه أمر به فمضى معه وكذا « اتَّبَعَهُ » وهوافْتَعَلَ وأَتْبَعَهُ على أَفْعَل إذا كان قد سبقه فلحقه وأَتْبَعَ غَيره يقال أَتْبَعْتُهُ الشيء فَتَبِعَهُ ، وقال الأخفش تَبِعَهُ وأَتْبَعَهُ بمعنى مثل رَدِفه وأَرْدَفه ، ومنه قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ والتبع يكون واحداً وجميعاً قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ وجمعه أتباع ، وتابعه على كذا متابعة وتِباعاً بالكسر والتَّبَاعُ الوَلاء ، مختار الصحاح مادة ت ب ع » .

(٦) النصر : إعانة المظلوم ، نَصَرَهُ على عدوه ينصره نصراً والاسم النصرة ، مختار الصحاح واللسان مادة نصر .

(٧) والأسوة : بكسر الهمزة وضمها القدوة والمواساة والمشاركة والمساهمة فى المعاش والرزق ، وأصلها الهمزة فقلبت واواً تخفيفاً « النهاية ١ / ٣٢ » .

(٨) وإن سلم المؤمنين واحد ولا يسالم مؤمن دون مؤمن ، السَّلْمُ والسِّلْم بفتح السين وكسرها بمعنى الصلح ، والمعنى فى الحديث لا يسالم مؤمن دون مؤمن ، أى لا يصالح واحد دون أصحابه ، وإنما يقع الصلح بينهم وبين عدوهم باجتماع ملئهم على ذلك ، اللسان مادة سلم ، النهاية ٢ / ١٧٧ وما بعدها .

(٩) العدل : العَدَالة والمعادلة لفظ يقتضى معنى المساواة ويستعمل باعتبار المضايفة ، والعَدْل والعِدْل بالكسر والفتح بمعنى المثل وقيل هو بالفتح ما عادله من جنسه وبالكسر ما ليس من جنسه وقيل العكس ، النهاية ٣ / ٧٢ ، المفردات ص ٣٢٥ .

بعضها بعضاً(١) ، وإن المؤمنين يبيء(٢) بعضهم بعضاً بما نال دماءهم فى سبيل الله(٣) ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك ما لا لقريش(٤)) ولا نفساً ولايحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط(٥) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود(٦) به إلى أن يرضى ولى المقتول بالعقل(٧) ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلَّا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه(٨) وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يقبل منه صرف ولا عدل(٩)وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله « عز وجل » ، وإلى محمد ﷺ ، وإن اليهوّد ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين(١٠)، وإن يهود بنى عوف ومواليهم

---

(١) وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً : أى يكون الغزو بينهم نوبا فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى يعقبها أخرى غيرها « النهاية ٣ / ١١٢ » .

(٢) يبيء بعضهم بعضاً : يبيء من البواء بالفتح والمد السواء يقال دم فلان بواء لدم فلان إذا كان كفؤاله ، والمراد بها فى الحديث الذى معنا أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم ، النهاية ١ / ٩٧ ، مختار الصحاح مادة بَوأ .

(٣) بما نال دماءهم فى سبيل الله : نال بمعنى أصاب وأصله نَيَلَ يَنْيَل مثل فَهِمَ يَفْهَمُ والأمر منه نَلْ بفتح النون وإذا أخبرت عن نفسك كسرت النون ، مختار الصحاح مادة نَيَلَ » .

(٤) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش : يعنى اليهود الذين كانوا وادعهم يقول فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائه ولا يعينوهم عليه .

(٥) وأنه من اعتبَطَ مؤمناً قَتْلاً ، أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة ، توجب قتله .

(٦) فإنه قود به « القود » بفتحتين القصاص وأقاد القاتل بالقتيل قتله به ، يقال أقاده السلطان من أخيه واستقاد الحاكِمَ سأله أن يُقيد القاتل بالقتيل « مختار الصحاح مادة قود » .

(٧) إلى أن يرضى ولى المقتول بالعقل : العقل الدِّيَةُ ، وعقل القتيل يعقله عقلاً ، وداه ، وعقل عنه أدَّى جنايته وذلك إذا لزمته دية فأعطاها عنه ، وهذا هو الفرق بين عقلتهُ وَعَقَلْتُ عنه وعَقَلْتُ له ، ويقال اعتقل فلانٌ من دم صاحبه ، ومن طائِلتِهِ ، إذا أخذ العَقْلَ ، وعقلْتُ له دم فلان إذا تركت القَوَدَ للدِيَّةِ ، اللسان مادة عقل .

(٨) أن ينصر محدثاً : المُحْدِثُ يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر من نصر جانياً ، وآواه وأجاره من خصْمِه ، وحال بينه وبين أنْ يُقْتَصَّ منه ، وبالفتح هوالأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضا به والصبر عليه فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعِلها ولم ينكرها عليه فقد آواه ، النهاية ١ / ٢٠٧ ، واللسان مادة حدث ، أوا .

(٩) لا يقبل منه صرف ولا عدل : روى عن مكحول أنه قال : الصرف التوبة ، والعدل الفدية ، قال أبو عبيد قيل الصرف النافلة ، والعدْل الفريضة ، اللسان مادتى صرف ، وعدل .

(١٠)وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين : فهذه النفقة فى الحرب خاصة فقد شرط عليهم المعاونة على عدوه ، ونُرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذى شرطه عليهم من النفقة ولولا هذا لم يكن لهم فى غنائم المسلمين سهم ، سبل الهدى والرشاد ، ٣ / ٥٥٦ .

وأنفسهم أمة من المؤمنين(١) ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، ومواليهم وأنفسهم إلّا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلّا نفسه(٢) ، وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث ، وبنى ساعدة وبنى جشم ، وبنى الأوس ، وبنى ثعلبة وجفنة ، وبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن بطانة(٣) يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد ، ولا ينحجر(٤) على ثأر(٥) جرح(٦) ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته إلّا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا(٧) .

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم (٨) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن يثرب حرام جرفها(٩) لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلّا بإذن

---

(١) وإن يهود بنى عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين ، يريد أنهم بالصلح الذى وقع بينهم وبين المؤمنين كجماعة منهم كلمتهم وأيديهم واحدة ، النهاية ١ / ٤٣ .

(٢) لا يوتغ إلّا نفسه : الوَتَغُ ، بالتحريك : الهلاك . وَتِغَ يَوْتَغُ وتغاً ، فسد وهلك وأثم ، وأَوْتَغَهُ هو . والمَوْتَغَة ، المَهْلَكَة . اللسان مادة وتغ .

(٣) وإن بطانة يهود : البطانة المراد بها ما دون القبيلة « النهاية ، ١ / ٨٤ .

(٤) ولا ينحجر : أى لا يلتئم جرح على ثأر ، وفى النهاية لما تحجر جرح للبرء انفجر أى اجتمع والتأم وقرب بعضه من بعض ، النهاية ١ / ٢٠٢ ، اللسان مادة حجر .

(٥) على ثأر : الثأر الطلب بالدم ، وقيل الدم نفسه ، والجمعُ أثآر وآثار على القلب ، حكاية يعقوب ، اللسان مادة ثأر .

(٦) جُرْح الفعل : جَرَحه يجرحه جرحاً : أثّر فيه بالسلاح ، وجرَّحَهُ : أكثر ذلك فيه وجَرَحه كمنعه كَلَمَه والاسم الجُرْح بالضم والجمع أجْراحٌ وجُرُوحٌ وجِرَاحٌ وقيل : لم يقولوا أجراح إلّا ما جاء فى الشعر لضرورته ، القاموس واللسان مادة جرح .

(٧) وإن الله على أبر هذا : أى على الرضا به .

(٨) البردون الإثم : أى إن الوفاء بما جعل على نفسه دون الغدر والنكث ، النهاية ١ / ٧٢ .

(٩) جُرُفها : الجرف اسم موضع قريب من المدينة وأصله ما تَجْرُفُهُ السيول من الأودية ، اللسان مادة جرف .

أو أن المراد حُرُمها : الحرمة ما لا يحل لك انْتِهَاكُه ، وكذلك المَحْرَمَةِ والمَحْرُمَةُ بفتح الراء وضمها ، يقال إن لى مَحْرُمات فلا تهْتِكْهَا ، واحِدَتُهَا مَحْرَمَةٌ وَمَحْرُمة ، يريد أن له حرمات . والمحارم ما لا يحل استحلاله ، وتجمع حُرْمَةٌ على حُرُمات كظُلْمَة وظُلُمات قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ ﴾ قال الزجاج : هى ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه ، اللسان مادة حَرَم .

أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث(١) أو اشتجار(٢) يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى(٣) ما فى هذه الصحيفة وأبره(٤) وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم(٥) يثرب ، وأنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه ، وإن دعينا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلّا من حارب فى الدين على كل أناس حقهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم(٦) وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلّا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى(٧) ، (٨) .

هذه وثيقة النبى ﷺ التى نظم بها المجتمع الجديد لسكان المدينة المنورة

---

(١) من حَدَثٍ : الْحَدَثُ الأمر الحادث المنكر الذى ليس بمعتاد ولا معروف فى السنة ، اللسان مادة حدث

(٢) أو اشتجار : يقال اشتجر القوم : تَخَالفوا . ورماح شواجر ومُشْتَجِرَةٌ ومتشاجرة : مختلفة متداخلة ، وشجر بينهم الأمر يَشْجر شَجْراً تنازعوا فيه وشجر بين القوم إذا اختلف الأمر بينهم ، واشتجر القوم وتشاجروا ، أى تنازعوا والمشاجرة المنازعة ، وفى التنزيل ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال الزجاج أى فيما وقع من الاختلاف فى الخصومات حتى اشتجروا وتشاجروا أى تشابكوا مختلفين ، وفى الحديث : « إياكم وما شجر بين أصحابى » أى وقع بينهم من الاختلاف ، اللسان مادة شجر .

(٣) إن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة : أتقى يقال وقد تَوَقَّيْتُ وَاتَّقَيْتُ الشىء وَتَقَيْتُه أَتَّقيه وأَتْقيه تقىً وتقية وتقاء حذرته « الأخير عن اللحيانى » والاسم التقوى : التاء بدل من الواو ، والواو بدلٌ من الياء ، ويقال وقاه الله وَقْياً ووقاية وواقية صانه وفى الحديث : فوق أحدُكم وجهه النار ؟ وقيت الشىء أقيه إذا صُنْته وسترْته عن الأذى ، اللسان مادة وق » .

(٤) أبره : فى الحديث برَّ الله قسمَه ، وأَبَرَّهُ برًّا بالكسر وإبراراً صدقه النهاية .

(٥) دهم : فى مختارا لصحاح « دَهَمَهُمْ » الأَمْرُ غَشِيَهُمْ وبابه فَهِمَ وكذا دَهِمَتْهُمُ الخيل و« دَهَمَهُمْ » بفتح الهاء لغة « مختار الصحاح مادة دَهَمَ » والمعنى فى الحديث الذى معنا وإن من أراد أهل يثرب بغائلة من أمر عظيم يَدْهَمُهُمْ أى يَفْجُؤُهُمْ ، اللسان مادة دهم .

(٦) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم — قال الليث الحِوَالُ المُحَاولة حَاوَلْتُهُ حِوَالاً ومحاولة أى طالبْتُهُ بالحيلة ، والحَوَال كل شىء حال بين اثنين ، يقال هذا حِوَالٌ بينهما أى حائل بينهما كالحاجز والحجاز ، أبو زيد : حُلْتُ بينه وبين الشر أَحُول أَشَدَّ الحول والمحَاولَة : قال الليث : يقال حال الشىء بين الشَّيْئَيْنِ يحول حَوْلاً وتحويلاً أى حَجَزَ ، ويقال حلت بينه وبين ما يريد حولاً وحُؤُولاً . ابن سيده . وكل ما حَجَزَ بين اثنين فقد حال بينهما حَوْلاً ، واسم ذلك الشىء ، الحِوَال ، والحَوَل كالحِوَال اللسان مادة حَوَل .

(٧) جار لمن بر واتقى : خفرو أَمَّن من بر واتقى ، النهاية ١ / ١٨٦ بتصرف .

(٨) الروض الأنف ٤ / ٢٤٠ : ٢٤٤ ، سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٦ وما بعدها والبداية والنهاية ٣ / ٢٢٤ : ٢٢٦ ، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٥٥٥ إلى ٥٥٧ .

لا فرق بين مهاجرين وأنصار ، ولا فرق بين مؤمنين ويهود .

ويلاحظ ما يأتى :

**أولاً** : إن كلمة « الدستور » هى أقرب إطلاق مناسب فى اصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة ، وهى إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أى دستور حديث يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة فى الداخل والخارج ، أى فيما يتعلق بعلاقة بعض أفراد الدولة ببعض ، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة بالآخرين .

وحسبنا هذا الدستور الذى وضعه رسول الله ﷺ بوحى من ربه واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود — حسبنا ذلك دليلاً على أن — المجتمع الإسلامى قام منذ أول إنشائه على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الإسلامية قامت — منذ أول بزوغ فجرها — على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية . وظاهر أن هذه المقومات أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى المجتمع ، إذ هى فى مجموعها إنما تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى ، ولا يمكن أن نجد أرضاً يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه ما لم يقم هذا التنظيم الدستورى الذى أوجده رسول الله ﷺ ، على أنه فى الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها .

ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البدهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلَّا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستورى شىء ، وهى أحبولة عتيقة ، كان بقصد منها محترفو الغزو الفكرى وأرقاء الاستعمار ، أن يقيدوا بها الإسلام كى لا ينطلق فيعمل عمله فى المجتمعات الإسلامية ، ولا يصبح له شأن قد يتغلب على المجتمعات المنحرفة الأخرى ، إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة فى أن يكون الإسلام ديناً لا دولة ، وعبادات مجردة لا تشريعاً وقوانين ، وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة فى الواقع ، فينبغى أن ينقلب فيصبح غير صالح لذلك . ولو بأكاذيب القول .

غير أن هذه الأحبولة تقطعت سريعاً ، لسوء حظ أولئك المحترفين ، وأصبح الحديث عنها من لغو القول ومكشوف الحقد والضغائن .

ولكن مهما يكن ، فينبغي أن نقول ، ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة إن مولد المجتمع الإسلامى نفسه إنما كان ضمن هيكل متكامل للدولة ، وما تنزلت تشريعاته إلّا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعى المتناسق من جميع جهاته وأطرافه ، وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك(١) .

**ثانياً** : إن النبى ﷺ بحكم هذا النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة المنورة صار هو الرئيس والمسئول الأول عن تنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ، ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج فى حرب إلا بإذنه ، حتى لا تتورط فى أمر يضطرب أمر المجتمع الذى أريد أن يقوم على أساس التعاون فى جلب الخير ، ودفع الشر ، يتصادقون ويتواردون ولا يتعاونون على إثم أو عدوان(٢) .

**ثالثاً** : وحد الرسول ﷺ بهذه الوثيقة بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وجعل منهم أمة واحدة ألف الإسلام بين قلوب أفرادها المتباينة ، كما أوجد التعاون والتضامن بين أفرادهم على أساس أن الأخوة فى الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة القرابة(٣) .

**رابعاً** : عالجت هذه الوثيقة ما كانت المدينة والمجتمع العربى كله يئن منه ، حروب داهية كانت متواصلة ، وطغيان وتنكر صححته الوثيقة بدعوتها للتواصل والتراحم فكانت بلسماً لجراحات المجتمع المدنى ، كما عالجت الطبقات ، وطغيان الحاكمين بنصرة المظلوم ورعاية الحقوق ، وحرية التدين ، وألغت ما يعرف بالطبقية والعنصرية بتقرير المساواة فى الحقوق والديّات ، وذلك لإتمام مرحلة التطور الصاعد ليعيش الجميع لأنفسهم ولغيرهم من الناس ، وهذا يحملنا على أن نذكر ما فشلت فيه الدول إلى اليوم فى تاريخها الطويل من الدعوة إلى المساواة والحرية وهى تبذل أقصى ما تستطيع لمحاربة حرية الشعوب المخالفة لهم فى الدين ،

---

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٦٠ وما بعدها .

(٢) خاتم النبيين ، للشيخ أبو زهرة ، ج ٢ ص ٥٦٦ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ، للدكتور حسن إبراهيم حسن ، ج ١ ص ١٠٢ .

أو الجنس أو المذاهب الاقتصادية أو السياسية(١) .

**خامساً** : تدل هذه الوثيقة على مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين لا من حيث إنها شعار براق للدعاية والعرض ، بل من حيث إنها ركن من الأركان الشرعية المهمة للمجتمع الإسلامى ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة ، وحسبنا من مظهر التطبيق لهذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبى ﷺ فى هذا البند بقوله : وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أياً كان محترمة ، وجواره محفوظ لا ينبغى أن يجار عليه فيه ، فمن أدخل من المسلمين أحداً فى جواره ، فليس لغيره حاكماً أو محكوماً أن ينتهك حرمة جوار ه هذا ، والمرأة المسلمة لا تختلف فى هذا عن الرجل إطلاقاً ، فلجوارها ــ أياً كانت ــ من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكه أى إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته ، وذلك بإجماع عامة العلماء ، وأئمة المذاهب(٢).

روى الشيخان وغيرهما أن أم هانىء بنت أبى طالب ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح ، فقالت : يا رسول الله زعم ابن أمى على أنه قاتل رجلاً أجرته : فلان ابن هبيرة .

فقال رسول الله ﷺ : « فقد أجرنا من أجرت يا أم هانىء »(٣) .

وفى هذا يظهر لنا مدى الرفعة التى نالتها المرأة فى حمى الإسلام وظله ، وكيف أنها نالت كل حقوقها الإنسانية والاجتماعية كما نالها الرجل سواء بسواء ، مما لم يحدث نظيره فى أمة من الأمم .

غير أن المهم أن نعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التى أرستها شريعة الإسلام ، والمظاهر التقليدية لها مما ينادى به عشاق المدنية الحديثة اليوم ، تلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة ، ويتوخى منها سعادة الناس كلهم نساء ورجالاً ، أفراداً وجماعات ، وهذه نزوات حيوانية

---

(١) دراسات تاريخية ، العرب وظهور الإسلام ، للدكتور محمد مصطفى النجار ، ص ٣٠٤ .

(٢) غير أنه يشترط لذلك شروط معينة ذكرها الفقهاء ، كأن لا تكون إجارة تضر بالمسلمين كإجارة جاسوس وأن تكون لعدد محصور ، وأن تكون لمدة محدودة بحيث لا تزيد على أربعة أشهر « مغنى المحتاج » ٤ ٢٣٨

(٣) صحيح البخارى كتاب الصلاة باب الصلاة فى الثوب الواحد ، صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب صلاة الضحى ، موطأ الإمام مالك كتاب قصر الصلاة باب صلاة الضحى .

أصيلة يتوخى من ورائها اتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن ، دون أى نظر إلى شىء آخر(١) .

**سادساً** : أنه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة . فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم ، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة ، وألا يكون لأحد عليهم سبيل فيها ، وأن عليهم حكم الله تعالى ، وللنبى ﷺ ألا يحكم بينهم إذا وجد مصلحة ، وبين هذا قوله تعالى فى شأنهم : ﴿ **فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾(٢) وإن هذا يدل على أنهم كانوا خاضعين فيما يتعلق بالنظام العام كحرية الدماء ، والظلم ، ولكن شئونهم الخاصة لا يحكم النبى ﷺ فيما بينهم إلَّا إذَا جَاءوا إليه ، فله أن يحكم ، وله أن يعرض ولذا لا نستطع أن نقول إنهم كالذميين تماماً فى الأحكام ، ولكنهم من جهة كالذميين ، ومن جهة ثانية جيران ، يستمتعون بحقهم فى المعاملات الخاصة من غير إثم(٣) .

**سابعاً** : أن الحلف يوجب أن يكون عدو النبى ﷺ عدواً لليهود ، فلا يجيرون قريشاً، ولا من يناصر قريشاً ، إذ عليهم ، ألا يوالوا المشركين ، لأنهم أعداء الله تعالى ، وأعداؤهم ، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة المنورة مسلمين ويهود أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ، ومناصرتهم واحدة ، وبذلك يكون أمن الجميع واحداً ، فمن هاجم فريقاً من أهل المدينة فقد هاجم المدينة كلها ، وذلك بلا ريب يلزم اليهود ، لأن الوثيقة أعطتهم حقوقاً ، وأوجبت عليهم واجبات ، فإذا أخلوا بما يجب عليهم ، فقد أسقطوا ما لهم من حقوق ، لأن الحقوق والواجبات متقابلة ، وما دام الولاء واحداً فإنه لا يصح أن يتعاون اليهود وأعداء محمد ﷺ على شىء دون ما نص عليه(٤) .

---

(١) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) سورة المائدة الآية رقم ٤٢ .
(٣) خاتم النبيين ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٤) خاتم النبيين ، للشيخ أبو زهرة ، ج ٢ ص ٥٦٧ .

**ثامناً** : ألزمت هذه الوثيقة عناصر الأمة ، المشاركة بالمال عند الحاجة إليه ، لا فرق فى ذلك بين مسلم ويهودى « وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » إذ اختلاف الدين لا يحول بين السلام الاجتماعى ، ما دام كل يؤدى ما يلتزم به ، ولا يقف فى وجه مسيرة الآخرين « وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ــ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ــ مواليهم وأنفسهم إلّا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يَوْتِغُ إلّا نفسه وأهل بيته » دون تفريق فى ذلك بين اليهود ومواليهم وبطانتهم » وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم »(١) .

**تاسعاً** : يقرر هذا التحالف حرمة يثرب ، ووجوب احترامها على من يوقع هذه المعاهدة « وأن يثرب حرام جوفها لهذه الصحيفة » .

ويقرر أيضاً حرمة الجار وحسن معاملته « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم »(٢) .

**عاشراً** : يقرر هذا الصلح أن الحكم العدل الذى لا ينبغى للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره ، فى سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشئونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه ، وهو ما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله ، ومهما يبحثوا عن الحلول لمشاكلهم فى غير هذا المصدر فهم آثمون ، معرضون أنفسهم للشقاء فى الدنيا وعذاب الله تعالى فى الآخرة(٣) قال الله تعالى :

**﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾**(٤) **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾**(٥) **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾**(٦) **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾**(٧) وغير ذلك كثير من القرآن والسنة النبوية

(١) تأملات فى البيان النبوى للدكتور إبراهيم عوضين ، ص ١٩٧ بتصرف ط مطبعة السعادة .
(٢) المرجع السابق .
(٣) فقه السيرة للبوطى ، ص ١٥٣ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .
(٥) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .
(٦) سورة الطلاق آية رقم ٤ .
(٧) سورة الطلاق آية رقم ٥ .

الشريفة .

وهكذا أقرت هذه الوثيقة الحضارية فى فجر الإسلام جميع ما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وكان لا بد على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها فهل حدث هذا الالتزام ؟ .

لقد وفى رسول الله ﷺ والمسلمون بهذه البنود . أما اليهود هؤلاء الثعابين الذين لا عهد لهم ولا أمان ولا ذمة فسرعان ما نقضوا عهدهم ، وتحللوا من ميثاقهم ، ولا عجب فهم دائماً أهل مكر وغدر ، ونقض للعهود والمواثيق ، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم ، ثم استئصال شأفتهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين .

## التأريخ بالهجـــرة

وبعد فلما للهجرة من هذه الأهمية الضخمة ، التى صورنا للقارىء الكريم طرفاً يسيراً منها فيما سجلناه من هذه النتائج التى هى فى الحقيقة بمثابة رءوس موضوعات راعينا فيها غاية الإيجاز والاختصار إلى حد الرمز والإشارة ، ولم نقصد بطبيعة الحال إلى تفصيل كل ما لهذا الحدث الضخم من آثار ونتائج ؛ لأن ذلك فوق كونه من وراء الطاقة مما يحتاج إلى حشد الهمم العديدة والأعمار الطويلة والمجلدات الضخمة ، فكيف لا وجميع علوم الإسلام ونظمه وحضاراته التى ألفت فيها مئات الآلاف بل آلاف الآلاف من المصنفات حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فما وفت بها وما كان لها أن تفى ، وما ظنك بكتاب لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ؟ .

نقول جميع هذه العلوم والأنظمة والحضارات ما كان لها أن تتم ولا أن تقوم على ما قامت عليه من أسس متينة ، وأركان ركينة لولا ما قيضه الله للإسلام ومجتمع المسلمين من هذا الحدث الجلل أعنى حدث الهجرة ، نقول : لما لهذا الحدث إذا من فرط الأهمية وجليل الأثر إلى الحد الذى وصفنا بل إلى الحد الذي يجل عن وصف الواصفين ، لم يجد المسلمون أعظم من هذا الحدث ليؤرخ به لأحداث الإسلام كلها .

ومن المعلوم أنه لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ مبدأ للتاريخ الإسلامى ، رغم الأحداث المختلفة التى لها أجل الأثر فى الإسلام وتاريخ تطوره ، وظل الأمر هكذا فى عهد الصديق وطوراً من خلافة عمر حتى تراءى لهذا الفاروق العبقرى الملهم أن يكتب التاريخ « تاريخ الإسلام » أو قل التاريخ الذى يعتمد عليه المسلمون فى تسجيل جميع ما يمر بهم من أحداث عامة وخاصة .

ويذكرون أن سبب عمل سيدنا عمر التاريخ كما يقول صاحب الفتح أشياء منها :

« ما أخرجه أبو نعيم بن الفضل بن دكين فى تاريخه ومن طريقه الحاكم من طريق الشعبى : « أن أبا موسى كتب إلى عمر أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ فجمع عمر الناس فقال بعضهم : أرخ بالمبعث ، وبعضهم أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة فلما تفرقوا قال بعضهم ابدءوا برمضان ، فقال عمر : بل بالمحرم فإنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه » .

وقيل أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية حيث كان باليمن ، أخرجه أحمد بن جنبل بإسناد صحيح لكن فيه انقطاع بين عمرو بن دينار ويعلى ، وروى أحمد وأبو عروبة فى الأوائل والبخارى فى الأدب والحاكم من طريق ميمون بن مهران قال : رفع لعمر صك محله شعبان فقال : أى شعبان ؟ الماضى أو الذى نحن فيه أو الآتى ؟ ضعوا للناس شيئاً يعرفونه ، فذكر نحو الأول ، وروى الحاكم عن سعيد بن المسيب قال : « جمع عمر الناس فسألهم عن أول يوم يكتب التاريخ ، فقال على من يوم هاجر رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك ، ففعله عمر » .

وروى ابن أبى خيثمة من طريق ابن سيرين قال : « قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئاً يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر : هذا حسن فأرخوا ، فلما جمع على ذلك قال قوم : أرخوا للمولد ، وقال قائل للمبعث وقال قائل من حين خرج مهاجراً ، وقال قائل من حين توفى ، فقال عمر : أرخوا من خروجه من مكة إلى المدينة »(١) .

---

(١) فتح الباري ، ج ١٥ ص ١٢٨ .

وطبعى أن ذلك لم يكن من عمر وأهل الحل والعقد من أصحاب النبى ﷺ يومئذ صدفة أو خبط عشواء كما يقولون ، بل كان ذلك من القوم مقصوداً هداهم إليه سديد النظر ، ومستقيم الفكرة ، ومن قبل ذلك ومن بعده توفيق الله الذى ربى هذه الأمة على كلاءته ومزيد رعايته ، فحدث الهجرة كما قلنا معلم شاهق فذ يتميز بقيم عالية أصبحت ملكاً للعالم كله على اختلاف طبقاته وأجناسه ومواطنه فحده بارز الملامح ، لأن التطور فيه لم يكن تطوراً للأمة العربية وحدها ، بل كان تطوراً للعالم كله .

وقد ذابت بالهجرة ملامح ما كانت لتذوب إلَّا بها فانتهى بالهجرة التاريخ القديم كله وبدأ بها تحول كبير فى تاريخ العالم(١) .

فمن أجل ذلك كان رأى المسلمين أن يستعملوا التاريخ الهجرى بالذات فى حياتهم ، ومن عجب أنا نرى كثيراً من المسلمين اليوم ينسون بل يذهلون بالكلية عن هذا التاريخ تاريخ أمتهم ومجدهم وعظمتهم ، ويستعملون بدلاً منه فى كتابتهم ورصد كافة ما يهمهم من أحداث فردية واجتماعية ذلك التاريخ الميلادى أو الأفرنجى كما يسمونه ، مع أن ربهم جل جلاله قد أرشدهم فى غير ما موضع فى كتابه وشرعه الحكيم إلى عروبة تاريخهم ، وأن يربطوا حسابهم **بالأهِلَّةِ** والأشهر القمرية على ما كان يحسب أسلافهم من العرب حتى قبل الإسلام بآماد طوال ، ألم ينظروا إلى نحو قوله تعالى من سورة التوبة :

**﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾**(٢) .

ومن المعلوم أن الأشهر الحرم لا توجد إلَّا فى التوقيت القمرى ، أو لم يربط الله « سبحانه وتعالى » معرفتنا بالسنين والحساب والمواقيت بالأهلة ؟ حيث يقول **﴿ هُوَ اللهُ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾**(٣) وحيث يقول : **﴿ يسألونك عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِىَ**

(١) دراسات تاريخية ، سابق ، ص ٢٨٤ وما بعدها .
(٢) سورة التوبة الآية رقم ٣٦ .
(٣) سورة يونس الآية رقم ٥ .

**مواقِيتُ للنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾(١) أَثُمَّ لم يوقت الله عبادتين تعبدنا بهما ، بالتوقيت القمرى هما الحج والصوم حيث إن الحج يؤدى فى شوال وذى القعدة وثلاثة عشر من ذى الحجة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ﴾(٢) والصوم فإنه فى شهر رمضان قال تعالى : ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾(٣) .

يا قوم إن استخدامكم للتاريخ الإسلامى الهجرى ليس هو استخدام أيام وشهور وسنوات ، وإنما هو إحياء للعوامل التى حركت تاريخ المسلمين فجعلت منهم أمة ، ومجتمعاً ودولة ، وجعلت من دعوة الإسلام دعوة عالمية إنسانية كما هى فى موضوعها ومبادئها ، وليست عربية أو قومية ، حسبما كان موطن النداء الأولى بها فى مكة ، وبين قريش .

على أن إغفالكم لتاريخ الهجرة هو عامل من عوامل الضياع لاستقلال شخصيتكم ، وفى الوقت ذاته هو عامل من عوامل إلحاق المسلمين بغيرهم فى التبعية .

ومن عجب أن يكون لليهود تاريخهم العبرى ، وللنصارى تاريخهم القبطى والميلادى ثم لا يكون لكم أنتم تاريخ تحافظون عليه وتتفاخرون بأمجاده وروائعه بل بدلاً من ذلك تُغْفِلُونَهُ وتتبعون غيركم من عدوكم وعدو دينكم فيما يؤرخ به ذلك العدو مما يعتقده تاريخاً لمجده ودينه أعنى التاريخ الميلادى . ألا ما أصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « لتتبعُن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن ؟(٤) » ألا تعقلون يا قوم كيف وكم كان يخالف رسول الله ﷺ أهل الكتاب وينبه أصحابه وسائر الأمة من بعدهم إلى ضرورة مخالفتهم فى كل ما لا تمتنع المخالفة فيه ؟ .

وإن تعجب فعجب ما نراه اليوم من حاكم لدولة مسلمة يفترض فيه أنه مسلم

---

(١) سورة البقرة رقم ١٨٩ .
(٢) سورة البقرة الآية رقم ١٩٧ .
(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٨٥ .
(٤) صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل .

حيث اخترع هو وزُمرتُه الحاكمة لهذه الدولة الشقيقة المسلمة تاريخاً آخر غير التاريخ الهجري والميلادى جميعاً ، خارقاً بهذا الاختراع الذى لا يزيد فى الحقيقة على أن يكون مجرد حب للمخالفة والظهور بالعجائب وإن خرقت إجماع المسلمين وسفهت أحلام كافة الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان من عهد الفاروق الميمون إلى يوم الناس هذا ، أعنى اعتبار هذا الحاكم لدولته التأريخ بوفاة النبي ﷺ بدلاً مما أجمع عليه الصحابة والمسلمون معهم ومن بعدهم من التأريخ بهجرته ﷺ ، كأنما يرى هذا الحاكم ـــ الذى يفترض فيه بحكم إسلامه أن يتبع سبيل المؤمنين ـــ أن وفاة النبي ﷺ شيء جليل طيب يجب أن يفرح به المسلمون ويحتفلوا به ويعدوه حدثاً مهما لسبب نهضتهم ومجد دولتهم بدلاً من أن يكون عامل حزن وأسى ، تَخْلَعُ ذكراه قلوبهم من صدورهم لما يحسون به من الألم المضاعف بفقد رسولهم وقائد نهضتهم ومجدهم ، وانقطاع الوحى بموته ﷺ ، وما استتبعه ذلك ويستتبعه من المشقة المبالغة والفتن المتلاطمة ، ألا إنها لنزعة يهودية أو شيوعية لا يرمى أعدى أعداء الإسلام إلى ما هو أحسن منها وقديماً قالوا شِنْشِنَةٌ أعْرِفها من أخزم ولله دَرّ الحافظ ابن حجر إذ يقول تعقيباً على ما أخرجه البخارى بسنده عن سهل بن سعد قال : « ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته ، ما عدوا إلّا من مقدمه المدينة » .

قوله « مقدمه » أى زمن قدومه ولم يرد شهر قدومه لأن التاريخ إنما وقع من أول السنة ، وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة فقال : كانت القضايا التى اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربعة : مولده ومبعثه وهجرته ووفاته ، فرجح عندهم جعلها من الهجرة لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع فى تعيين السنة ، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما توقع بذكره من الأسف عليه فانحصر فى الهجرة » .

وبعد فإن لقائل أن يقول : كانت هجرته ﷺ فى شهر ربيع الأول على الصحيح كما قدمنا لك فى حديث البخارى ، فلماذا لم يؤرخوا بيوم الهجرة نفسه أو بشهرها على الأقل بل اختاروا فى تحديد هذا التاريخ الهجرى شهر المحرم ؟ .

وللجواب عن هذا التساؤل يقول صاحب الفتح رحمهُ الله :

« وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان فى

المحرم إذ البيعة وقعت فى أثناء ذى الحجة وهى مقدمة الهجرة فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ ، وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم »[1] .

ثم ذكر الحافظ ـــ رحمهُ اللهـــ ما أسلفنا لك عنه فى الحديث عن سبب عمل عمر التاريخ واجتماع المسلمين على اختيار الهجرة مبدأ له إلى أن قال :

« ثم قال « يعنى عمر » بأى شهر نبدأ : فقال قوم : من رجب ، وقال قائل : من رمضان ، فقال عثمان : أرخوا المحرم فإنه شهر حرام وهو أول السنة ومنصرف الناس من الحج ، قال : وكان ذلك سنة سبع عشرة ـــ وقيل سنة ست عشرة ـــ فى ربيع الأول ، فاستفدنا من مجموع هذه الآثار أن الذى أشار بالمحرم عمر وعثمان وعلى « رضى الله عنهم »[2] .

* * *

---

(١) فتح البارى ج ١٥ ص ١٢٨ .
(٢) السابق ج ١٥ ص ١٢٩ .

# الفصـــل الخامس

## أحكام الهجرة

### الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام :

كانت الهجرة فى أيام النبى ﷺ من دارالحرب إلى دار الإسلام فرضاً ، وفرضيتها هذه باقية إلى يوم القيامة ، والدليل على ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث كثيرة تدل على بقاء هذه الفرضية أعنى فرضية الهجرة من كل دار حرب إلى دار الإسلام .

فمن ذلك ماأخرجه أبو داود بسنـده عن سمرة بن جنـدب قال : قال رسول الله ﷺ : « من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله »(١) .

ومن ذلك ما رواه الطبرانى بسنده عن قيس بن أبى حازم عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى ناس من خثعم فاعتصموا بالسجود فقتلهم فوداهم رسول الله ﷺ بنصف الدية ثم قال : « أنا برىء من كل مسلم أقام مع المشركين لا تراءى ناراهما »(٢) .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن معاوية « رضى الله عنه » .

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها »(٣) .

---

(١) كتاب الجهاد باب الإقامة بأرض الشرك . وإسناده صحيح انظر السراج المنير شرح الجامع الصغير » للعلامة على بن أحمد بن نور الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزى ج ٣ ص ٣٥٠ .

(٢) رجاله ثقات انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٥٣ .

(٣) ج ٤ ص ٩٩ ورجاله ثقات انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٥١ .

وما رواه أيضاً بسنده عن عبد الله بن السعدى أن رسول الله ﷺ قال : « لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو »(١).

وغير ذلك من الأحاديث التى تبين أن وجوب الهجرة من دارالحرب إلى دار الإسلام مستمر إلى يوم القيامة .

بل إن ذلك الحكم أعنى حكم فرضية الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام وبقاء ذلك إلى يوم القيامة قد جاء فى القرآن الكريم نفسه فى نحو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً** ﴾(٢) .

فهأنت ذا ترى كيف أن النص الناطق بهذا الحكم من هذه الآيات الكريمة قد جاء عاماً ليس له ما يخصصه من كتاب ولا سنة ولا غيرهما ، قال جار الله الزمخشرى عند تفسير هذه الآيات الكريمة : وهذا يدل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب ، وعلم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله ، حقت عليه الهجرة(٣) .

وقال الحافظ السيوطى فى الإكليل « استدل بالآية على وجوب الهجرة من دارالكفر ، إلا على من لم يطقها »(٤).

وقال الإمام الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** ﴾(٥).

وقال الحسن : الهجرة غير منقطعة أبداً ، وأما قوله عليه السلام « لا هجرة بعد الفتح » فالمراد الهجرة المخصوصة . فإنها انقطعت بالفتح وبقوة الإسلام ، أما

(١) ج ٥ ص ٢٧٠ ورجاله ثقات انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٥٠ .
(٢) سورة النساء من ٩٧ : ٩٩ .
(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ٥٥٧ .
(٤) تفسير القاسمى ج ٥ ص ١٤٩٥ .
(٥) الآية من سورة الأنفال ورقمها ٧٥ .

لو اتفق فى بعض الأزمان كون المؤمنين فى بلد وفى عددهم قلة ويحصل للكفار بسبب كونهم معهم شوكة وإن هاجر المسلمون من تلك البلدة وانتقلوا إلى بلدة أخرى ضعفت شوكة الكفار ، فههنا تلزمهم الهجرة على ما قاله الحسن ؛ لأنه قد حصل فيهم مثل العلة فى الهجرة من مكة إلى المدينة(١) .

قال صاحب المغنى « رحمه الله » فى بيان الخلاف فى هذا الحكم ووجه الحق فيه « وحكم الهجرة باق لا ينقطع إلى يوم القيامة ، فى قول عامة أهل العلم ، وقال قوم قد انقطعت الهجرة ؛ لأن النبى ﷺ قال : « لا هجرة بعد الفتح » وقال : « قد انقطعت الهجرة ولكن جهاد ونية » .

وروى ابن صفوان بن أمية لما أسلم قيل له لا دين لمن لا يهاجر فأتى المدينة ، فقال له النبى ﷺ : « ما جاء بك أبا وهب ؟ قال : قيل : إنه لا دين لمن لم يهاجر . قال : « ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة أقروا على مساكنكم فقد انقطعت الهجرة ، ولكن جهاد ونية » ثم يستمر صاحب المغنى قائلاً : ولنا : ما روى معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه أبو داود . وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تنقطع الهجرة ما كان الجهاد » رواه سعيد وغيره مع إطلاق الآيات والأخبار الدالة عليها وتحقق المعنى المقتضى لها فى كل زمان » وأما الأحاديث الأول فأراد بها لا هجرة بعد الفتح من بلد قد فتح ، وقوله لصفوان : «إن الهجرة قد انقطعت يعني من مكة. لأن الهجرة الخروج من بلد الكفار فإذا فتح لم يبق بلد الكفار فلا تبقى منه هجرة . وهكذا كل بلد يفتح لا يبقى منه هجرة وإنما الهجرة إليه(٢) .

وقال البغوى :

« قول الرسول ﷺ لا هجرة بعد الفتح » أى من مكة إلى المدينة وقوله : « لا تنقطع » أى من دار الكفر فى حق من أسلم إلى دار الإسلام .

---

(١) مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٢١٣ .

(٢) المغنى لأبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ج ٥ ص ٤٦٢ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ، مكتبة الجمهورية العربية .

قال : ويحتمل وجه آخر وهو أن قوله « لا هجرة » أى إلى النبى ﷺ حيث كان بنية عدم الرجوع إلى الوطن المهاجر منه إلَّا بإذن . فقوله « لا تنقطع » أى هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الأعراب ونحوهم .

وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلى بلفظ « انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار » أى ما دام فى الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشى أن يفتن على دينه . ومفهومه أنه لو قدر ألَّا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها »[١] .

وقال الحافظ ابن حجر فى « الفتح » :

وقدوقعت الهجرة فى الإسلام على وجهين : الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما فى هجرتى الحبشة الأولى والثانية ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .

الثانى : الهجرةمن دار الكفر إلى دار الإيمان . وذلك بعد أن استقر النبى ﷺ بالمدينة ، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص ، وبقى عموم الانتقال من دار الكفر ، لمن قدر عليه باقياً »[٢] .

## « على من تجب الهجرة ؟ »

تجب الهجرة باتفاق على من تحققت فيه صفتان : أولاهما القدرة على الهجرة والأخرى : العجز عن إظهار دينه والقيام بشعائر عبادته فى أرض الكفر ، فهذا تجب عليه الهجرة بدينه إلى الله ورسوله استعلاء لعقيدته ، وتمرداً على الضعف والاستكانة ، وطلباً للعزة والحرية والكرامة فإذا هاجر فقد التزم بالشرع الحنيف .

---

(١) شرح السنة للإمام البغوى ج ١٠ ص ٣٧١ تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناءوط طبعة وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد بالسعودية .

(٢) ج ١ ص ٤١ .

وإذا لم يهاجر فقد تقاعس عن الإذعان للحق ورضى بالمعيشة فى دار لم يستطع فيها إظهار دينه مع قدرته على الهجرة منها .

وفى هذا التقاعس جاء النعى والتنديد فى الآيات السابقة من سورة النساء .

ولا تجب الهجرة باتفاق ولا تستحب كذلك على من فقد الصفة الأولى من هاتين الصفتين أعنى صفة القدرة على الهجرة .

وهؤلاء هم المعنيون بالاستثناء فى قوله عز وجل : ﴿ **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** ﴾(١) . فهؤلاء الذين لا يقدرون فعلاً على المقاومة لشيخوختهم التى أدت بهم إلى العجز والضعف ، وكذلك النساء والأطفال الصغار الذين لا يجدون وسيلة تخلصهم مما هم فيه من القهر والذل ، ولا يعرفون طريقاً يستطيعون سلوكه للنجاة مما يلاقون فى دار الكفر من ذل وهوان إما للزمانة والمرض ، وإما للفقر والجهل بمسالك الأرض وتقطع الأسباب والحيل ، وتعمية السبل عليهم يرجى أن يعفو الله عنهم ، ولا يؤاخذهم بالإقامة فى دار الكفر(٢) ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلّا وسعها .

أما من تحققت فيه أولى الصفتين الآنفتين وتخلفت أخراهما بأن كان قادراً على الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام لكنه يمكنه إظهار دينه بها فإن الهجرة فى حقه لا تجب ولكن تستحب .

قال الإمام الشافعى فى الأم :

« ولما فرض الله « عز وجل » الجهاد على رسوله ﷺ وجاهد المشركين بعد إذ كان أباحه وأثخن رسول الله ﷺ فى أهل مكة ، ورأوا كثرة من دخل فى دين الله عز وجل اشتدوا على من أسلم منهم ففتنوهم عن دينهم أو من فتنوا منهم ؛ فعذر الله من لم يقدر على الهجرة من المفتونين فقال : « **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** » ، وبعث إليهم رسول الله ﷺ « إن الله « عز وجل » جعل لكم مخرجاً وفرض على من قدر على الهجرة الخروج إذا كان ممن يفتن عن دينه ولا يمتنع فقال

(١) النساء آية رقم ٩٨ .

(٢) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ج ٥ ص ١٩١ بتصرف ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فى رجل منهم توفى تخلف عن الهجرة فلم يهاجر : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِم قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ الآية وأبان الله « عز وجل » عذر المستضعفين فقال : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً ﴾ .

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رحِيما ﴾ .

« قال الشافعي رحمه الله تعالى » ويقال : « عسى » من الله واجبة .

« قال الشافعي » ودلت سنة رسول الله ﷺ على أن فرض الهجرة على من أطاقها إنما هو على من فتن عن دينه بالبلد الذي يسلم بها ؛ لأن رسول الله ﷺ أذن لقوم بمكة أن يقيموا بها بعد إسلامهم ــ العباس بن عبد المطلب وغيره ــ إذ لم يخافوا الفتنة وكان يأمر جيوشه أن يقولوا لمن أسلم : « إن هاجرتم فلكم ما للمهاجرين وإن أقمتم فأنتم كأعراب وليس يخيرهم إلَّا فيما يحل لهم »[٢] .

وقال صاحب المغني :

« الناس فى الهجرة على ثلاثة أضرب :

**أحدها** : من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه ولا تمكنه إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذه تجب عليه الهجرة ، لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِم قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ .

وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب لأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه ؛ والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته وما لا يتم الواجب إلَّا به فهو واجب .

---

(١) ج ٤ ص ٨٤ .

**الثانى** : من لا هجرة عليه وهو من يعجز عنها إما لمرض أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء والولدان وشبههم فهذا لا هجرة عليه ؛ لقوله تعالى :

﴿ **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً** ﴾ ولا توصف باستحباب لأنها غير مقدور عليها .

**والثالث** : من تستحب له ولا تجب عليه ، وهو من يقدر عليها لكنه يتمكن من إظهار دينه وإقامته فى دار الكفر فتستحب له ليتمكن من جهادهم وتكثير المسلمين ومعونتهم ويتخلص من تكثير الكفار ومخالطتهم ورؤية المنكر بينهم ، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجب دينه دون الهجرة . وقد كان العباس عم النبى ﷺ مقيماً بمكة مع إسلامه وروينا أن نعيم النحام حين أراد أن يهاجر جاءه قومه بنو عدى فقالوا له : أقم عندنا وأنت على دينك ونحن نمنعك ممن يريد أذاك واكفنا ما كنت تكفينا ، وكان يقوم بيتامى بنى عدى وأراملهم فتخلف عن الهجرة مدة ثم هاجر بعد . فقال له النبى ﷺ « قومك كانوا خيراً لك من قومى لى قومى أخرجونى وأرادوا قتلى وقومك حفظوك ومنعوك . فقال : يارسول الله بل قومك أخرجوك إلى طاعة الله وجهاد عدوه وقومى ثبطونى عن الهجرة وطاعة الله أو نحو هذا القول »(١) .

وقال الحافظ ابن حجر فى شرح قول البخارى : « باب لا هجرة بعدالفتح » قوله : « باب لا هجرة بعد الفتح » أى فتح مكة أو المراد ما هو أعم من ذلك إشارة إلى أن حكم غير مكة فى ذلك حكمها ؛ فلا تجب الهجرة من بلد قد فتحه المسلمون أما قبل فتح البلد فمن به من المسلمين أحد ثلاثة .

**الأول** : قادر على الهجرة منها لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجبه فالهجرة منه واجبة .

**الثانى** : قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته فمستحبة لتكثيرالمسلمين بها ومعونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم .

**الثالث** : عاجز بعذر من أسر أو مرض أو غيره ؛ فتجوز له الإقامة فإن حمل

---

(١) ج ٨ ص ١٦٣ .

نفسه وتكلف الخروج منها أجر »(١).

هذا هو حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام وبقيت أقسام أخر للهجرة استوفى الحديث فيها مع سابقها ابن العربى « رحمه الله » فى كتابه « أحكام القرآن » حيث قال :

**الهجرة تنقسم إلى ستة أقسام :**

**الأول** : الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضاً فى أيام النبى ﷺ مع غيرها من أنواعها بيناها فى شرح الحديث ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة ، والتى انقطعت بالفتح هى القصد إلى النبى ﷺ حيث كان ، « فمن » أسلم فى دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام ، فإن بقى فقد عصى . ويختلف حاله كما تقدم بيانه .

**الثانى** : الخروج من أرض البدعة . قال ابن القاسم سمعت مالكاً يقول : لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف .

وهذا صحيح ، فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ .

وقد كنت قلت لشيخنا الإمام الزاهد أبى بكر الفهرى ارحل عن أرض مصر إلى بلادك .

فيقول : لا أحب أن أدخل بلاداً غلب عليها كثرة الجهل وقلة العقل . فأقول له :

فارتحل إلى مكة أقم فى جوار الله وجوار رسوله ؟ فقد علمت أن الخروج عن هذه الأرض فرض لما فيها من البدعة والحرام ، فيقول : وعلى يدى فيها هدى كثير ، وإرشاد للخلق وتوحيد ، وصد عن العقائد السيئة ودعاء إلى الله « عز

---

(١) فتح البارى ج ١٢ ص ١٦٣ .

وجل » وتعالى لكلام بيني وبينه فيها إلى حد شرحناه فى ترتيب « الباب » الرحلة واستوفيناه .

**الثالث** : الخروج عن أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

**الرابع** : الفرار من الإذاية فى البدن وذلك فضل من الله « عز وجل » أرخص فيه ؛ فإذا خشى المرء على نفسه من موضع فقد أذن الله « سبحانه » له فى الخروج عنه ، والفرار بنفسه ليخلصها عن ذلك المحذور .

وأول من حفظناه فيه الخليل إبراهيم «عليه السلام» لما خالف من قومه قال: ﴿إنى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى﴾ وقال ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ وموسى قال الله سبحانه فيه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

**وذلك يكثر تعداده .**

**ويلحق به وهو « الخامس » خوف المرض فى البلاد الوخمة والخروج منها إلى الأرض النزهة .**

**وقد أذن النبى ﷺ للرعاء حين استوخموا المدينة أن يتنزهوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يصحوا ، وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون ، فمنع الله « سبحانه » منه بالحديث الصحيح عن النبى ﷺ .**

**السادس** : الفرار خوف الإذاية فى المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه والأهل مثله أو آكد ، فهذه أمهات قسم الهرب »[1] .

## من مات وهو فى طريق هجرته

من خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم مات أثناء الطريق وقبل وصوله إلى الدار التى قصدها للهجرة فقد وقع أجره على الله « تبارك وتعالى » قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ

---

(١) ج ١ ص ٤٨٣ : ٤٨٥ .

**فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيمَاً** ﴾[1].

ولهذه الآية سبب نزول رواه أبو يعلى :

عن ابن عباس « رضى الله عنهما » قال خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً فقال لأهله : احملونى فأخرجونى من أرض المشركين إلى رسول الله ﷺ فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى ﷺ فنزل الوحى : ﴿ **وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾[2].

وهذاالحكم جار فى كل الحالات التى تشبه هذه الحالة إلى يوم القيامة . سواء أقلنا بقالة الجمهور من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهى الصحيح .

أم قلنا بقالة غيرهم من أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ فإن الخلاف كما هو معروف ليس فى جريان الحكم على الحوادث المشابهة لصورة السبب ، وإنما الخلاف هو فى مجرد الدلالة على جريان الحكم فى هذه الحوادث المشابهة بأى وجه من وجوه الدلالة على جريان الحكم فى هذه الحوادث المشابهة ، بأى وجه من وجوه الدلالة هو ، أهو بنفس اللفظ العام لدخول جميع تلك الحوادث تحت عمومه أم هو بالقياس على الحادثة الأولى التى هى صورة السبب ؟ فسواء أقلنا إذا بهذا أم بذاك فإن جريان هذا الحكم على الحوادث المشابهة لصورة السبب هنا مما لا خلاف فيه أصلاً .

وقال أيضاً عز من قائل :

﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾[3].

---

(١) سورة النساء جزء من الآية رقم ١٠٠ .

(٢) رواه أبو يعلى ورجاله ثقات « مجمع الزوائد ج ٧ ص ١٠ » .

(٣) سورة الحج ٥٨ ، ٥٩ .

أى والذين خرجوا مهاجرين فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، وطلباً لما عنده ، وتركوا الأوطان ، والأهلين ، والخلان ، وفارقوا بلادهم فى الله ورسوله ، ونصرة لدين الله ، ثم قتلوا فى الجهاد أو ماتوا حتف أنفهم من غير قتال ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، والثناء الجميل ، وليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم »[1] فهو يرزق من يشاء بغير حساب ، وليدخلنهم الجنة التى أعد لهم فيها ما يحبونه[2] من كل أنواع النعيم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة التى قدموها فى دنياهم .

## موالاة من لم يهاجر مع قدرته على الهجرة

لا يجوز للمؤمنين أن يوالوا هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام إلَّا أنهم ما زالوا فى دار الشرك ولم يهاجروا منها إلى دار الإسلام قال تعالى :

**﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾**[3] .

أى أن الذين دخلوا فى الدين الإسلامى عقيدة ، ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلاً .. ولم يهاجروا إلى دار الإسلام التى تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ، ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذى أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله ، ويحقق فيها وجوده الكامل ، بعدما تحقق له وجوده فى مكة نسبياً ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع فى تجمع عضوى حركى ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجه له بهذا الوجود المميز .

وجد هؤلاء فى مكة ، أو فى الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذى يقوم على هذه العقيدة ، ولا يدينون فعلاً دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه .

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٣١ .

(٢) البيضاوى ص ٤٥٨ بتصرف .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٧٢ .

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء فى المجتمع المسلم ، ولم يجعل الله لهم ولاية بكل أنواع الولاية ــ مع هذا المجتمع لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامى ، وهذا الحكم مفهوم ومنطقى مع طبيعة هذا الدين ومع منهجه الحركى الواقعى ؛ فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء فى المجتمع المسلم ، ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية . ولكن هناك رابطة العقيدة ، وهذه لا ترتب ــ وحدها ــ على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ، اللهم إلَّا أن يعتدى عليهم فى دينهم » .

فيفتنوا مثلاً عن عقيدتهم . فإذا استنصروا المسلمين ــ فى دار الإسلام فى مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم فى هذه وحدها . على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدى على أولئك فى دينهم وعقيدتهم . ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود . فهذه لها الرعاية أولاً .. حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلى لهذا الدين المتمثل فى المجتمع الإسلامى . والتعقيب على هذا الحكم بأن كل أعمال الناس تحت بصره ــ سبحانه ــ يرى مداخلها ومخارجها ومقدماتها ونتائجها . وبواعثها وآثارها(١) .

## هجرة أخرى عامة تجب على كل أحد فى كل أرض

وبعد أن تناولنا الهجرة الجسمانية التى تكون من بلد إلى بلد نتناول : هجرة أخرى تعتبر أصلاً لهجرة الأجساد ألا وهى الهجرة بالقلب إلى الله « سبحانه وتعالى » وإلى رسوله ﷺ .

وهذه الهجرة يهاجر فيها المسلم بقلبه من محبة غير الله إلى محبته .

ومن عبودية غيره إلى عبوديته . ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه ، إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه .

ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه ،

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٥٥٨ ، ١٥٥٩ بتصرف .

وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ ﴾[1] .

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

والفرار إليه « سبحانه وتعالى » يتضمن إفراده بالطلب والتعبد ولوازمهما ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التى اتفقت عليها دعوة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما فى الكون من المكروه والمحذور الذى يفر منه العبد ، فإنما أوجبته مشيئة الله وحده ، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن ، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شىء إلى شىء وجد بمشيئة الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه .

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ « وأعوذ بك[2] منك « وقوله » لا ملجأ ولا منجى منك إلّا إليك »[3] فإنه ليس فى الوجود شىء يفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلّا هوالله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيذ : فار مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففى الحقيقة هو هارب من الله إليه ، ومستعيذ بالله منه .

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً

---

(١) سورة الذاريات الآية رقم ٥٠ .

(٢) روى الإمام مسلم بسنده عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسْته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول « اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » صحيح مسلم كتاب الصلاة ــ باب ما يقال فى الركوع والسجود .

(٣) عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك ،رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجى منك إلّا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت » البخارى كتاب الدعوات باب إذا بات طاهراً .

ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذى يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق فى قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ، مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذراً ألّا يكون الثاني يفيده منه بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدر وشاء ما يفر منه فإنه لا يبقى فى القلب التفات إلى غيره .

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه ، وهو معنى الهجرة إلى الله « تعالى » ، ولهذا قال النبى ﷺ المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »(١) ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة فى غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

والمقصود : أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن يكون ما هاجر إليه أحب مماهاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر .

وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بُلى بهؤلاء الثلاثة ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه فى كل وقت أن يهاجر إلى الله ولاينفك في هجرته إلّا بالممات(٢) .

* * *

(١) صحيح البخارى كتاب الإيمان . باب : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

(٢) زاد المهاجر إلى ربه للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ٦٩١ ــ ٧٥١ هـ من ص ١٦ إلى ص ٢٠ بتصرف مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر .

# خاتمـة البحث

وتتناول

# عبراً مسـتخلصة



الحمد لله أولاً وآخراً وله وحده الحمد والشكر ، وبعد أن انتهيت من كتابة هذه الرسالة المتواضعة لا بد لى من الإشارة لبعض النتائج المستخلصة منها وإن كنت قد اتبعت ذلك بعد كل فقرة من فقرات الرسالة .

* * *

**أولاً** : إن هجرة المصطفى ﷺ ليست أول الهجرات فى حياة الأنبياء بل سبقتها هجرات عديدة لبعض الأنبياء « عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليمات » .

**ثانياً** : إن كبرياء السادة وملق الأتباع يضع أمام المصلحين عقبات جساماً دون تحطيمها جهاد وجلاد ، ينبغى أن يتهيأ لها المصلحون حتى لا تروعهم المفاجأة .

**ثالثاً** : إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم بعد أن ينزل بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد ، دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم فى معتقداتهم .

**رابعاً** : يجوز للمسلمين أن يدخلوا فى حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك سواء كان المجير من أهل الكتاب أو كان مشركاً .

**خامساً** : قد تحدث حماية للداعية إلى الله « تبارك وتعالى » من أحد أقربائه الذين ليسوا متبعين لدعوته ، وفى ذلك فائدة عظيمة للدعوة حين تكون مستضعفة .

**سادساً** : ينبغى على الداعية ألا يقتصر فى دعوة الناس إلى الخير ضمن مجالسه وفى بيته فحسب ، بل يجب عليه أن يذهب إلى كل أماكن التجمع للناس أو يغلب على ظنه أن الناس يتجمعون فيه ، كما أنه لا ينبغى له أن ييأس من إعراضهم عنه مرة بعد أخرى .

**سابعاً** : إن الدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ منه حقيقة الإسلام نفسه فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعبئها ، مهما كان شأنه أو عمله أو اختصاصه .

**ثامناً** : إن أى عمل من الأعمال لكى ينجح لا بد له من تخطيط ، وتنظيم ومتابعة ، وبدون ذلك لا يمكن أن ينجح .

**تاسعاً** : إن الجندى الصادق المخلص لدعوة الإصلاح ، يفدى قائده بحياته ففى سلامة القائد سلامة للدعوة ، وفى هلاكه خذلانها ووهنها .

**عاشراً** : إن للشباب فى نجاح الدعوات دوراً كبيراً ، فهم عماد كل دعوة إصلاحية وباندفاعهم للتضحية والفداء تتقدم الدعوات سريعاً نحو النصر والغلبة .

**حادى عشر** : لا يجوز للمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيها ذليلاً ومضطهداً فى حريته الدينية والشخصية ، بل يجب عليه فى هذه الحالة أن يهاجر منه إلى حيث يكون حراً فى تصرفه وإقامة دينه ؛ وإلَّا كانت إقامته معصية يترتب عليها ما لا يحصى من المعاصى .

**ثانى عشر** : لا تجب الهجرة على المسلمين المقيمين فى دار إسلامية قد فتحها المسلمون سواء كانت دار فسق أو دار معصية لأنها دار إسلام وانتشار المعاصى أو الفسوق بها لا يوجب الهجرةمنها على المسلمين .

**ثالث عشر** : إن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الإسلامى .

**رابع عشر** : إن أى دولة لا يمكن أن تقوم أو تنهض إلَّا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يتوفر ذلك إلَّا بالتآخي والمحبة المتبادلة بين أعضاء الأمة ، وهذا التآخي وهذه المحبة لابد وأن يسبقها عقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها .

**خامس عشر** : إن اليهود لا عهد لهم ولا ذمة لا فرق فى ذلك بين من عاصروا النبى ﷺ ولا من جاء من بعدهم حتى اليوم .

* * *

هذه هى بعض النتائج المستنبطة من هذا البحث ، وهذا جهد المقل ، نسأل الله أن يتجاوز عما وقع من تقصير أو زلات ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾ .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



# الفهـــــــــارس

# ـ فهرس المراجـــــع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ أحكام القرآن .

لأبى بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى ـ تحقيق / على محمد البجاوى . طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة « بلا تاريخ » .

٣ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم .

لأبى السعود محمد بن محمد العمادى ـ طبع ونشر دار المصحف بالقاهرة « بلا تاريخ » .

٤ ـ الإسراء والمعراج :

للشيخ محمد متولى الشعراوى ـ الطبعة الرابعة بدار الشروق ١٩٧٥ م .

٥ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة :

للحافظ ابن حجر العسقلانى ـ طبع المطبعة الشرقية ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م .

٦ ـ أضواء على الهجرة :

للشيخ توفيق محمد سبع ـ طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣ هـ . ١٩٧٣ م .

٧ ـ إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية :

للشيخ على بن برهان الدين الحلبى الشافعى ـ طبع بمطبعة محمد أفندى مصطفى بمصر « بلا تاريخ » .

**٨ ــ أنوارالتنزيل وأسرار التأويل :**

للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي الناشر مكتبة الجمهورية العربية بالقاهرة « بلا تاريخ » .

**٩ ــ البداية والنهاية :**

لعماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير طبع ونشر دار الفكر العربي « بلا تاريخ » .

**١٠ ــ تأملات في البيان النبوي :**

للدكتور إبراهيم عوضين ــ الطبعة الثانية بمطبعة دار السعادة بمصر ١٤٠١ هـ . ١٩٨١ م .

**١١ ــ تاج اللغة وصحاح العربية :**

للجوهري ــ تحقيق أحمد عبد الغفور العطار . الطبعة الثانية بدار العلم للملايين ببيروت ١٣٩٩ ه / ١٩٧٩ م .

**١٢ ــ تاج العروس :**

لأبي الفيض محمد مرتضى بن محمد الزبيدي طبعة دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ . ١٩٦٦ م . الناشر دار بيا للنشر والتوزيع بنغازي .

**١٣ ــ تاريخ الرسول والملوك المسمى بتاريخ الطبري .**

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ــ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر « بلا تاريخ » .

**١٤ ــ تاريخ الكامل :**

لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية ١٣٠١ ه .

**١٥ ــ** تاريخ الإسلام السياسي :

دكتور / حسن إبراهيم حسن . طبعة دار النهضة المصرية ١٩٦٦ م .

**١٦ ــ تاريخ الأنبياء فى ضوء القرآن والسنة :**

للدكتور محمد الطيب النجار الطبعة الثالثة بدار الاعتصام ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

**١٧ ــ تهذيب اللغة :**

للأزهرى ــ تحقيق دكتور / عبد السلام هارون وآخرين طبعة الدار المصرية للتأليف والنشر « بلا تاريخ » .

**١٨ ــ التسهيل لعلوم التنزيل :**

للإمام محمد بن أحمد بن جزى الغرناطى المالكى طبعة دار الكتب الحديثة « بلا تاريخ » .

**١٩ ــ تفسير القرآن العظيم :**

للحافظ إسماعيل بن كثير القرشي ــ طبعة دار إحياء التراث العربى عيسى البابى الحلبى بمصر « بلا تاريخ » .

**٢٠ ــ** التفسير الوسيط :

لجماعة من علماء مجمع البحوث الإسلامية طبعة أولى « دورى » .

**٢١ ــ تفسير المراغى :**

للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ــ الطبعة الخامسة بمطبعة مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

**٢٢ ــ تفسير المنار :**

للشيخ محمد رشيد رضا ــ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب « بلا تاريخ » .

**٢٣ ــ جامع الأصول فى أحاديث الرسول :**

لأبى السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزرى ــ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ــ طبع ونشر وتوزيع مكتبة الحلوانى ومطبعة الملاح « بلا تاريخ » .

**٢٤ ــ الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبى » :**

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ــ طبعة دار الشعب « بلا تاريخ » .

**٢٥ ــ جوامع السيرة النبوية :**

لابن حزم الأندلسى مكتبة التراث الإسلامى ، ودار الجيل للطباعة بالقاهرة ١٩٨٢ م .

**٢٦ ــ حياة محمد ﷺ :**

للدكتور / محمد حسين هيكل . الطبعة الثالثة بمطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٤ هـ .

**٢٧ ــ خاتم النبيين :**

للشيخ محمد أبو زهرة ــ طبع ونشر دار الفكر العربى بمصر ١٩٧٩ م .

**٢٨ ــ دراسات تاريخية للعرب وظهور الإسلام :**

للدكتور محمد مصطفى النجار . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة « بلا تاريخ » .

**٢٩ ــ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين :**

لمحمد بن علان الصديقى ــ طبع بمطبعة أبى الهول بالقاهرة ١٣٤٧ هـ ــ ١٩٢٨ م . الناشر جمعية النشر والتأليف الأزهرية .

**٣٠** ــ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى :

للسيد محمود الألوسى البغدادى ــ طبعة دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م .

**٣١** ــ الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام :

لعبد الرحمن الصهيبى تحقيق عبد الرحمن الوكيل ــ طبعة دار النصر للطباعة الناشر دار الكتب الحديثة « بلا تاريخ » .

٣٢ ـ زاد المعاد :

للحافظ أبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ـ طبع بمطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر « بلا تاريخ ».

٣٣ ـ زاد المهاجر إلى ربه :

لابن قيم الجوزية . طبع بمطبعة أنصار السنة المحمدية « بلا تاريخ » .

**٣٤ ـ سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد :**

للشيخ محمد بن يوسف الصالحى الشامى ج ٢ تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد ١٣٩٤ / ١٩٧٤ م وجزء ٣ تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م . طبع بمطبعة الأهرام التجارية صار عن لجنة الإحياء الإسلامى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

**٣٥ ـ السراج المنير شرح الجامع الصغير :**

للشيخ على بن أحمد بن نور الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزى . الطبعة الأولى بالمطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٠٤ هـ .

**٣٦ ـ سنن الترمذى :**

لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة تحقيق / الأستاذ أحمد محمد شاكر الطبعة الثانية شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

**٣٧ ـ سنن الدارمى :**

لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ـ تحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

**٣٨ ـ سنن النسائى :**

لأبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى . طبع بمطبعة مصطفى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٤ م .

**٣٩ ــ سنن ابن ماجه :**

للحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى بن ماجه ــ تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ــ طبعة عيسى الباب الحلبى بمصر ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م .

**٤٠ ــ سنن أبى داود :**

لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى ــ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ــ طبعة دار إحياء التراث العربى بلبنان الناشر دار إحياء السنة النبوية « بلا تاريخ » .

**٤١ ــ السيرة النبوية :**

لأبى محمد عبد الملك بن هشام تحقيق طه عبد الرءوف سعد ــ الطبعة الثالثة طبع بمطبعة الفجالة الجديدة . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

**٤٢ ــ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة :**

للدكتورمحمد محمد أبو شهبة ــ طبع دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠ م .

**٤٣ ــ السيرةالنبوية دروس وعبر :**

للدكتور مصطفى السباعى ــ طبع ونشر عدنان زرزور سوريا ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

**٤٤ ــ سيرة الرسول :**

للشيخ محمد عزة دروزة الطبعة الثانية بمطبعة عيسى الحلبى بمصر ١٣٨٤ هـ . ١٩٦٥ م .

**٤٥ ــ شرح السنة :**

للإمام البغوى ــ تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناءوط . طبع وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد بالسعودية « بلا تاريخ » .

٤٦ــ شرح المواهب اللدنية :

للشيخ محمد بن عبد الباقى الزرقانى على المواهب للقسطلانى طبعة ١٢٩١ هـ « لم يذكر اسم المطبعة » .

٤٧ ــ شرح النووى على صحيح مسلم :

ليحيى بن شرف النووى . طبع بالمطبعة المصرية « بلا تاريخ » .

٤٨ ــ صحيح البخارى :

لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل إبراهيم بن المغيرة بن بردازيه البخارى . طبعة دار الشعب « بلا تاريخ » .

٤٩ ــ صحيح مسلم:

لأبى الحسن مسلم بن حجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى . مصورة بمطابع شركة الإعلانات الشرقية ومؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة . من مطبعة استانبول . المطبوعة ١٣٢٩ هـ .

٥٠ ــ صفة جزيرة العرب :

لأبى محمد الحسن بن أحمد الهمدانى ــ تحقيق محمد بن بليهد النجدى طبعة دار السعادة بالقاهرة ١٩٥٣ م .

٥١ ــ صور من حياة الرسول :

لأمين دويدار . الطبعة الرابعة بدار المعارف بالقاهرة ١٩٧٨ م .

٥٢ ــ الطبقات الكبرى

لأبى عبد الله محمد بن سعد . طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ١٣٥٨ هـ .

٥٣ــ طريق الهجرة :

للدكتور عبد العزيز كامل محاضرة ألقاها بقاعة الإمام محمد عبده ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

**٥٤ ــ عبقرية عمر :**

للأستاذ عباس محمود العقاد . طبعة دار المعارف بمصر ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

**٥٥ــ عقيدة المؤمن :**

للشيخ أبو بكر الجزائرى مطبعة عيسى الحلبى بمصر . الناشر مكتبة الكليات الأزهرية « بلا تاريخ » .

**٥٦ ــ على طريق الهجرة :**

للأستاذ حسن فتح الباب سلسلة مجمع البحوث الإسلامية . السنة الثالثة العدد الثامن والعشرون . طبع دار النصر للطباعة .

**٥٧ ــ عمدة القارى شرح صحيح البخارى :**

لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى . الطبعة الأولى بمطبعة مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

**٥٨ ــ غريب الحديث :**

لأبى عبيد القاسم بن سلام الهروى . طبعة مصورة عن مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الهند ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

**٥٩ ــ الفائق فى غريب الحديث :**

للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشرى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى . الطبعة الثانية بمطبعة عيسى الحلبى بمصر « بلا تاريخ » .

**٦٠ ــ فتح البارى :**

للحافظ أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى ــ تحقيق طه عبد الرءوف سعد ومصطفى محمد الهوارى والسيد محمد عبد المعطى . طبعة شركة الطباعة الفنية المتحدة ومكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨ ه / ١٩٧٨ م .

**٦١ ــ فصول من السيرة النبوية :**

للدكتور عبد المنعم السيد حسن . طبعة دار المطبوعات الدولية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م .

**٦٢ ــ فقه السيرة :**

للشيخ محمد الغزالى ــ تحقيق الشيخ محمد نصر الدين الألبانى . الطبعة السابعة بمطبعة حسان الناشر دار الكتب الحديثة ١٩٧٦ م .

**٦٣ ــ فقه السيرة :**

للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى . الطبعة السابعة بدار الفكر بيروت « بلا تاريخ » .

**٦٤ــ فى ظلال القرآن :**

للأستاذ سيد قطب . الطبعة العاشرة بدار الشروق بيروت ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م .

**٦٥ ــ القاموس المحيط :**

لمجد الدين الفيروزبادى . الطبعة الثالثة بالمطبعة المصرية ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م .

**قصص القرآن :**

لمحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى والسيد شحاتة . طبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ١٣٩٩ هـ ــ ١٩٧٩ م .

**٦٧ ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل :**

لأبى القسم جارالله محمود الزمخشرى ــ تحقيق محمد الصادق قمحاوى ــ طبعة مصطفى الحلبى بمصر ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م .

**٦٨ ــ لسان العرب :**

لابن منظور ــ تحقيق عبد الله على الكبير . طبعة دار المعارف بمصر

١٩٧٩ م .

٦٩ ــ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :**

للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى طبعة مكتبة المقدسى بالقاهرة « بلا تاريخ » .

٧٠ ــ **محاسن التأويل « تفسير القاسمى » :**

للشيخ محمد جمال الدين القاسمى ــ تحقيق محمد فؤاد عبدلباقى . طبعة دار إحياء الكتب العربية « عيسى الحلبى » « بلا تاريخ » .

٧١ ــ **مختار الصحاح :**

لمحمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى . الطبعة الثالثة بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م .

٧٢ ــ **المستدرك على الصحيحين فى الحديث :**

للإمام أبى عبد الله محمد النيسابورى المعروف بالحاكم . مكتبةالنصر الحديثة ــ الرياض « بلا تاريخ » .

٧٣ ــ **المســند :**

للإمام أحمد بن حنبل . الطبعة الثانية بمطبعة المكتب الإسلامى ببيروت ــ دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٧٤ ــ **معارك الإسلام فى العصر النبوى :**

للدكتور محمد رجب البيومى . الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م .

٧٥ ــ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :**

للأستاذ محمد عبد الباق ــ طبعة دار الشعب ١٣٧٨ ه .

٧٦ ــ **معجم البلدان :**

لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى طبعة صادر بيروت ١٣٧٦ هـ .

**٧٧ ـــ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :**

لأبى عبد الله بن عبد العزيز البكرى ـــ تحقيق مصطفى السقا ـــ طبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٤٩ م نشر المعهد الخليفى للأبحاث المغربية .

**٧٨ ـــ المعجم الجغرافى فى البلاد العربية والإسلامية :**

لمحمد آل جاسر . طبعة أولى بدار اليمامة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

**٧٠ ـــ المغنى :**

لأبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة على مختصر أبى القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن أحمد الخرقى . الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر « بلا تاريخ » .

**٨٠ ـــ مفاتيح الغيب أو « التفسير الكبير » :**

للفخر الرازى . الطبعة الثانية دار الكتب العلمية ـــ طهران « بلا تاريخ » .

**٨١ ـــ المفردات فى غريب القرآن :**

لأبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ـــ تحقيق محمد سيد كيلانى مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.

**٨٢ ـــ مقاييس اللغة :**

لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الثانية مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ ـــ ١٩٧٢ م .

**٨٣ ـــ مقدمة ابن الصلاح :**

لعثمان بن أبى ناصر الشافعى ـــ تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٤ م .

**٨٤ ـــ من دروس الهجرة :**

للدكتور سعد ظلام . طبعة دار المعارف بمصر سلسلة اقرأ « ٤٥١ » نوفمبر ١٩٧٩ م .

٨٥ ــ الموطأ :

للإمام مالك بن أنس تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . طبعة دار الشعب « بلا تاريخ » .

٨٦ ــ النحو الوافى :

للدكتور عباس حسن . الطبعة الخامسة بدار المعارف بمصر ١٩٨٠ م .

٨٧ ــ النهاية فى غريب الحديث والأثر :

للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى بن الأثير . طبع بالمطبعة العثمانية ١٣١١ هـ .

٨٨ ــ الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق :

للأستاذ محمد عبد الله السمان . سلسلة مجمع البحوث الإسلامية . السنة الرابعة . الكتاب السادس والأربعون ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٨٩ ــ الهجرة فى القرآن :

للأستاذ محمد الدسوقى . طبعة دارالمعارف بمصر سلسلة اقرأ . كتاب رقم ٣٣٨ فبراير ١٩٧١ .

٩٠ ــ وحى القلم :

لمصطفى صادق الرافعى . ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد عريان ــ الطبعةالرابعة بمطبعة الاستقامة المكتبة التجاربة الكبرى بمصر « بلا تاريخ » .

* * *

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

## الباب الأول



## الفصل الأول



## الفصل الثاني

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مساومته ﷺ بعرض الأمور الدنيوية المغرية عليه لاستمالته | ٧٨ |
| مطالبتهم للرسول ببعض المعجزات | ٨٠ |
| محاولتهم بث الفرقة بين الرسول وعمه أبي طالب | ٨٢ |
| التشنيع والدعاية وترويج الإشاعات الكاذبة | ٨٤ |
| المقاطعة الظالمة | ٨٧ |
| نقض الصحيفة | ٨٨ |
| ومما ينبغي الإشارة إليه هنا | ٨٨ |
| **الباب الثاني** | |
| هجرة الصحابة « رضوان الله عليهم » إلى الحبشة | ٩٥ |
| **الفصل الأول** | |
| هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة | ٩٧ |
| وقت خروجهم إليها | ٩٨ |
| أسماء الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى | ٩٨ |
| استقبال النجاشي للمهاجرين من المسلمين | ٩٩ |
| رجوع مهاجري الحبشة إلى مكة وسببه | ٩٩ |
| قصة الغرانيق وتفنيدها | ٩٩ |
| **الفصل الثاني** | |
| الهجرة الثانية إلى الحبشة | ١٠٥ |
| قريش تحاول الوقيعة بين المسلمين والنجاشي | ١٠٥ |
| حوار بين جعفر والنجاشي | ١٠٧ |
| محاولة ثانية للدس بين المهاجرين والنجاشي | ١٠٩ |
| وقفة مع الأحداث السابقة | ١١٠ |
| **الباب الثالث** | |
| هجرة الرسول وصحابته إلى المدينة | ١٢١ |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

## الفصل الأول

| الموضـوع | الصفحة |
| --- | --- |



## الفصل الثاني

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٨٣ / ٨٨

الترقيم الدولى ٦ ـ ٦٤ ـ ١٤٢١ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



# هذا الكتاب

سيظل التاريخ يسجل إلى الأبد ، أن الهجرة المحمدية حدث جليل ، من أبرز أحداثه ذكرا ، وأخطرها شأنا ، وأبعدها أثرا .

وستظل الهجرة معينا لا ينضب أبدا لأصفى المبادئ ، وأسمى القيم ، لأنها تعد من الأحداث الفاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ولقد كانت الهجرة منطلقا جديداً خصبا للدعوة الإسلامية ونشرها فى أنحاء العالم الواسع شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

والهجرة ولاشك مليئة بالعبر والحكم ، والحركة الإسلامية اليوم فى أمس الحاجة لأن تعيش أحداث الهجرة النبوية ، وتسير معها خطوة خطوة لتأخذ منها الزاد الذى يعينها على تحمل أعباء الطريق وييسر لها المهمة التى تسعى من أجلها .

وهذا الكتاب يتناول أحداث الهجرة من خلال آيات القرآن الكريم مستخلصا منها العبر والحكم ، مبينا أهمية الهجرة وأنها كانت مرحلة جديدة لبناء الأمة الإسلامية وتكوين دولتها من أجل تبليغ رسالتها إلى جميع أنحاء المعمورة .

والكتاب فى الأصل رسالة علمية نال بها المؤلف درجة « الماجستير » فى التفسير وعلوم القرآن .

ودار الوفاء إذ تقدم هذا الكتاب للقراء الكرام تسأل الله عز وجل أن يعم به النفع والفائدة .

**والله من وراء القصد ،،**



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة .

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

فرع المنصورة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

فرع القاهرة : ١١ ش شريف ت ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٥١٨ / ٣٩٣٤٦٠٦